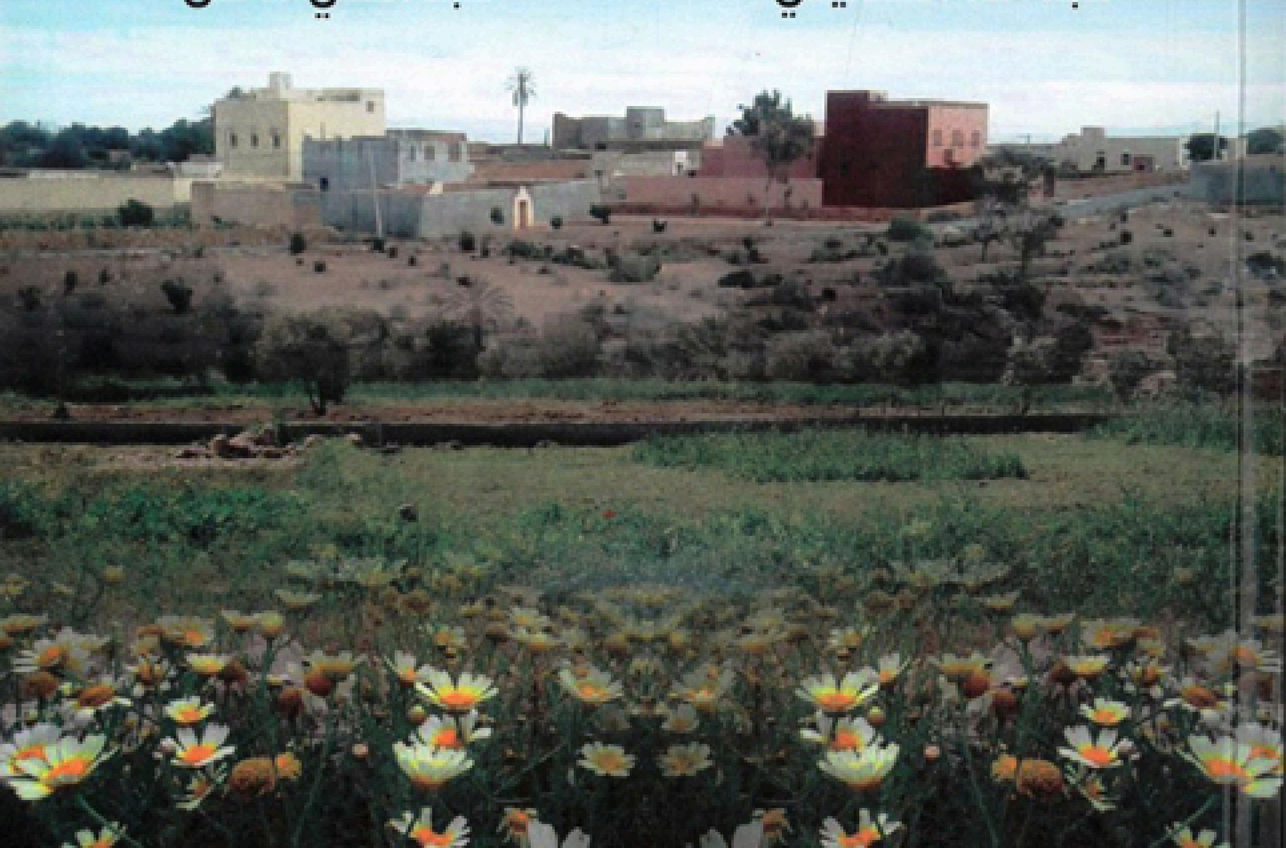
محمد البايك

ذكريات
طفل من القرية

(1941 - 1956)

مراجعة وتقديم
عبد الله السعيدي

اعتنى بإخراجه
عبد الغني فاضل



ذكريات طفل من القرية

(1956 – 1941)

طفولة في أحضان دوار العوينة بسوس والدار البيضاء

ودور الفاعلين الدينيين والوطنيين في إعداد الناشئة للتحرر والاستقلال

- الكتاب: ذكريات طفل من القرية (1941 – 1956)

طفولة في أحضان دوار العوينة بسوس والدار البيضاء

ودور الفاعلين الدينيين والوطنيين في إعداد الناشئة للتحرر والاستقلال

- المؤلف: محمد البايك
- الطبعة الأولى: 1443هـ/2022م
- مقاس صفحات الكتـاب: 17× 24 سم

- رقم الإيداع القانوني: 2021MO5094
- ردمك: 978-9954-687-18-5

- التصميم والإخراج الفني : صباح القصير

- التنفيذ الطباعي: المطبعة والوراقة الوطنية – مراكش

المطبعة والوراقة الوطنية
IMPRIMERIE PAPETERIE EL WATANYA
زنقة أبو عبيدة، الحي المحمدي، الداوديات - مراكش
RUE ABOU OUBAIDA, CITE MOHAMMADIA, DAOUDIAT - MARRAKECH
TEL.: 05 24 30 37 74 LG / 05 24 30 25 91 - FAX: 05 24 30 49 23
iwatanya@gmail.com www.elwatanya.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب

ولا تعكس بالضرورة وجهة نظر المطبعة.

محمد البايك

ذكريات طفل من القرية

(1941 – 1956)

طفولة في أحضان دوار العوينة بسوس والدار البيضاء
ودور الفاعلين الدينيين والوطنيين في إعداد الناشئة للتحرر والاستقلال

مراجعة وتقديم
عبد الله السعيدي

اعتنى بإخراجه
عبد الغني فاضل

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا مجرد ما بقي في الذاكرة من هذه الفترة ما قبل الاستقلال، وقد ذهب من تلك الذكريات الكثير من أسماء عائلات وأعلام، وأماكن وأحداث، أرجو من القارئ الكريم من أحفاد من ذكرت والحفيدات أن يلتمسوا لصاحبها الكثير من العذر في عدم تمكنه وهو بعيد عن العوينة منذ عقود من الزمن، من محاولة أن يكتبوا شبه تاريخ عن هذه الفترة، وقد ذهب جل أبطالها ورجالاتها ونسائها إلى رب رحيم غفور رحيم، فليغفر لي الأحفاد ما أهملت أو نسيت أو لم يصل إلي أو ما لم أتمكن من التأكد منه أو توهمت فيه غير الواقع، ولتكن في شباب هذه الفترة مكنة من الانطلاق من هذه الأرضية للاشتراك والتصحيح والمراجعة والنقد البناء، وإنهم لفاعلون بعد أن استثرت هممهم بهذا العمل النزر اليسير، وليسدوا الخلل وليجمعوا من تاريخ هذه الفترة ما أهمل أو بقي في الأدراج أو ذاكرة الجيل المعمر من بقية السلف والآباء، ذوي الذاكرة النشيطة وإنا لمنتظرون منهم هذا وأكثر بحول الله.

شكر وتقدير واعتذار

أشكر كل من ساهم في إخراج هذه الذكريات من العتمة إلى النور: زوجتي السيدة خديجة الأدوزي وسبطتي فاطمة أزناك وولدي عبد الله البايك وسائر أفراد الأسرة وأحمد مماد وعبد الغني فاضل والدكتور عبد الكريم تارفي ومن راجعها وقدم لها.

والذين تبرعوا بدعمهم لطبع عدد من النسخ الكافية لتوزيع هذه الذكريات والجيل الجديد من شباب دوار العوينة وجمعياتها والذين أسهموا بمواقعهم على وسائل التواصل في استكمالها وأخيرا شيوخي وأساتذتي ذوي الأفضال الكبرى علي إلى يوم الدين.

بين يدي هذه الذكريات :

عبد الله السعيدي
رئيس المجلس العلمي المحلي لعمالة إقليم سيدي إفني

الكتابة عن الذات وعن الحياة الشخصية للإنسان نمط أدبي سردي ذو طابع إنساني اجتماعي يروم الحفر في البواطن والسواكن في النفس الإنسانية، وفي كل ما رافقه في حياته الخاصة والعامة.

وأيضا نمط من التعبير عن المظاهر الشخصية للفرد في كينونته وعلاقاته المعدودة والمتعددة تأثرا وتأثيرا، يتخذ أحيانا أسلوب الرواية، وأحيانا أسلوب التاريخ في منحيين: ما ينجز على مستوى حديث الشخص عن نفسه وتجربته ومواطن نشاطاته نجاحا وإخفاقا أفراحا وأتراحا، والثاني ما ينجز عن حياة الشخص من لدن الآخرين في صيغة ندوة أو لقاء دراسي. وفي الحالتين، فالكتابة في الموضوع ذات أهمية تاريخية معرفية واجتماعية كبيرة.

والكتاب الذي بين يدي (ذكريات طفل من القرية) وضعه كاتبه الأستاذ الفاضل محمد بن عبد الله البايك رهن إشارتي للمراجعة والإفادة عن حسن ظن بي واهتبالي بكتابه وإنجازه، وذلك لأن أصوله من أب بعقيلي كريم وأم مرابطية سعيدية ولأنه كعضو في المجلس العلمي الأعلى شخصية منسوجة من عظامية الأبوين وعصامية النشأة والتكوين[1] ومن رصيد هذا النسيج ينطلق تحررا وتغريدا في كتابه

---

[1] صلتي به تعود إلى الانتماء للجد الأعلى لقبيلة أيت عبد الله أوسعيد وإلى مشيخة الفقيه محمد الإلغي العتيق فهو إذا معم مخول.

الذي قرأته قراءات ثلاث: قراءة صديق زميل مجايل لكاتب كادت نشأته وطفولته أن تماثل نشأتي وطفولتي وإن لم نعايش بعضنا عن قرب، فهو ابن بلدة ذات مياه وبساتين هي قرية عوينة إذا اوبلال بضاحية تيزنيت وفي فضاء شاسع من سهل أزغار تيزنيت، بينما كانت نشأتي في بادية وبيئة معزولة جافة ضمن هضبة مجاط تزلمي القاحلة وهي أكادير إيزري بجماعة إينفك إقليم سيدي إفني.

وقراءة أخرى لقربي من المؤلف نسبا لانحدارنا من سلالة الشيخ الجد الأعلى لقبيلة أيت عبد الله أوسعيد (1051 هـ) جماعة تاهلا تافراوت دفين قرية أيمور ينتسب إليه كاتبنا من الأم وينتسب إليه من الأبوين، قرابة تجعل المؤلف يخاطبني تحببا كلما التقينا بخالي وتصلني به كذلك علاقة مشيخة في فترتين متباعدتين على يد الفقيه النفاعة سيدي محمد بن احمد العتيق الإلغي (1997 م) إذ قرأ عليه بالمدرسة العتيقة سيدي امحند الشيشاوي وقرأت عليه بمعهد سيدي بيبي بهشتوكة.

وقراءة ثالثة للتملي والاستمتاع لقارئ شغوف بأدب السير أخذت مني وقتا وطاقة تحولت خلالها إلى متعلم وجد ضالته أكثر ولذلك تيقنت أن قراء الكتاب عند إخراجه سيستمتعون مثلي ويكتشفون أديبا وشاعرا موهوبا وقلما أشبه ما يكون بعدسة لاقطة. وهذه القراءات قد تشفع لي في ما سجلته من خواطر في سياق زمكاني شكلت المدة الواقعة بين مستهل الأربعينات وبداية الستينات من القرن الماضي الوعاء الزماني لهذا الإنجاز الأدبي والتوثيقي الهام في فترة تميزت باحتدام الصراع والمقاومة بين الحركة الوطنية بكل أطيافها مع نظام الحماية الأجنبية الفرنسية والمنتهية بانتهاء 1955م، وفي فترة استلام المغرب لمقاليد السيادة والتخلص من رواسب التبعية الأجنبية، وهي فترة المخاض السياسي كما في عنوان الكتاب.

وقد كانت قرية عوينة إدا اوبلال مسقط رأس الكاتب والقرى المجاورة لها بضاحية تيزنيت (أيت جرار، بونعمان، أكلو، تيزنيت، الساحل) إلى المدرسة العتيقة سيدي امحند الشيشاوي وكل من مدن الدار البيضاء وسطات وأزمور سياقا مكانيا لكل الوقائع والماجريات التي اختزلها في صياغة أدبية سردية آسرة لذاكرة حافلة حية للمؤلف، ولم تفته الاحاطة بتضاريس القرية مسقط رأسه العوينة موقعا (واديا وعينا وبساتين ومساكن ومقابر ومساجد ومسارح) وفي مسافات متقاربة مع عيون وقرى وبحار وجبال مجاورة.

ولعل أكثر ما يغري على المتابعة أسلوبه ولغته المشرقة في الحكي عن طفولته وفي رصد الأحداث والتقاط جزئياتها بذاكرة صافية وبقدرات تعبيرية رصينة ينساب الكلام من لسانه ويراعه راصدا كل ما يجري في محيطه تشخيصا وتمثلا لصور الحياة وتمظهراتها في بيئتها القروية والحضارية في بساطتها وسذاجتها أحيانا ولكنها ممتعة بواقعيتها وصدقها وشموليتها.

وقد أفرد المؤلف بالكتابة شطرا من حياته الأولى: طفولة ونشأة ودراسة قرآنية وعلوما عربية في الكتاتيب والمدرسة العتيقة وما يتخلل ذلك من تنقلات من القرى إلى الحياة الحضارية في حضن الأبوين بالدار البيضاء وما جاورها في بوتقة الحراك الوطني لأجل الاستقلال وفي النزع الأخير للوجود الفرنسي ثم العودة من جديد إلى المنشإ والمنطلق في مجتمع قروي فلاحي بعوينة إدا اوبلال مسقط الرأس والتي تتعايش في فضائها ساكنة من أحلاف وأمشاج إلى جانب أسر رئاسية وعلمية ومرابطية ذات تأثير اجتماعي، وكان للمؤلف ارتباط ببعضها بالمصاهرة كعائلة سيدي (عبد الله اومحمد) الأدوزي أخوال العلامة محمد المختار السوسي، والتي خول بها أنجاله، وقد كان الحرص شديدا على التقاط كل ما يرتبط بطفولته وعائلته وجيرانه أصولا وفروعا

في حيز واسع لرعاية الأبوين وخاصة لوالدته التي أنجبته وحيدا في حياتها كما كانت وحيدة لوالديها، وهو يشير بتأثر عميق إلى ميلاده في غيبة والده خارج الوطن أثناء الحرب العالمية الأخيرة، وإلى ندوب المسغبة العامة في أوائل الأربعينات من القرن الماضي، وما قاسته الأم في تنشئة وليدها في إباء وشموخ وجرأة في مواجهة التحديات التي تركت شروخا عالقة في أغوار نفس الطفل الكاتب، مما يشعر برغبته الجامحة في التخلص من ثقلها بوحا وتأريخا واستقصاء شعرا ونثرا.

ففي الجانب الاسطغرافي نجد الإشارة إلى الأماكن والشرائح والأعلام الجغرافية ذات العلاقة بسوس والمغرب عموما كالزعيم الوطني علال الفاسي ومؤرخ سوس محمد المختار السوسي وسلطان المغرب محمد الخامس والشيخ أبي شعيب الدكالي والمدارس الحرة بالدار البيضاء وأشهر أغنيائها الوطنيين كالحاج عابد السوسي ورجالاتها كالحاج الحسن البعقيلي والفقيه محمد النتيفي، وتتخلل هذه الذكريات منظومات شعرية من بواكر نشأته كقصيدة أناشيد الصباح في قريتي وعيون من الشعر العربي لفحوله في العصور المختلفة كشعر المعلقات السبع وشعر معروف الرصافي وحافظ إبراهيم ومواضيع متصلة بأشهر شعراء سوس كالطاهر الافراني في داليته برح الخفاء.

وأفاض المؤلف في أهمية الكتاتيب والمدارس العتيقة والمدارس الحرة وأفرد للمدرسة العتيقة سيدي امحند الشيشاوي ولعمدتها الفقيه الوطني النفاعة محمد العتيق (ت 1997م) حيزا هاما وذكر أسماء لثلة من طلبة المدرسة الذين عاشرهم ولهم على بعضهم تأثير متبادل كالحسن العبادي والحسن أوزمل ومحمد الإفريابي والحسين جهادي البعمراني والعربي أقسام بعد ذلك.

وختاما : كل ذلك لئلا يحرم القارئ من أن يعايشه مفضلا أن يكتب سيرته قبل أن يكتبها القراء فيقولون ما يشاؤون وأرجو أن يتحف ببقية سيرته في مراكش والرباط ورئاسة جامعة القرويين في فاس وتطوان ومراكش وسوس خلال عشر سنوات عضوا في مجلس الجامعة وطالبا في كلية الشريعة بفاس وعضوا بعد ذلك في مجلسي كلية اللغة العربية والمجلس العلمي لمراكش أكثر من ثلث القرن ثم عضوا اليوم في المجلس العلمي الأعلى وفي فترات متعددة انتقل خلالها بين المدرسة العليا للأساتذة وكلية الآداب ودار الحديث الحسنية والدروس الحسنية الرمضانية وأساتذة أعلام من المشرق والمغرب وإفريقيا والعالم الجديد والقديم.

عبد الله السعيدي

رئيس المجلس العلمي المحلي لعمالة إقليم سيدي إفني

١

تنقلات بين سوسو بلاد الشاوية

سنوات ﴿ 1941 – 1956 ﴾

معالم الطفولة الأولى:

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضاه، والصلاة والسلام على البشير النذير والسراج المنير سيدنا محمد وعلى ءاله وصحابته والتابعين ومن تبعهم إلى يوم الدين وسلم تسليما كثيرا.

وبعد: فتنتمي طفولتي الأولى إلى فترة تمهيد الجنرال اليوطي إقليم سوس الذي بقي في صراع منذ ثورة الهيبة بن ماء العينين وانكساره أمام القوة الفرنسية بسيدي بوعثمان (1912) إلى أن استطاع اليوطي السيطرة على سوس من جنوبها بممر (تفراوت وآسا وأقا وفم الحصن) حتى دخول الجيوش إلى مدينة تيزنيت وإقامة ما يسمى (بيرو الكوفة) بها بإزاء إدارة عربية للأهالي سميت (بيرو أعراب) في واجهة قصر خليفة السلطان بمشور مدينة تيزنيت وقبل بداية الحرب الثانية أواخر ثلاثينيات القرن الماضي (1939) وقد عرفت هذه الفترة في سوس بأعوام الجفاف القاسية، والمهددة بحروب القبائل والثوار الصحراويين ومن لف لفهم ومحاولات مقاومة الاستعمار أو الحماية! في وقائع شهيرة بيويزكارن والأخصاص لم تجد نفعا بعد هذه الظروف، مما أضطر اليوطي إلى طلب النجدة من فرنسا، ولم تكن أحسن حالا: حيث كانت تعاني من الاحتلال والمقاومة ونقصان في العتاد، كما حدثني الوالد فيما بعد، وكان عاش هذه الفترة من الحرب بباريس، وحسن حظه جعله بعد أن قطعت خطوط التواصل معنا بسوس وكذا أخباره! يتزوج ببولندية ذات مطعم كبير كانا يسيرانه معا، وكان الفرنسيون في ضيق شديد حتى أدى بهم الجوع إلى الاقتصار على نصف كلغ من البطاطيس خبزا نضيجا دون إدام! مما ألجأ المضطرين منهم إلى أكل لحوم الحيوانات التي لا توكل عادة، وفقد اللحم إلا ما ندر، وساق ضباط في الأمن الفرنسي بقرة مسروقة ذات ليلة إلى قبو المطعم عند الوالد وذبحت ليلا وسلخت، وأقاموا حفلا عظيما أكلوا فيه اللحم بعد أشهر من فقدانه! في رواية الوالد رحمه الله، وكان حاضرا فيهم ومشرفا آنذاك.

أما في سوس وبعد اشتداد أعوام المجاعة فقد فتحنا أعيننا على أنصبة من الطعام واللباس والسكر توزع بدقة على الأسر وتتضمن لحم خليع وزيتا من كاوكاو السنغال، وسكرا عريانا من مصر[1] وقطعا من ثياب غليظة أمريكية المصدر، وربما كنا في المغرب أحسن حالا وجمالا وطقسا مما حدث في فرنسا، وإن فقدت الحبوب من شعير وغيره فعوضتها سوس بنبات (أيرني) الْمُر المذاق قبل نضجه والسام أكله وكذلك بأكياس من الجراد كانت النساء يخرجن ليلا لاحتوائه في ملاحيف، فربما جمدت بعض الأفاعي من القر فدخلت في المحتوى ووجدت في الصباح تتململ وسط هذه الملاحيف النسائية، وكان الشاي مفقودا عوض عنه بقشرة شجرة (أرگان) ذات اللون الشبيه بلون الشاي، كما عوض السكر عند فقده بالعسل، وعوضت كؤوس الزجاج بأقداح الفخار، والتجأت النسوة القويات الحريصات على أطفالهن إلى شواطي (سيدي بولفضائل) و(أفتاس أگلو) وما قرب من قريتنا (عوينة إدا أوبلال) لتجميع القشريات البحرية وإنضاجها على النار وحملها إلى القرية لتنويع الأكل وتعويض اللحوم بمنتوج البحر الذي كان يصل منه إلى القرية أحمال من الجمال أحيانا نضيجا على الفرن يابسا، أو سمكا ضخما طريا في أصابيح البرد الشديد يباع بالوحدات لا بالكلوغرمات، وقد حمد الناسُ بعد هذا الجوع المستمر والجفاف فرنسا ورأوْا أن فائدتها في هذه الحالات أفضل من أضرارها فاستكانوا لأول مرة للحاكم بتيزنيت و(للفسيان[2]) العسكري الذي بدا يفرض النظام في الأسواق ويتلقى تحيات الناس إذا ظهر وسط السوق إجباريا.

---

[1] من قصب السكر الحلو، وكان أحد الكبار في السن الأعزاء من (أگادير زكاغن) الحاج علي أُبِهِ يحمله من على ظهر الباخرة بمرسى الدار البيضاء إلى القطار خلال الحرب ليوزع على المراكز في عهد الحماية كما حدثني شخصيا.

[2] هذا وقد ذكر الصهر الحاج عبلا الأدوزي في كراسته المخطوطة ص 26/ أحد القواد الفرنسيين الملقب ب (بولحية) والذي كان يتقن الأعراف والأمازيغية (السوسية) وأنه ضمت إليه مدينة بويزكارن سنة 1926م إضافة إلى تزنيت.

وكان أحد أخوالي المسمى (الحسين مُمُّو) قد اشتهر في القرية بالتحرر من القيود وله سند عند أصهارنا الأدوزين بسبب مصاهرتهم لآل مماد فكان خالا لهم، وكان مساعدا لصهري فيما بعد الفقيه سيدي الحاج عبلا الأدوزي في قسمة التركات، وذا نسب بعيد إلى الشيخ الحاج موسى نِدْ طَّايفُورْ رئيس القرية! وربما غرته جرأته فامتنع من تحية (الفسيَانْ) وبعد محاورات بينهما أمر الفسيان باعتقاله بقلعة تيزنيت الأولى (قلعة أغناج) ولما سرح جاء إلينا ضاحكا ومتحديا وصار أهل القرية يعجبون من جرأته وسرعة جوابه، واشتهر رغم بنيته النحيفة بمصارعة أقوياء القرية وإسقاطهم أرضا! فكان من طرائف مصارعته تحديه لأقوى رجل كان الاستعمار الفرنسي قد اختاره من بين متقاعدي الحرب للسهر على أمن مدينة تيزنيت، وقد أعطي هراوة ولباسا خاكيا[1] وكان فارع الطول متين البنية مخيف النظرات! ذا شاربين طويلين حتى أسكت أهل تيزنيت وحده واستراح مسؤولوا الأمن بها، غير أن خالي الحسين (مومو شاين) هذا تركه يوما حتى استكان بقريتنا مسقط رأسه وسط الجمهور أمام مسجد (أيت بنوح) فقام يتحداه! فما كان منهما إلا أن اصطرعا وتآخذا بضبعيهما، وحاول كل واحد منهما إسقاط الآخر، ولكن خالي شاين هذا النحيف الطوال أسقط العملاق الضخم أمام الجمهور، واشتهر الخبر وفقد مولاي علي[2] هذا هيبته بالقرية، وإن لم يفقدها تماما بتيزنيت، واستمر حتى أدركه الاستقلال واستقال رحمه الله!، وضرب به المثل لما وصلت الشرطة إلى المدينة فرادى وجماعات، وفقد جزء كبير من هيبة مولاي علي والتي كانت تقوم مقام عشرات الشرطة والدوريات.

---

[1] أي من نوع الثوب المسمى بالخاكي أو الكاكي عندنا في المغرب.

[2] أخ سيدي سليمان سكنوا بأيت تلمشت ثم انتقل مولاي علي إلى آيت بنوح وداره هناك قرب دار (أُعَبد رحم) وسي أحمد الحسين في (اداحماد) على الطريق الذاهب إلى دار الوالدة خارج السور وسط القصبة.

أمكنة الطفولة:

ولدت بين أربعة عيون، وأربعة مواضع، وبين واد وجبل مطل على القرية، وبحر هائج تسمع ناجخته[1] وتمر سحبه مباشرة عليَّ في الدار التي ولدت فيها، أما المسقط فقرية (العوينة إِدَا أُوْبَلَالْ) القريبة من تيزنيت وأگلو ومدرسة سيدي وگاگ وجبل أَدْرَارْ المطل على البحر المحيط وقرية (تَالْعِينْتْ نَايْتْ جَرَّارْ) وتلتبس على غير السائح هاتان القريتان اللتان تحملان اسم (عوينة) و (تالعينت) فيظنهما قرية واحدة، لكن الأمر غير ذلك، إذ تسمى الأولى (بعوينة إدا أوبلال) على التحقيق والثانية (بِتلْعِينْتِ نَايْتْ جَرَّارْ) وتسمى أحيانا (عين الرگادة) وقد أنبطها وسط قبيلة أولاد جرار والمرتفع نسبها إلى عقيل بن معقل بن موسى إلى جعفر الطيار رضي الله عنه. واستقروا بسوس منذ القرن الثامن، وإليها ينتسب الدكتور عباس الجراري ووالده عبد الله رحمه الله، أنبطها أحد القواد المتأخرين من أسرة آل بورحيم الصحراويين، وكنت نوهت بها في أبيات تكريمية للمستشار سيدي عباس الجراري:

وجاء في ذكرها هذه الأبيات عن عينها وعن العين الزرقاء بتيزنيت:

من ذلـك القطـر بقـرب تيزنيـت	وبين الاخصاص وعنـد تالعينـت
تناســل العلـم وأخــرج الســلف	من نُّجباء القطر خير مـن خلـف
حتى غـدت سـوس بِهـم عليمـة	والأسرى الكبــــر بِهـــم كافلـــة
فكتــب المخـــتار خـير مـا بِــها	مــن البيــوت الباقــيات عــندها
وامــتزج الســكان عــرب وعجـم	والتقى عنـد السـهل نـون وقلـم
تيزنيت قد أضحت بهـم عالـــمةً	عنـــد نزولـــهم بـــها مَحِلَّـــة

[1] أصوات موجه.

فَنِعْمَ ما اختار بذاك الحسنُ فعينها الزرقاءُ فأل حسن

واحة خير ونماء وشجرْ وعين ماء فجرت من الْحجر

تطل إذ تغدو على آيت جرار وعين ((رگادة)) منها خرار

قائدها من معقل همام عياد نعم الوطني المقدام

ضرب للجَرَّاريين الْمثلا في كره الاحتلال بدءاً وَوِلا

فكتب الرفاگي من أوصافه روضة أفنان[1] ومن ألطافه

أخرجها حِمْدِيُّ للتعليق بقلم التوفيق فِي التحقيق

رحمه الرب على هذا الصنيع في قبره إذ هو جهد لن يضيع

جعل من تالعينتِ آيت جرارِ مضرب الأمثال فِي الاشتهار

قائدها عياد ذو عزيمة ورث ذا من أسرة كريمة

فأنشأ الرياض والصهريجا وأطلع الأزهار والأريجا

ومدَّ تيزنيت بثاني نبعها آثرها بالغالي من مياهها

تلك بلادي وبلاد صهري وبلدة العباس من ذا الأصل

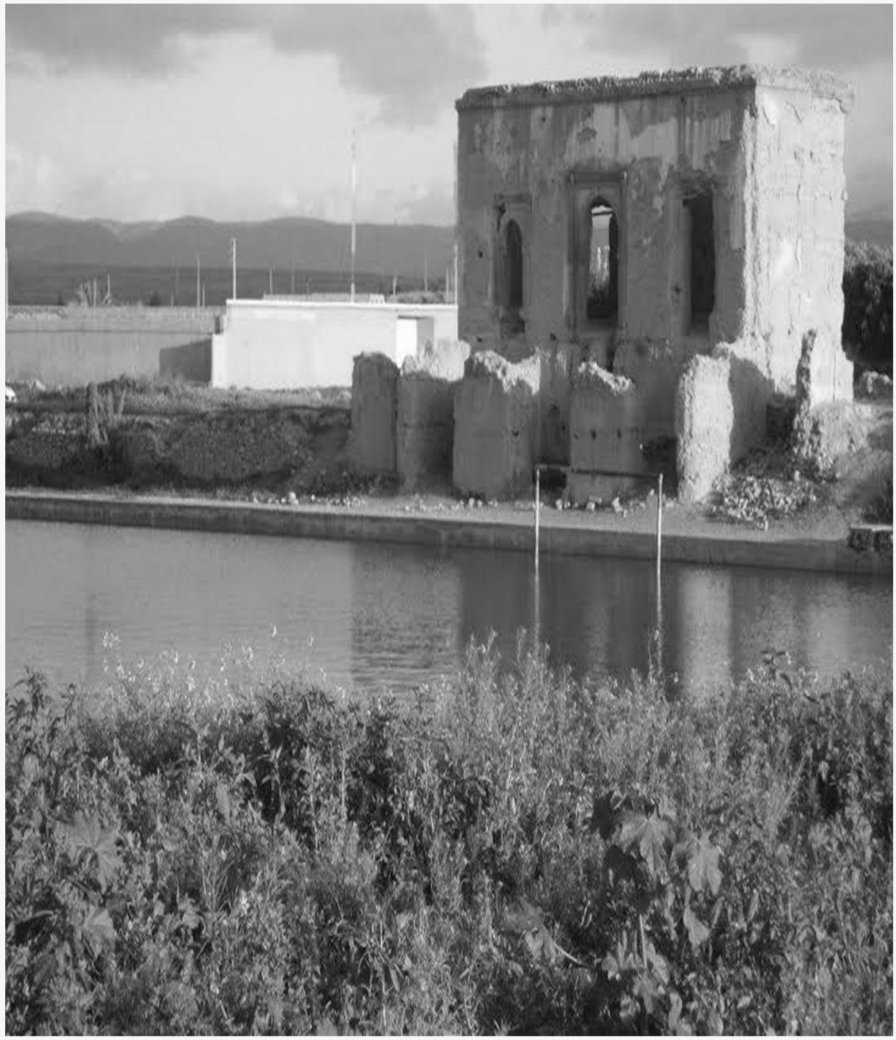
كريم نجر وكريم دار والجد سوسي بهذي الدار[2] [3]

---

[1] الروضة هي البستان المتعدد الأشجار والأزهار والأغصان.

[2] روضة الأفنان: أخرجها أحد الباحثين كاملة بإشراف الأستاذ أحمد التوفيق من تأليف محمد بن أحمد الأگراري وهو حمدي أنوش محققة.

[3] راجع عبد الرحمان الملحوني: حركية جمعية الشيخ الجيلالي امتيرد خلال أربعة عقود الجزء الثاني ص 217 مطبعة المناهل وزارة الثقافة ط أولى 2009 وتتضمن سيرة أحد أعلام المنطقة أحمد التوفيق من نظمي راجع ص 217 – 230.



بقايا عين الرگادة بأولاد جرار



صورة النجل واصل الشبيه بجده عبد الله

وقد أبى الجراريون بعد هذا التكريم إلا أن يقيموا له ببلدتهم تالعينت تكريما خاصا؛ والصهر المشار إليه: هو سيدي إبراهيم أرفاك القاضي وعضو المجلس العلمي بتيزنيت وقد عَمَّرَ مائة وخمس سنوات وقد كان والده المتقدم صاحب الروضة[1] قد استقضي على الناحية كلها؛ ونقل إلَيّ الزميل الحسن (وگاگ) أنه أخبر من قبل القائد الخليفة أخو محمد المختار السوسي بواسطة والده أنه كان يقطع في الحدود والسرقات وكان آخر من قام بذلك بسوس.

هذا عن (عوينة آيت جرار) وأما (عوينة إدا أوبلال) مسقط رأسي فهي التي أنبطتها قبيلة إدا أوبلال السباعية العربية الأصول، والتي اشتهرت بصلابة مواقفها ومقاومتها للقبائل الأخرى قديما حتى بلغت أحيانا 5000 خيمة بنواحي طاطا وَأَقَّا وفُمِّ الحصن، ثم تفانوا فلم يبق منهم اليوم إلا مئات من الأسر، وقد حدثني المستشار عُمارة السباعي الدوبلالي بأنهم كما وَصَفْتُ، ولا يزال على ألسنة الناس وصفهم اليوم ب (دوبلا) بمعنى البلاء المضاعف! باللغة الفرنسية، ويظهر أن هذه القبيلة أو بعضها كانت ترتاد هذه السهول السوسية قرب تيزنيت بمواشيها وإبلها شأن المجاورين للصحراء إلى اليوم، فدفعتها الضرورة والعطش إلى استنباط هذه العين والتي امتدت فيما بعد من (تِيطِّ الْعِينْ) كما كانت تسمى حتى شملت أراضي فوق وادي أدُودُو على ضفته اليمنى متجها من جبال الأطلس الصغير عمقا وعلوا ونازلا إلى قصبة أَگْلُو وضريح سيدي وگاگ ويصب عند (سيدي موسى أوگلو) على اليمين هناك.

---

[1] والده القاضي الحسوبي الفقيه اللغوي والمؤرخ محمد بن أحمد الأگراري صاحب (روضة الأفنان).

العوينة القرية الأولى المهدومة على الضفة اليمنى لوادي أمداد وخبر الثائر (أبي بحلاس[1])

وكان من شأن قرية العوينة الأولى هذه أن بناها ووسعها فخذ من قبيلة (أيت بنوح) المشهورين إلى اليوم بإزاء قرية (أَمَانُوزْ)[2] بالأطلس الصغير قرب (تَافْرَاوْتْ) وسط أشجار شائكة من صنف الزقوم والدغموس، وبلغ عدد فرسانهم بها المئات، فذهب منهم عشرة إلى مدينة (تَمَنَارْتْ)[3] جنوبا (وهي غير تْمَنَارْ حَاحَا) فصادفوا هناك مَروَر هذا الثائر الْمُسمِّي إدعاء بمولاي اليزيد بن محمد بن عبد الله العلوي[4]. وقد كان ثار هذا المدعي بسوس عام 1207/ 1793 فاجتمع عليه لهذا السبب العلماء والصالحون وبايعوه فصار الناس ينضمون إليه أينما حل وارتحل، حتى وصل إلى الأخصاص منطلقا من أيت بعمران، وقيل إن بعضهم أهدى إليه على العادة بعضا من بناته تشريفا له على عادة الشرفاء من الملوك حتى عيرهم أهل العوينة بذلك فيما بعد، وكنت أسمع نسوة القرية يرددن ما معناه. (يَالَذُلِّ أيْتْ بعْمْرَانْ الذين أهدوا

---

[1] المسمى (بيحلاس) أي صاحب البرادع لكثرة أتباعه من عامة الشعب على حُمُرِهِمْ المبردعة المجردة من زينة السروج اللائقة بالفرسان والملوك، وهو لقب قدحي يشي بنزول هذا المدعي عن مرتبة ركوب الخيل كالملوك.

[2] وتنتمي إلى أمانوز أسرة آيت بوفتاس وقد استضافنا الوزير بوفتاس مع طلاب وأئمة سوس في ندوة حول مدرسة تمكدشت منذ عقدين من الزمان.

[3] (تمنارت) قصبة لِآيت حربيل بإقليم طاطا يقام بها موسم سنوي بين السفح الجنوبي للأطلس الصغير وبداية السفوح الشمالية لسلسلة جبال باني (جزولة) القديم منذ أن طردوا من طرف الرومان إلى الجنوب وبقوا محافظين على لفهم ضد لف آخر (تحگات) ثم استقرت بشيخها مؤسس الدولة السعدية الأول سيدي محمد بن إبراهيم الشيخ الذي اشتهر بإعداد الفتيان الرماة، وتنظيم الجيوش ضد البرتغال في الشواطئ ويقام لذكراه موسم (بأ گرض) كل عام خريفا.

[4] مولاي اليزيد بن محمد بن عبد الله العلوي (1790 / 1792) دفن بضريح السعديين، عينه والده على قبيلة گروان فتمرد وثار على والده وتم نفيه للمشرق، ثم عاد واحتمى في جبل العلم حتى توفي أبوه سنة (1790) فبويع واستمر حوالي سنتين ثم اغتيل وخلفه أخوه مولاي سليمان.

لِبُوحْلَايْسْ تِفْرْخِينْ) وهي مجرد ملاغاة بين القبائل لا يؤخذ بها تاريخيا؛ وقد أبى الله إلا أن يطفئ نار فتنة هذا المبهرج المدعي في قرية العوينة هذه بعد أن استدعاه آيت بنُّوحْ إليهم كغيرهم ليتبركوا بشرفه.

وكانوا قد تعرفوا عليه بواسطة فرسانهم المشار إليهم، غير أن قبيلة أخرى كانت تتخذ الضفة اليسرى للوادي بإزاء آيتْ بنُّوحْ مسكنا لم ترض بهذا الصنيع فقاموا للثائر بُيحْلَايْسْ وقاتلوا آيت بنوح، واستقدموا العلامة الفقيه الزاهد نزيل ماسة أمرزݣون صاحب مدرسة هناك وزاوية تؤطر أهل ماسة والطلاب والطالبات أيضا(1) واسمه الفقيه التاسكاتي(2) ومعه الفقيه علي بن إبراهيم الأدوزي المتوفى سنة **1207 / 1793** ومعه أهل هشتوكة وقبائل وَلْتِيتَة حتى استطاعوا أن يدخلوا على قرية (تِكِوْتْ) وأن يمسكوا بالثائر ويقتلوه سنة **1207**هـ / **1793**م بإزاء مجرى عين العوينة في مكان به شجر هرجان ثم أحرقوه في مطمورة(3) ردمت عليه، وكنا ونحن صغار أثناء مغامرتنا خارج قرية العوينة الجديدة نبحث عن هذه المطمورة فإذا بها وقد نبتت بها أصول هذه الشجرة مرة أخرى، والناس يعتقدون أنها إذا لم تقطع شب النزاع وسط القرية الجديدة من جديد، وذلك بعد تخريب هذه القرية القديمة وإخلائها تماما، وكنت قد ذكرت هذه الماجريات في ترجمة أحد الأدوزيين بمعلمة المغرب، وهو صاحب كتاب (نزهة الجلاس في أخبار أبي يحلاس) بعنوان (الأدوزي محمد بن أحمد(4)).

---

(1) اشتهرت منطقة ماسة منذ القديم، وقيل إن عقبة بن نافع رضي الله عنه بلغها وفيها نزل وأسس فيها مسجدا وقد جمع بعضهم تلك المساجد التي أسسها عقبة رضي الله عنه في قولك (سجد) السين سوس والدال دكالة والجيم جبالة والله تعالى أعلم.

(2) هو محمد بن أحمد التاسكاتي، ومعه الفقيه علي بن إبراهيم الأدوزي قاوما بوحلايس برئاسة جيش عظيم مكون من عدة جهات انظر ترجمته في الأدوزيين وسوس العالمة ومعلمة المغرب بقلمي.

(3) المطمورة كما يفهم مأخوذة من التراب المطمور الهش الذي يستخرج لتكوين خزان صغير للحبوب وغيرها.

(4) الأدوزي محمد بن أحمد صاحب شرح على المرشد المعين، توفي سنة 1221 هـ .

العوينة الجديدة على الضفة اليسرى
لوادي أدُودُو مسقط رأسي

أضْطُر آيت بنوح بعد تخريب العوينة الأولى يمين وادي أَدُودُو إلى الانتقال إلى حيث يسكن (آيت تلمشت) يسار الوادي في قريتهم العوينة الجديدة (خلال جزولة 4 /28) ثم توالت قبائل أخرى وأُسَر أخرى بعد توسع القبيلتين في الحرث والرعي والاستفادة من ماء العين آنفة الذكر! على شكل بساتين وحقول على يمين الوادي كانت مشجرة بنحو 4000 شجرة زيتون تتخللها أشجار من الفواكه المتنوعة كالتين بأصنافه والعنب والإجاص والتفاح والبرتقال الحلو المسمى عندهم (بالليمون)! ومن هذه القبائل والأسر الشرفاء التزَرْوَالْتِيُّونَ المرتفع نسبهم إلى الشيخ الجزولي أحمد بن موسى تلميذ التباع.

(أما آيت البايك) الذين ينسب الوالد إلى محلتهم فأصلهم من (تيوارگا) من بعقيلة وإليهم ينتسب أعمامي ووالدي وجدي (وَإِدْ عَلِي أُوْبَرَاهِيم) من تمنارت، وقد أصابت هذا الأخير فيما بعد دعوة الفقيه سيدي أحمد أضرضور الإگراري[1] حيث

---

[1] سيدي أحمد أضرضور الإگراري الشيخ العلم تلميذ أبي سالم الإگراري وعلي المحجوبي! رحل إلى فاس، وكان يجلس في مؤخرة الطلبة حتى رفع السؤال عن (العتبية) وقال المتحدث لعله ابن عتاب! فصحح له الطالب السوسي بأنه أحمد بن عبد العزيز العتبي فانتبه إليه الشيخ وأدناه بعد ذلك، ثم رجع إلى بلدته فلزم داره إلا في أمور التحكيم ولزم التصليات، ولما جاء من (بونعمان) قطع عليه الطريق (ولد همو علي ومن معه) فضربه عبد فقتله ثم سيق على بغلته إلى العوينة فمثلوا به سنة (1294 هـ/ 1877م) فغارت العين أعواما ومسخ (مسعود أواسيف) فأسود وجهه وأكلت داره فرحل! وكذلك علي بن بِرُّو الذي هلك على يد المولى الحسن الأول صلبا، وقد رثى الشهيد ولده فقال:

وما فقد مثل الشيخ إلا مصيبة ... تكر على جلد الجليـد فينمح
علمنا يقينا أنه حل منزلا ... عليا به الأرواح للرسل تسرح
أعاضك ياعثمان ربك مثله ... فأنعم به واحْمَدْ خليقك ترتح

وانظر ترجمته في (روضة الأفنان) للإگراري.

فتكوا به في واقعة نزاع فلا يزالون يشتتون! وقد أدركت بقايا منهم كانوا قربين لدارنا (بآيت البايك) وقد احتلوا مساحة استقلوا بها وأحاطوها بالأسوار وثلاثة أبواب ضخمة! فكانوا بين آيت البايك وآيت تلمشت، وكنا صغارا نقتحم الباب دون الباب ودون إذن منهم ! فربما صادفنا من كلابهم ومن بقايا أسرتهم من ترتعد فرائصنا عند رؤيته معتذرين عن هذا الاقتحام، ولا أزال أذكر ما ألحقه بي أحد فتيانهم ذات يوم من محاولة تعرض وتعنيف شكوته بسببها إلى الوالدة فنالت منه وهددته بمختلف أصناف الوعيد، وكانت رحمها الله مفوهة وجريئة لا تهاب أحدا مهما كبر شأنه من أثر جدي والدها عبد الله أُمُولود الذي ذهب في سن الكهولة دون أن أدركه بسبب هذه الشجاعة ضحية انتقام وثارات قبلية.

وقد أضيف إليهم فيما بعد (المرابطون الأدوزيون) الذين فضَّلوا السكنى عند الضفة اليمنى بعيدا عن القريتين وعن حروب هذه القبائل، فاحترمهم الجميع، وكانوا تعاطوا حرفة الوثيقة والإشراف على نزاعات الماء والحقول والميراث منذ جدهم الشيخ صاحب الضريح الشهير (سيدي عْبْلَّا أُمحماد الأدوزي (ت 1232هـ/ 1917م) أول من أدخل الطريقة الأحمدية التيجانية إلى هذه القرية وما حولها، ولا يزال الموسم السنوي حوالي دور أحفاده وعند أساطين براح ضريحه، يقام فيه يوم للرجال ويوم للنساء على عادة مواسم سوس التبركية إحياء لذكريات ومناقب السلف للاقتداء والاهتداء والتاسي والترحم.

وقد أطلعني الصهر العزيز الحسن بن عبد الله الأدوزي على رسالة وجوابها وهي من شيخ تمگدشت يستنكر على سيدي عبد الله هذا إدخال الطريقة التيجانية إلى سوس ويتوعده بأنه يعرف بعض أسرار علاقته ببعض زوجاته فأجابه الأدوزي برسالة اطمئنان واعتذر له حتى سكت عنه مغيظا محنقا رحم الله الجميع.

۲

أسوار العوينة الجديدة
وجباناتها ومحيطها داخل السور

ويظهر أن هذا التجمع الجديد قد فرض على هذه القبائل أمام أخطار الهجومات المستمرة بينهم وبين جيرانهم الأقربين والبعداء أن يحسبوا للأمن ألف حساب، فقاموا بتسوير أكبر مساحة من القرية مرتفعة ذات أبواب وأبراج وأثقاب للرماية والواح مصفحة في شكل بوابات ضخمة، محروسة ليلا ونهارا، وقد أدركت صغيرا معظم هذه الأسوار وما إليها قبل أن يستقر الأمن بتعمير الجيش الفرنسي لسوس لحمايتها من هذه الهجمات ثم تداعى معظمها تباعا إلى اليوم، وخارج السور وبإزائه جبانات[1] ومقابر خاصة بكل قبيلة بلغت نحو الخمس معظمها قريب من الأسوار والأبواب لضرورة الجمع بين أحوال الحرب والسلم، وكذلك القرب من المساجد الثلاثة لضرورة غسل الميت العادي أو المقاتل مع دفنه في أقرب وقت، وفي حالة الأمن التي توفرها الأسوار.

وهي على التوالي من أقصى الغرب (مقبرة سيدي العربي) وفيها معظم أفراد أسرتي، وجدي للأم عبد الله أُمولود، وجدتي فاطمة، وخالتي رقية[2] وأسلافهن! وكانت جدتي تصحبني إلى ظاهر السور للدعاء ولإقامة الترحم وسط المقبرة والإطعام

---

[1] الجبانة والجبان الصحراء، والجبانة المقبرة (المعجم الوسيط) وهي عربية فصيحة (انظر الصحاح: ج ب ن).

[2] أشار سيدي عبلا الأدوزي إلى وفاة خالتي رقية بعد مرض نفسي ألَمَّ بها لعله من مس أو عزوبة طالت وذلك أثناء غيابي عن القرية، وكانت وفاتها سنة 1956م (وأنا أنذاك بين مدرسة سيدي محند الشيشاوي وقرية العوينة) وكانت مجتهدة جادة ومحبة باذلة ومضحية في سبيل فرخين ذَوَيْ زغب وريش (زينة سعيد، ومحمد أعبلا أمبارك) وفي سبيل جدتي فاطمة سعيد رحمها الله، والتي تأخرت عنها وفاة إلى أواخر الستينات من القرن الماضي.

المسمى (بالمعروف والصدقة) في فضاء ممتد إلى الجبل والوادي وقرية (أگادر إزيدَّارْ) و(أبحري) فكنا نقرأ سورة الإخلاص إحدى عشرة مرة هدية ولاأزال على ذلك! ويليها مقبرة (سيدي الولي) قرب الباب المؤدي إلى الجنوب الملتصق بمسجد (آيت بنوح) المذكور آنفا، وكنت أغشى هذا المسجد مرات، وكان في الغالب قليل الزوار والمصلين، ولكنه كان مشرفا على حقول واسعة وعلى جنوب الوادي والساقية وبساتين آيت بنوح، وكانت دور الأدوزيين أصهاري فيما بعد، تبدو من هذا المرتفع أسفل المسجد وأعلاه، وسبق أن أدخلتني الوالدة إلى كُتَّابِهِ عند سيدي عمر، ولكن سرعان ما أخرجتني منه لقلة الصبيان واعتبار سيدي عمر دون المستوى، وذكريات أخرى في أعلى الطابق العلوي للمسجد ومع الشريف البركة المشارط به: سيدي الحسين (ندسيدي العربي) وبساحته جرت المصارعة بين خالي الحسين آنف الذكر ومولاي علي امبارك التازروالتي المخزني الذي كان يسكت أهل تيزنيت ومن حل بها بعصاه الضخمة وقامته المخيفة! فتركه خالي الحسين مجندلا بعد محاولات وذلك أمام الجمهور.

أما المقبرة الثالثة فقريبة من الوادي، وتسمى مقبرة (سيدي إبراهيم أمنصور) ومن خوخة أُحدِثت في جدار السور قصد تقريب المقبرة والدفن من جهة وكذلك المسافة بين العوينة الجديدة وبساتين آيت بنوح وآيت البايك على الضفة الأخرى من جهة، وكنا نُبْعَثُ صغارا بعد العصر إلى هذه المقبرة ذات الأشجار الشوكية المتكاثفة فنقتحمها اقتحاما لا نخشى سقوطا في قبر ولا هوام ونتحرك وسط هذه الشجيرات ولم يحصل أن مُسِسْنَا بسوء رغم الحفا وعدم التحفظ! وربما اقتحمنا جبحا فيه من الشهد وسط القبر!. فيأتي الفتى المشاغب القاطن ببعض حوانيت المسجد الجامع الحسن أبو قصعة الساحلي فيقتحم بعض هذه القبور فيأخذ من عسلها غير عابئ بالنحل وبحرمة القبر.

وكان أحد أصدقاء الوالد إذا قدم من الدار البيضاء يقيم بهذه المقبرة (معروفا) وصدقة نفرح بها في ذلك اليوم لقدومه من الدار البيضاء وهو في لباس غريب يستعمله داخل المطاحن القريبة من درب الحبس، وبه آثار الدقيق، وقد عشت فيما بعد إلى جانبه بالدار البيضاء، وهو يتخذ مقهى الوالد بدرب البلدية مكانا للمبيت ثم يشتغل نهاره مكتفيا بتجميع بقايا الدقيق وخلطها بالزيت غالبا ثم يجمع كل ما حصل عليه ليقيم هذا (المعروف) لكل من مر بجانب مقبرة (سيدي إبراهيم أُمنصور هاته) واسمه غريب شيئا ما (أضرضور نعاليا) وكان كذلك في إصابته بآفات الصمم والبكم، مكتفيا بالإشارات والعزوبة، وبهذا العيش المتقشف رحمه الله، وكنت دسست بهذه المقبرة أوراقا نقدية خوفا عليها وأنا في الرابعة جائزة من الوالدة على قبولي الذهاب إلى الكُتَّاب، فلما تفقدتها نسيت المكان!!

أما المقبرة الرابعة فتسمى (مقبرة إزلا) على الضفة الأخرى، وكنا نفرح إذا سرحنا بعد العصر للتحطيب بها، فكنا نهجم على أحراشها نتفا وقطعا، لا نخشى ما يطوف حولنا من الهوام،ولم يقع أن أحس أحد منا ولو بشوكة في قدميه! وذلك بعد أخذ الإذن الصريح من شيخنا الطالب سيدي آيت الهماني رحمه الله!

والخامسة منها مقبرة (لْمْدِينْتْ لْجْدِيدْ) وهي أَحْدَثُهَا على الإطلاق، ولم تكن تُفْلِت من هجومنا عليها بعد الإذن؟ وقد كنا ننتف ونقطع أشواكها وقد سقطت بل نزلت إلى حفرة فيها جرأة من طفل غر التجربة فلما أردت الصعود لم أتمكن إلا بمساعدة بعض المحاضر كما حكى لي الزميل محمد أُبَتِّ وذلك قصد تسخين (تافضنا) لإعداد الوضوء للمتوضئين على طول الأربع والعشرين ساعة، والتي كان زوج عمتي المؤذن (ابن عبد الملك) يأخذ من أشواكها بالرفش مقدار ما يلقم به فرن (تافضنا) قبل الصبح لتسخين الماء للمتوضئين والمغتسلين، وما إلى ذلك من إعداد الجنائز

وغسل ثياب الفقيه الطالب، وثياب المحاضر الساكنين القائمين بدكاكين خاصة بهم بالمسجد، وما إلى ذلك.

وبهذه المقبرة وحشة خاصة نشعر بها نظرا لحداثة الدفن بها وسمعنا أن امرأة ما ظهرت ليلا لإخراج يد ميت قصد صنع الكسكس به وبخبر امرأة بيضاء الثياب طويلة القامة ليلا تسمى عندنا (تگمارت إيسمضال)[1] وكانت الجدات يخفننا بها عند الاقتضاء، وبها دفن الوالد رحمه الله أواخر هذا القرن الماضي أنزل عليه شئابيب الغفران، وكانت آخر زيارة لي لها وللوالد منذ خريف السنة الماضية سنة (2019) ثم عدت إلى زيارته والتصدق عليه وقراءة سورة الإخلاص أحدى عشرة مرة هناك أوبمراكش مرات، تقبل الله ذلك وجعله في صحيفته وهو المشهور بأعمال الخير طيلة حياته عند الخاصة والعامة بالمغرب وفرنسا. وأخبرني مرافقه الحسين نِدبْلاَلْ أنه لما مات الوالد راقب قبره من بعيد وهو الذي ألف السهر ليلا في الساقية وكان أول من صادفته بجانب المقبرة ضحى وعلى غير ميعاد فاستقبلني وأراني قبر الوالد وأنه في

---

[1] تگمارت إيسمضال. أو بغلة القبور أو عروس القبور عند أهل الريف، كائن مركب خرافي أسطوري المنشأ لامرأة لم تراع حق العدة فكانت تخرج، فلما ماتت عذبت بهذه الطريقة ليلا وجعلت صورتها مضيئة، فربما اختطفت رجلا إلى قبرها لتتصرف فيه حسب رغبتها، وتخوف بها النساء الأرامل للحفاظ على عرضهن. وكانت تتجول منذ منتصف الليل إلى الفجر. وتأثير الأسطورة على سكان القرية يتجلى في الحد من حركتهم بعد متصف الليل وخاصة الفتيات والأرامل والرجال والشباب منهم خاصة، مما كان يخيل لنا، ونحن نتجول ليلا في جانب جدار مقبرة سيدي إبراهيم أُمنصور قرب دارنا الأولى، يصور لنا أشكالا من الكائنات الساكنات بهذه المقبرة، وتأخذني الرهبة عند ما أتوجه قبل الفجر إلى الكتاب وحدي أحيانا وأنا أمر بهذا الطريق تحت القبور، ولا تزال صورة ليلة مفزعة عزمنا فيها على قطع هذه السكة للوصول إلى فرح ورقصات عرس! حين انتصب لنا شبح أسود على عرض ارتفاع الجدار تبين فيما بعد أنه من عمل بعض أشقياء القرية مستغلا مثل هذه الأساطير القوية التأثير المعتمدة على عملية التحول والأمساخ المصاب بها الإنسان أو الحيوان عقاباعلى فعل شنيع، مما تتولى تفسيره انترويولوجيا المعتقدات والأساطير عند الشعوب البدئية قارن (دمامي الحسين. حول حكاية تَسَرْدُونْتْ إِيْسْمْضَالْ).

تلك الليلة باتت أنوار خاصة تضطرب على قبره والله أعلم. وكان الوالد ذا قلب سليم ونية بالغة وسريع التصديق لما يقال له رحمه الله.

وبعيدا عن مدن السلف ممن ضمتهم أجداثهم والتصاقي مع المحاضر في الطفولة بهده (المدن) كما تسمى في الأمازيغية بحق، فإن الجو العام الذي فتحت عليه عيني طيلة هذه السنوات الثماني من الطفولة هو ما استرجعته الذاكرة في هذه الصور المعبرة عن هذه السمفونية اليومية لحركة الإنسان والحيوان والطبيعة كل يوم في أبيات بعنوان (أناشد الصباح في قريتي) وكُتِبت أوائل الستينات القرن الماضي على نمط التفعيلية الحرة.

أناشيد الصباح في قريتي

ويستيقظ الصبح في كل ركن

بقريتنا

يمسح النائمين

ويسحب أردية المتعبين

فينتفض الطير من وكرهِ

وتثغو الشياه ثغاء حنين

ويَفْتَنُّ دِيكٌ

بجانب غرفتنا

في الصياح

يصيح على الغافلين

وحين يخور البقر

خوار الحياة بَوَسْطِ حظيرتنا

فنقوم

ونفرك أعيننا فرحين

ونبحث من حولنا

قائلين

صباحا جديدا صباحا سعيدا

فتنفلت النعَجَاتُ

إلى كل فج بقريتنا

تطلب الرزق للآخرين

ويندفع الثور

بعد هنيهةْ

وتحدوه كل قواه

لبيحث عن بقره

رعت أمس جل النهار

بجانبه راضيةْ

فيحتك جثمانه بالحياة

وبالخير والضرع والعافيةْ

وينبعث السائق المحتدم

يسوق غنيماته وشياهَهْ

ويتبعه الطفل في خفةٍ

يصيح بثيرانه وحماره

وَتُسْمَعُ (أَيْوهْ) بكل الجهات

يحيي بها المستجِدُّ رعيته

وتهدي الأشعة بعض الضياء

لأهلي

فينتعشون

ويندمجون

مع الفأس

يحتضنون برودتها

ويحيلونها جمرة واقده

تغوص بأرضهمُ

فتتيح الحياة

لكل الأنام بكل فضاءْ

العين المنبجسة الثالثة

حيث مسقط رأسي في رؤيا الوالدة

حدثتني الوالدة رحمها الله عن مكان وزمان ولادتي بكثير من الفرح والدهشة والتفاؤل والاعتزاز، وربما كان ذلك راجعا إلى شفافية روحها واتقاد عاطفتها وبروزها وسط (العوينة) متميزة بوالد من مرابطي الشيخ (سيدي عبلاوسعيد) دفين زاوية أيمور غرب زاوية أگرسيف جماعة تاهلا دائرة تافراوت - تيزنيت (قرية آيت بوفتاس) المذكور وسط الأطلس الصغير بين تافراوت وأگرسيف وقرية (إلغ) المنتمي إليها الصالحون أحفاد سيدي عبلا وسعيد هذا: وكانت قد أخذت من جدي عبد الله هذه الأنفة والألمعية والصفاء القلبي، وشيئا من أحوال الزهاد الفتيان وفتوتهم وفصاحتهم وانتقالهم بين هضاب (إمجاض نْتْزِلْمِي[1]) [حيث مستقر الجد بدوار أيت تناوت عائلة أيت بن فقير والدوار ضمن قرى أكادير إيزري المرابطين وتحمل حاليا اسم قبيلة أيت عبلاوسعيد وهناك إخوتهم ببسيط إلغ بجماعة خميس أيت وفقا دائرة تفراوت تيزنيت] وبين العوينة، حيث اضطرته تارات بينه وبين أحد متجرئي (آيت وارحمان) على المرابطين من بني أفقير! إلى الهجرة إلى قريتنا وإلى الزواج من جدتي (فاطمة سعيد ند بها) وكانت الوالدة رحمها الله وحيدتها وقرة عينها فكان يستعيرها صغيرة ويحملها على أعناقه قاطعا بها المهامه والليالي وهو يتوجس خيفة من قطاع الطريق، مصاحبا للذئب والحيوانات المفترسة كالضباع لا يلقي لها بالا تكاد لا تستقر من وطأته الحجارة وصوت وقع أقدامه وهو يترفع بها وينخفض إلى أن يصلا إلى قرية المرابطين ب (أگادير إِيزْرِي) وسط قبيلة إمجاض الأولى بسوس في منازل إخوته بني الفقير.

---

[1] تسمى إمجاض نتزلمي دائرة الأخصاص اليوم، ومجاط موزعة بين سوس وشيشاوة من أثر التهجير المستمر للقبائل.

ولذلك استقبلت ولادتي من احد فتيان الأسرة البعقيلة الأصول، عبد الله بن مبارك بن محمد بن علي رحمه الله، بكثير من الفرح والخوف المصاحب لاختفاء وانقطاع أنباء الوالد بفرنسا: حيث اشتعلت الحرب قبل ولادتي بسنتين قطعتا تدريجيا أنباءه عن منطقة سوس، وكان الوالد قد غادر إلى فرنسا باريس وأنا في فترة الحمل بأشهر لذلك وجدت الوالدة في هذا المولود عوضا عن هذا الحرمان فأجاءها المخاض عند الصبح! ولم تلبث أن وضعت أول مولود لها وآخر مولود ضامة إياه إلى صدرها العاري، وموثرة له بما عليها من ثياب حماية له من برودة الفصل، وذر ضرعها فكان هذا الطفل مكتفيا ريان قليل الشكوى والأنين مشرئبا بعينيه البريئتين إلى الأعالي واجداً في ضرعِ الوالدة ما جعله ذا جسم بض ممتلئٍ، كما أخبرني بذلك أحد أخوالي منذ ثلاث سنوات، (خالي محمد ند فارس وهو من المعمرين وتوفي بِأَخَرَةٍ) وقد أحاطت بي جدتاي (زينب نِدْ عُمر أم الوالد) وجدتي (فاطمة سعيد نِدْبَهَا) وخالتي رقية سعيد، وعماتي وزوجات أعمامي وجدي وهم:

(سي بهي أبعقيل، وسي مبارك أبعقيل جدي، وسي الحسن أبعقيل) بهكذا يذكرون تمييزا لهم في النسبة والسيادة والسكنى المتعاقبة، وكأنهم كانوا في دار واحدة ثم استقل كل واحد منهم بأسرته[1] ووصفوا بالسيادة دون غيرهم ترجيحا لهم على غيرهم من العامة، وقد حدثتني الوالدة غير مرة وما إخالها إلا صادقة! بأنها بعد ولادتي رأت رؤيا واضحة المعالم عن عين تفجرت من دارنا، وخرجت حتى عمت، فأولها لها فيما بعد بعض صلحاء العوينة! بولد يكون علمه هكذا مشربا للجميع والله أعلم.

---

(1) إدأوبعقيل إحدى القبائل الولتيتية الكبرى، ووصل عدد فرسانها 000 20 فارسا، وأشهر مناطقهم أدوز وأسكا أُوْبَلاغ وتيغمي وأفلا أوكنس وتواضو وتدارت، وأشهر مدارسهم تنتسب إلى آل عمر بأفْلا أُوْكنس الدغوغون وإدأگگمار وأدوز، وحديثا الحاج الحسن البعقيلي، والحاج بلعيد الرايس المشهور (بسوس) ولي ذكريات معه صغيرا بآيت بنوح. وترجمت في معلمة المغرب لأعلام منهم ولبعض الصالحات منهم أيضا.

العين الرابعة النابعة من على بعد عشر كلم من القرية وسط تيزنيت وقريبا من بساتينها شمالي المدينة داخل السور وخارجه (وتسمى بالعين الزرقاء)

من تحدث مثلي من الذاكرة والتاريخ عن عين (العوينة) وعن (عين آيت جرار) (والعين في الرؤيا آنفة الذكر) لا بد وأن تمتد به الدراية إلى (العين الزرقاء) المحاطة ببعض الأساطير التي أنشئت حولها! وفي أكبر مدينة جنوبي أگادير باسم المرأة التي قيل إن الله عز وجل ألجأها من حدث غير حميد وقع لها! إلى هذه الضفة من الوادي على اليمين ليخرج بها عينا زرقاء اللون[1] تكريما لها وبشارة بعد هذا الحدث، فكانت هذه العين وهذه التسمية الموحية بمعاني الزينة وغيرها بِذْرَة لمدينة تنامت بنزول بعض قبائل الأطلس الصغير إليها واستقرارهم عندها مما يذكرنا بنزوح قبائل العوينة إلى هذه القرية قريبا من تيزنيت، وإنباطهم العين، وتسويرهم للقرية بسور مقتبس من هندسة القلاع والمدن إلى جانب سور تيزنيت من صنع المولى الحسن الأول في إحدى (حركاته) لتكون تيزنيت بسورها المتين القائم على سبع كلم سليما إلى اليوم! من آخر التحصينات العسكرية العلوية بالمغرب منذ سنة 1882م وفي ظرف قياسي لم يتجاوز السنتين والنصف بعلو ثمانية أمتار وعرض مِتر، وكانت من قبل خاضعة للقواد الوافدين من تارودانت كصلة وصل بين الصويرة والصحراء وحصنا يتحكم فيما بين وادي نون ووادي ماسة تسهيلا لمراقبة السواحل جنوبا ونتيجة للقلق من التحركات الأوروبية! وذلك بمشورها المميز وقصر الخليفة السلطاني وجامعها القريب من العين

---

[1] لا تزال هذه العين تفور تارة وتغور أخرى، وقد فارت هذا العام/ 1415 هـ كما في كناشة صهري عبدالله الأدوزي.

والقلعة الأولى القديمة (قلعة أغناج) إلى جانبها والأبواب الخمسة المحروسة، وكان أحدها متجها إلى جهة قرية العوينة، وما بعدها وسمي باسمها، والثاني نحو عين آيت جرار، وسمي باسمهم بالإضافة إلى باب أكَلو جهة زاوية مدرسة سيدي وَكَاكَ وباب الخميس على الضفة اليسرى على مخرج الوادي[1] والذي أصبح يشق المدينة من الوسط وباب المعذر في الجهة الشمالية الشرقية وباب تركَا المؤدي إلى بساتين المدينة الخارجية.

(1) وهو يسقي بساتين تيزنيت ذات النعناع المميز في المغرب كله.

٣

ولا تزال ذكريات زيارة خالتي رقية يوم الخميس لتيزنيت وهي تحملني مع أختي من الرضاع! لاصطحابها قصد الاستبضاع ثم الرجوع في دهشة الصبي الذي فتح عينيه أول مرة على المدينة التي زودت تدريجيا من طرف الحماية بمختلف المرافق العصرية من مقاه وفنادق وإسفلت ومراكز للحكم وزاوية أحمدية وسط المشور[1] وكنيسة صغيرة ودار نقطة للحليب ومدرسة عصرية ومستشفى ومطار صغير وكهرباء ومياه عمومية من عين آيت جرار: توزع يوميا بواسطة البومبا أو (السقاية العمومية) قبل الربط، وحلاق عصري ومصور وأسواق عديدة ومحكمة وضباط وقيادة فرنسية وفيلق وثكنة عسكرية وحارة لليهود ومشاهد أخرى منها مشهد (الشيخ ماء العينين) ومشهد (سيدي بوجبارة) ومشهد (سيدي عبد الرحمان) (وسيدي الحسين الإفراني).

وقد شملت هذه الزيارات أحيانا إطلالات على الولي الصالح (سيدي عبد الرحمان) وعلى زيارة أسواق الحدادين والثياب ودكاكين الجزارة وفرن للخبز سمي باسم فرن سي (الحسين بوفران) نتذوق منه لأول مرة خبز الحنطة اللذيذ آنذاك والمختلف تماما عن أخباز القرية: من حيث طريقة صنعه ونوع دقيقه، كما شملت ذات خميس طلبا من الوالد بعد انتهاء الحرب 1947م بتصوير (ابنه محمد) وإرسال صوره إليه قصد إعداد الثياب على قياسي عند القدوم إلى المغرب وأنا في السابعة تقريبا عند حلاق ومصور يهودي أمازيغي من ملاح تيزنيت، وكنت أمر معهما بجانب فندق فيما قيل لي و (كانتينا) أو مقصف خاص بالجالية الفرنسية، ودكان دراجي يكتري للأطفال دراجات قصيرة عجلاتها من (البانضاج) الذي إذا تفكك صعب إرجاعه إلا بخبرة الدراجي المختص من أحد أبناء (قمطلا).

---

[1] الزاوية التجانية بتزنيت من تأسيس العلامة (الحاج الحسين الإفراني) بعد إخراجه وإحراق داره في أحداث كبرى بإفران.

وكنت تعرفت على الدراجة الهوائية مبكرا في بيت خالي زوج الوالدة الثاني محمد ند عابد، وكان فتى مميزا في وسط القرية بسكناه خارج السور في قصبة إبدرارن وامتلاكه أول فنوغراف يدخل العوينة[1] وأول لباس عصري يرتيده كل مساء وصباح، راكبا دراجته المميزة بالنظافة والمتخصص في بيع وإصلاح الدراجات بتيزنيت، وكان (الشيخ) الآتي ذكره (موسي بن الطيفور) بالاضافة إلى ذلك يستدعيه لتأطير المناسبات الكبرى في هيئة ونظافة تميز بها لتشغيل الفونوغراف وإقامة الشاي لضيوف شيخ العوينة البارز على صعيد سوس كلها، ومع ذلك لم تنفعه هذه الصحبة مع زوج والدتي (محمد ند عابد) والذي كان السياسي الوحيد الذي يتتبع أخبار المقاومة والمحاولات الأولى بالناحية ويؤطر بعض رجالاتها سرا ولم تكتشف فيه هذه الميولات إلا بعد الاستقلال: حيث برز يوما مع مجموعة من المقاومين لإلقاء القبض على الشيخ نفسه وسياقته إلى أگلميم قصد إعدامه لولا تدخل أخيه الحاج المحفوظ! وقد تعرفت فيما بعد وبعد رجوع الوالدة إلى منزلها الأول! على هذا الرجل الأنيق المتفرد بهذه الخصال والاتصال بمراكش، حيث كانت له علاقات مع مقاوميها، وبعض رجالاتها في صمته المعتاد، وابتسامته الخلابة، وثيابه التي لم تفارقه حتى بعد تقاعده

[1] الفونوغراف كلمة يونانية مركبة من صوت وگراف، بمعنى الصوت المحفور المكتوب على شيء صلب، وقد مر في مراحل حتى وصل إلى المرحلة التي تعرفنا عليه في سوس سنوات 1943/ 1945 / 1947 / وعلى أسطواناته السوداء المستوية الملمس، وفي وسطها صورة الشركة الفرنسية صانعة الأسطوانات: وكلب يستمع إلى الفونوغراف ذي البوق العريض الشبيه بوردة مفتحة، وقد استطاع المطرب الأول بسوس (الحاج بلعيد) البعقيلي التزنيتي الأصول! أن يسجل عليها أوائل أغانيه بالرباب صحبة فرقته وأن تسوق هذه الأسطوانات بعد ذلك ويتعرف عليها الناس خلال هذه الفترة وما بعدها لأول مرة وسجلت على أقراص لفة 33 / وقد كان الناس إذا تكسرت يتخذونها بخورا للعلاجات ؟ وإلى توماس أديسون من أمريكا يرجع الفضل في تطور هذا الجهاز وظهوره كاملا أواخر القرن التاسع عشر بالتعاون مع شركة أمريكية، ومع بعض المخترعين الفرنسيين كما هو معروف، وقد قيل إنه استطاع المشتغلون في هذا الحقل العجيب استرجاع بعض الأصوات المسجلة عرضا ابتداء من أواسط القرن التاسع عشر نظرا إلى وجود هذه التقنية الحديثة جدا.

من عمله الحر رحمه الله بذلك وبما كان يبديه من العطف علي صبيا، حيث لم يرزق من الوالدة خلفا، فكان لي نعم العوض عن غياب الوالد في خضم زعازع الحرب العالمية! ورغم وداعته وحبه للوالدة فقد كانت رحمها الله بشخصيتها القوية تظهر من الدلال عليه ما يجعلها تجبره أحيانا على إسكات والدته (إِبَّا عائشة نْدْ الرَّايْسْ) والنيل منها رغم أنها كانت منفردة بسكناها رحم الله الجميع، وغفر للخلف والسلف آمين.

وبالمناسبة فالوالد رحمه الله (فيما أعقل) أول من أدخل جهاز الراديو بالبطارية الضخمة قبل الاستقلال إلى القرية! وكان الناس وخاصة صديقات الوالدة يفدن إليها للاستماع أول مرة، أما ثاني الأجهزة فاستورده أحد المعلمين الذين عينتهم فرنسا لفتح أول مدرسة حديثة بدار بنهموش أحد رؤساء العوينة ويسميه الجميع (مسيو ميلودي البجعدي) وكانت داره قريبة من دار الوالد، فتجاوب الجهازان لأول مرة في فضاء قرية العوينة.

وعن ارتساماتي نحو هذه المدينة تيزنيت إليكم هذه الصور نثراً أشبه بالشعر بعنوان:

مدينة بحجم الكف

كانت مدينتي الجنوبية أشبه بقرية صغيرة
أتجول في ساحاتها القريبة المرمى
فأتم جولتي في لحظة
كل ما فيها مفتح على ساحتها الجامعة الزرقاء اللون والمهندسة
وأهلها تكاد تحصيهم صبيحة كل خميس
وهم يسرعون الخطى إلى السوق

وينتهي بك المشور
قبل أن يبلغ الشوق مداه
ويحط عنه القادم أتعاب المسير
الخطوات محسوبة
وإلا انتهت إلى الضياع أو التكرار
النظرة الواحدة تميز الغريب
فيشعر بالدهشة والحرج
****

يا مدينتي الأولى
هربت منك سنين
وبقي الشوق دفينا بلا إشباع
ضاع لي فيك بعض السر
من طفولة مبكرة
فهل أجده ؟؟؟؟
بعد عهود الشتات والبعاد
وشيء من المرارة ما تزال في حلقي وفمي
****

ما أنسى لا أنسى هنيهات من الدهر
اختلستها منك مر الكرام في عفة
برغم الرغبة الجامحة
وكأني وقد حدثت النفس عن إغرائك المباشر الصريح

وعن الرواد والشباب والفتية

والتجربة الغريرة

مسافر إلى البعيد

ينهب في استراحة وخلسة بعض اللذة

وهو يحث الخطى عجلا مرتبكا

****

فمهلا هذه المرة

على بقايا

حب قديم لعله يبوح بسره

لا تعجلي به فتنفحيه ودا خلبا

أو شهوة منهوبة

أو دمعة مبتسرة

وهو المحب منذ القديم

المخلص في الود

رغم التقلبات والهزات

****

معاذ الله أن أكون أفَّاقا يرى منك المظاهر

وأنا الذي اكتحلت عيناي بلون

سهوبك العبقة النفاذة الرائحة

وقد شربت منك الكأس الأولى

ثم رحت أكسر أغصاني هنا وهناك

حتى تكسرت نزواتي ورغباتي في الدروب

****

فهل أجد فيك اليوم

سيدة مغمورة بالحكمة

والنظرة البعيدة

إذا كنت لا تزالين تذكرين

فتى لوحه الدهر

****

فهل أصابك الزمان بالذي أصابني؟

فصلب منك العود وزال عنك سوء الحظ

وغادرك القرصان واللصوص

****

أرجو لك العمر المديد

واستراحة المحارب

وَأَمْنَ المدن الثابتة الأركان

ذات الشخصية الوقورة

المتحلية بالحكمة

والمرح والتفاؤل دوما

انتهت



جدتي في دارها بآيت بونوح وأنا خلفها سنة 1988 صيفا

وأنا طفل بين البحر والوادي:

إذا كانت العيون الأربع قد ولدت وأنا أسمع عنها أو أرتادها أو أنبأ عنها حلما؛ فإن نصيب هذا الطفل الذي لم تخفه طائرة الحرب العلمية الأولى، وهي تشق بدخانها وأزيزها سماء سوس والصحراء، كما لم يعان من مناظر الفيالق العسكرية وهي تجوب سهوب سوس، جيئة وذهابا ولم يستفزه منظر الطبيب المصحوب بالحاكم وبطاقم من الممرضين أمام باب المسجد الجامع بالقرية قصد تلقيح أذرع الأطفال بأول أمصال البنسيلين وبعيد ظهوره مباشرة بفرنسا لقاحا لأمراض الطفولة وعلى رأسها الجدري المخيف، والذي كان يبدو على وجوه بعض رجال ونساء القرية في شكل حفر متوالية على الوجوه تكاد تذهب بجمال الحسناوات وبهاء وجوه الرجال، ولم يلفت نظره خطورة حضور رجل (الضابط) لأول مرة إلى القرية لإحصاء حيوانات الأسر وحقولهم لتضريبها وفق نظام جديد. ولسبب بسيط، فقد كنت غير مبال بما ترك لنا الجد والوالد من أملاك لم نستطع تدبيرها فعهد بها إلى رجال أكفاء يستطيعون إدارتها ريثما يظهر خبر الوالد، كما لم يخفني كثيرا صيحات (البراح) على سطح المسجد الجامع (بحد الصائم) قصد تجنيد القادرين على الأشغال الشاقة لشق الطريق وتمهيدها على سبيل السخرة أثناء حرب عاضة حتى بالنسبة إلى الدولة المنتدبة للحماية، لأني في عمر لا يسمح بذلك من جهة، ولأني محتم بالكُتَّابِ مقبل على حفظ الكتاب أو ما تيسر منه عند الطالب (سيدي علي أيت الهماني) الحازم الواقف على إعداد المحاضر للمهمات ليل نهار، فإن ما ترك في نفسي الطفولية الفطرة دهشة وخوفا مصحوبا بالإعجاب والتعلق، إنما كان منظر الوادي القريب من دار الولدة بعشرات الأمتار (وادي أَدُودو) والذي توحي تسميته بصوت الموج المرتفع المسموع السريع الوقع المنحدر من جبال الأطلس بعيدا عند روابي وجبال (آيت رخا ولاخصاص وآيت

برابيم وسيدي موسى ندايغت) إلى أن يهاجم قرية العوينة ذات مساء صامتا أول الأمر ثم يتدرج اضطرابا ويزداد ضجيجا حتى يصل نحيبه إلى دارنا القريبة فنبيت ونحن ننتظر الصباح ليطلق سراحنا نحو هذا المهاجم الغريب المنظر والحركة، والذي يسوق في طريقه إلى القرية أولوانا من القش والغثاء والأخشاب والأعواد وما إليها عند ما يشتد ارتفاعه فيبدو لنا في غبش الصبح متحركا مضطربا يلمع موجه تحت بقايا ضوء قمر يختفي بسرعة ثم (نتجمد) بعيدا ننظر إلى انقطاع البساتين والزاياتين عن القرية وأحيانا انغمار بعض الآبار الاحتياطية فيصعب حينئذ الوصول إلى مياه الشرب حتى من الساقية من العين، فلا يبقى إلا بعض الآبار التي لم يتمكن منها الموج رغم قربها من الوادي!.

وقد نبقى هكذا أياما وأماسي ونحن نترصد حركة الوادي وهو يهدأ تدريجيا، لنبدأ في الاقتراب من ضفته اليسرى، متحرشين بأوائل حفاف مياهه بأقدامنا الحذرة من الانجراف! قبل أن يتقدم المجربون الأقوياء منا في محاولة الولوج إلى وسط النهر في سلسلة متعاضدة لا تعاكس التيار، ولكن تساير الجريان حتى لا تصطدم بالموج متلمسة مواقع الأقدام في مناطق آمنة من الوادي لا انزلاق فيها ولا حجارة متحركة ملساء مزلقة ولا طين تغرق فيه الأقدام والسيقان والركب فيصعب إخراجها، مترقبين جرأة بعض فلاحي القرية المضطرين إلى قطع الوادي إما بأقدامهم وعلى أكتافهم أدوات السقي وعزق الأرض وما إليها أو على متون دوابهم القوية التي تزعج مرغمة على اقتحام الوادي قبل أن تمد أعناقها أمام الأمر الواقع فلا تجد إلا أن تغامر في اتمام الباقي، ونحن نتربص الدوائر ببعض الشيوخ المسنين وهم يحثون دوابهم على الاقتحام والانفلات بصعوبة من أوحال الضفة اليمنى صعودا نحو البساتين المملوكة لأيت بنوح وآيت البايك وبقية العوينة.

وقد بقيت هذه المناظر المدهشة في اللاشعور والشعور إلى اليوم، واندفعت يوما إلى التقاط بعض ما بقي من هذه الصورة في الكيان فكانت هذه الأبيات المضطربات اضطراب هذا الوادي العظيم والذي لا يتوقف قليلا هيجانه إلى أن يصل بعد سبع كلمترات تقريبا! إلى قرية أصهارنا الأگراريين فيما بعد! فيتشتت في حقولهم التي تتشعب في اتساعها لتشرب من طميه[1] وترسباته وتمتص معظم ما وصل إليها، وإذا بقي منه قوة تجاوز هذه القرية إلى زاوية سيدي وگاگ عبر قرية (أمزاورو) منتهيا إلى ضاية عند البحر المحيط، تسمى (تامدا أوگلو) وهي مالحة مختلطة المياه ضحلة تكاد تبتلع كل من حاول تحديها عند (سيدي موسى) صالح أگلو على الشاطئ! وهذه هي بقايا صور من ذلك، ومن شعر الطفولة والصبا وهي من البحر المتقارب فعولن فعولن فعولن فعول السريع المضطرب اضطراب هذا الوادي.

[1] الطمي: الطين يحمله السيل فيستقر على الأرض رطبا أو يابسا.

دهشة طفل معاصر بين القرية والوادي
في صور من البحر المتقارب "فعولن فعولن فعولن فعول"

على ضفتين بقرب المُحيطِ

وعند الجبالِ

وبين العيون وعند السواقِي

وتحت ظلال الزياتينِ

والنُّعْنُعِ الأخضرِ

مشيت الطفولة في صفوها الأولِ

وفتَّحت عينِي على النهر

يجري أمامي

ويحمل بين ثناياه

أنباء قومٍ

وقد ودَّعُوه

وألقو إليه بقايا

هداياهمُ

السنويةَ في مشهد خَطِرِ

****

فدفعَهَا نحو تلك الشعاب

وكسَّر من عنفوان

الجذوع

وأطلع نحو

الضفاف

حثالتها في هزيع الليالي

وتحت ضيا

قمرٍ أنورِ

****

وعند الصباح

انطلقنا

إلى ما تبقى

من المد

نبحث

عما تخلف من معركهْ

****

ترامت إلينا مع الليل

أصداؤها

ونحن نحاول أن

نتظاهر بالأمن

والخَوْفُ يَرْجُمنا

بالكثير من القصف

في صرخة مدهشةْ

****

فيافرحة الروح

عند انكشاف الذي كان

يغمرنا بالجهالة

والخطر المحدقِ

****

وها نحن نرفع أبصارنا

من قريب!

إلى ذلك الوحشِ

أصبح ينساب

في السير

كالأفعوان رضيا

****

ولم يبق من خطر

غير لون بدا

أحمراً قانيا

****

وفي صبح يوم جديد

هجمنا على الأفعوان

وقد ضعف السير منه

وكدنا نشد

على بطنه

باليدين ولم يبق إلا سويعَاتُ وقت قليل

إذا بالرفاق يَمدون أقدامهم

للمخاضهْ

****

وفي حذر وشجاعهْ

يشقون نحو البساتين من عزمهم

وقد أمسكوا بضباع

الجميع

وقد صنعوا منهم سلسلهْ

****

وهاهم وقد نجحوا يرفعون

عقيرتهم بانتصارٍ تحقق

بعد اصطبار وبعد انتظار

وقد واجهوا الخطر المتجددْ

****

يغامر بعضهم وحده

مَاخِرًا ما تبقى من النهر

يرفع ساعده للتوازن

يدنو إلى الضفة القابلةْ

****

وها نحن نأتمر الليل

هل نستطيع السباحة في

جنبات الضفاف

عميقا نغوص عميقا

ونحبس أنفاسنا

مدة كافيةْ

****

وبعد أسابيع نسمع

من نقنقات الضفادع في ليلة مقمرةْ

وها هي تلك العيون على الساقيةْ

تمد إليه العروق

فنشرب منها وقد نستسيغ

مياه الغدير المليئة بالملح

واللذة اللاسعةْ

****

وحين يصارعنا تعَبٌ

نغوص بطينة تربته

نصنع المدن النائيهْ

والرجال العماليق والوحش

والقمم العاليهْ

والعروس الخرافية الحسن والغولة الداميهْ

وحين نمل نُكَسِّرُ ما جف

من صور وتماثيل في

لذة راضيهْ

****

ولم يستثرنا سباب النساء

وما حل بالثوب والجبة الطافيهْ

ولم نخش من ضربة بالزكام

ولا ضغطة القدمين على صخرة قاسيهْ

****

وننصت في دهشة باديهْ

لسير المياه إلى البحر كم قطعت من

قرى وبساتين في سرعة قاضيه

وما فعلت بالسدود من التربة الباليهْ

وبالشجر الملتوي نحو ضفته العاليهْ

وكيف مصير المحاريث والأسطر الباقيهْ

****

ونرقب مستضحكين

محاولة الفتيات

اقتطاع المياه

إلى الساقيهْ

ووقع خمائلهن

على الماء

والصيحة الحلوة الغاليهْ

****

وما يفعل الطمي من تحت أقدامهن

فيزلقهن إلى الماء في فجأة

يُجمِّعنَ أطرافهن حياء وخوفا من الغطسة

القاضية

****

وها هو شيخ مسن يحث على قلق

بحمارته للجوازْ

وأصواتنا قد تعيق الشيوخ

وتشعرهم بالوني والهوان

فلا يُنقَذُون سوى ببقايا عزيمةِ

عَصْبٍ ضعيف

ليستنفر الشيخ في آخر الشوط

ما قد تبقى له من تجاريب عمر طويل

يواجه شيطنة الصبية الجانيهْ

****

فيا ذلك العهدَ

دمت وعشت

طويلا بذاكرة الكهل والشيخ

والشيخة الفانيهْ

****

وصرت لنا ذلك الوقدَ

والذكريات الجميلةَ

دامت لنا همسات

الوداد وحلو اللقاء

والأحجية الباقيهْ

****

وأيام حب ثوى في الضلوعِ

طويلا

وَغَرَّزَ صورته

بمداد الخلود

وألوان قوس قزحْ

****

ولوحة ذكرى

تضم ثلاثا من الناهلات

من النهر

في أزمن راضيهْ

شربن بمائك كل جديد

من المزنة الصافيهْ

وخضن على نغمات الفتوة

طينك في نظرة

رانيهْ

****

انتهت



الوالد عبد الله في باريس أثناء الحرب العالمية الثانية 1939 / 1945

٤

الدهشة الثانية بالدراجة الهوائية
والتي بقيت تصحبني إلى اليوم

وهي أول ما فتحت عليه عيني من اختراعات القرن في منزل الوالدة عند خالي (محمد ند عبد)! وكان بائع دراجات مشهورا بتيزنيت عند ما اقترن أثناء الحرب واختفاء الوالد بالوالدة، فكان فارس طريق تيزنيت والعوينة دون منازع، لا يشوش عليه في ذلك إلا أحد مقاومي الاحتلال فيما بعد، وكان صاحب (صاكا) تبيع الدخان بتيزنيت، وكان يبيت أحيانا في داره بالعوينة وهو من معطوبي الحرب، وكانت قدمه الثانية لا تسعفه على استعمال الدراجة، ومع ذلك كان يعوض بقوة رجله الوحيدة مستعينا برجل اصطناعية نراها في دهشة كبيرة عند ما يتمكن من دراجته، وكان صبيان القرية أجمعون أكتعون أبصعون إذا لمحوهما أثناء الرجوع والرواح يقومون بسباق (مارطوني) لاستقبالهما ومحاولة الاقتراب منهما! فكانا من الخفة والمراوغة بحيث ينفلتان في انسياب كبير، ويَختفيان عن العيون في لحظات، ولم يشبع صبيان القرية من الرغبة في هذه الآلة السحرية فيما صنعوا لهم أشباها لها: تارة بقصبة على رأسها عجلتان من الأوراق الغليظة للتين الشوكي، وأخرى بتعويضهما بأسلاك من بقايا أعمدة الهاتف الرابط بين تيزنيت وبونعمان على بعد 15 كلم من العوينة، وكان أحد غرباء القرية قد أحضر معه دراجة من الدار البيضاء، ودخل إلى القرية في رابعة النهار، فتعلق به صبيان القرية وفتياها حتى أسقطوه أرضا من شدة الإعجاب.

وقد كنت أشبع رغبتي في هذه الآلة العجيبة بتقديم طلب إلى الوالدة أثناء استراحة خالي (محمد نِدْ عَبْدْ) وخلوده إلى النوم، وكانت تسمح لي بتحريك سلسلة الدراجة ! فلا أزال على ذلك حتى أسقطها من مكانها فأخاف من اللوم، وأنا لا أعلم

مدى خبرة خالي بهذه الأمور، فلا أكاد أقدم لها طلبا مرة أخرى، إلا إذا اختلست الأمر اختلاسا في انشغالها داخل المنزل الفسيح الأرجاء البعيد عن مساكن القرية والمتفرد.

أما قصتي الثانية مع الدراجة فكانت فيما بعد عند ما صحبتني الوالدة إلى الدار البيضاء للقاء الوالد أول مرة بعد رجوعه عقب الحرب العالمية الثانية والرجوع إلى عصمته بعد طلب الفراق من خالي (محمد ند عبد)! فاستجاب هذا الأخير مرغما لطلبها، وكانت رحمها الله إذا عزمت على أمر لم يحبسها عنه حابس أبدا. وكان من حسن الصدف أن الوالد بعد شهور قد سمع بإخراج دراجته التي بعث بها بعد الحرب من باريس، فغرقت السفينة من إثر ضربة العدو في البحر، ثم تمكن الفرنسيون من إخراج ما فيها، ومن بين ذلك دراجة زرقاء متينة جميلة المظهر، ثقيلة الوزن، ذات محركات ودرجات في السرعة، أراها لأول مرة، فاشتدت بها فرحتي، وتمنيت وصولها إلي، بعد أن أصبحت أتقن شيئا ما ركوب الدراجات المكتراة التي كثيرا ما كنا نسقط من على متنها حتى يبلغ منا الألم مبلغه، فلا نكاد نرعوي إلا بحضور الدراجي الذي أكرانا بالساعة هذه الآلة العجيبة! لذلك تحققت رغبتي الأولى وأنا أدرج إلى المراهقة بهذه الدراجة المشتركة بيني وبين الوالد[1] الذي كان يسمح لي أحيانا بامتطائها في شوارع ودروب بوشنتوف والقليعة ودرب اليهودي بالدار البيضاء، لا أتجاوز بها مئات من الأمتار، وبقيت هذه الذكريات في وجداني إلى اليوم وأنا لا أزال أدرج إليكم (بالبيكالا) وأتعرض لمخاطرة الزحام، والمرء عبد لما اعتاد.

---

[1] أصلها بيسكليت. ثم غيرت في بعض لغات أوروبا كالإيطالية فيما يظهر.

الدهشة الثالثة بلقاء المحيط أول مرة عند شاطئ سيدي (موسى أوگلو) [1]

وبالضبط عند تامدا أگلو قرب سيدي وگاك وبعيدا عن العوينة بنحو **10** كلم، كنت بقرية العوينة لا أزال أسمع ناجخة التيار وهدير البحر المحيط، من وراء فرع من فروع الأطلس الصغير يحجب سهوب (أزغار) ممتدا من (آيت همان) مارّاً (بآيت برييم والعوينة وإگرار وأمزاورو) وزاية سيدي وگاگ إلى أن ينتهي عند شاطئ سيدي وگاك تعقبه بعد ذلك كثبان رملية تمتد عبر المحيط إلى أگادير مارّة عبر (الخنابيب وماسة واشتوكته وامسگينة) إلى الخليج، وكانت سحبه وأمطاره قريبة من القرية، وكان منظر الضباب المغطي لقمم هذا الجبل المستطيل الحاجز بين البحر والقرية، يلفت الأنظار، وهو يتدفق تارة مسرعا، وأخرى بطيئا ليعم أسفل الجبل وسفحه إلى أن يصل سريعا إلى العوينة أيام الشتاء والصيف خاصة، وهكذا كان البحر بالنسبة إلي كائنا مخيفا وهائلا طالما تجنبت المغامرة في التفكير في اقتحامه، وأنا مثل ذلك الشاعر الذي قال:

لا أركـب البـحـر أخـشـى لي مـنـه إحـدى المـصـائبْ

طـيـن أنـا وهـو مـاء والـطين في الْـمـاء ذائـبْ[2]

---

[1] لا يزال هذا الموسم الذي ينعقد عادة في نهاية الصيف وتسبقه بعض العادات في الفروسية وخاصة الگعدة وأمراغ والزاوية الوگاگية وأنفوذ وسيدي بونوار، وإذ ألحيان (أخبار الجنوب كوم) (akhbar aljanood).

[2] هما للشاعر الصقلي الأندلسي عبد الجبار ابن أبي بكر ابن حمديس الأزدي أبو محمد مدح المعتضد وتردد على المعتمد وهو أسير بأغمات توفي 527 هـ.

إلى أن حل ذات سنة من سنوات الخمس الأولى، موسم (سيدي موسى أوگلو) الخاص بالنسوة والأطفال يعقب موسم الرجال بنحو أسبوع! فعزمت الخالة والجدة على زيارة سيدي موسى وموسمه، فاصطحبتانا: أنا وأختي زينب من الرضاع، ونحن نتعاقب في فرحة واندهاش! على حمار الخالة الفاره القوي البنية، والذي كانت تركبنا عليه نحن الثلاثة إلى تيزنيت أحيانا، وقد مررنا بأماكن محاذية للجبل، لا لأزال أذكر فيها (سيدي داود) و (إگرار) (وأمزاراو) وزاية سيدي وگاگ وبساتينها وعينها المشتركة مع عين العوينة في المنبع! لا يفرق بينهما إلا صخرة عظيمة، تقسم العينين نصفين، النصف الأول أسفل الصخرة لأهل العوينة، والثاني أعلاها لأهل أگلو، وكثيرا ما تسبب هذا الاشتراك في منازعات ومنازلات وبعض حروب، أدركت من بقاياها قلعة خاصة بدفاع أهل العوينة عن نصيبهم من العين وكانوا بأعالي المنطقة وأهل أكلو بأسافلها وكنت أمازح العلامة الحسين وكاك بهذه المزحة أقول أنتم دائما في أسافل العين ونحن في أعاليها ولا نستوي أبدا؟ وذلك عند شحة الصيب وتسمى (تگمي العين) ضمن أرض ورثها الوالد رحمه الله من جدتي (زينة نِدْ عُمَر) فلا أزال أغشى تلك الأطلال (وأتفرج) على بعض (المطمورات) التي كانت تضم بقايا مصابين شهداء دفنوا بهذه القلعة العالية الأسوار.

وهكذا وصلنا أخيرا إلى شاطئ (أگلو) زوالا وصعدنا تدريجيا من منخفظ زاوية سيدي وگاگ إلى (إِدَرْقْ) وقطعنا قنطرة وادي أدودو قرب مصبه، وهو يبدو لنا فاغرا فاه وصخوره المنحوتة بقوة صيبه! حمراء اللون منبعجة ضخمة تشبه الجمالات الصفر المشار إليها في الأية (إنها ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالات صفر)[1] وها نحن ننصبُّ في دهشة كبرى إلى شاطئ سيدي موسى في منحدر بين جبال من رمال على

[1] المرسلات 32 /33 .

اليمين وبقايا جبل انمحت حزونته، وأصبح لين الجانب سهل الاقتحام، وتبدو لنا على اليمين بعيدا بحيرة (تَامْدَا) حيث يتمهل الوادي قليلا قبل أن ينصب إلى المحيط وبجانبها بعيدا عاليا (ضريح سيدي موسى وملحقاته)(1) من دكاكين ومسجد ومرافق تتخذها الأسر مُقَاماً مؤقتا للزيارة والالتقاء بأمواج البحر ذي الهدير الصاخب في هذه المنطقة الضيقة، وذي الموج المتلاطم والشاطئ الشاسع الرملي تتخلله على اليسار صخور حمر تنبع من تحتها مياه ساخنة تسمى (أَمَانْ إِيْمُوضَّانْ) تغشاها النسوة مقتعدات حفرا من الرمال الدافئة المياه للتبرك والاستشفاء ولمس الموج الذي ينصب إليها متكسرا ضعيف الوقع فيختلط فيه العذب الفرات بالملح الأجاج.

وها أنذا في هذا العالم الغريب وأنا أتوجس خيفة منذ الوصول إلى الليل لأرى ما قيل لي من أنه سيقوم بعملية المد وسوف يغطي مسافات الشاطئ حتى يكاد يصل إلى الخيام المقامة على عجل وكيف ما تيسر، قصد الاحتماء من الرياح العاتية التي يشتد وقعها ليلا فلا يكاد النائم يرتاح قليلا حتى تصفقه هبة قوية أو رجة قد تقلع بعض أوتاد هذه الخيام! ومع ذلك بقينا في حالة تأهب ونشاط ونسيت يومها نوع الأكل والشرب واللباس الذي كنا نرتديه!!.

والذي كان يخيف هذا الطفل ومن حوله من أضرابه هو هذا اللون الأبيض اللامع المتحرك الذي يبدو ليلا رغم الظلمة لا يعرف له سببا، مع أن لون البحر أزرق شديد الزرقة أو مظلم ليلا؟! وعند ما غاب القمر اشتد بياض هذه الكائنات البحرية ولم نكن نخلد إلى النوم إلا على ضوء ولمعان هذا الوبيص.

---

(1) منها ضريح القائد باقا الذي كان حاملا مؤونة من السلطان الحسن الأول إلى الصحراء فاضطرت سفينته إلى الانعراج نحو شاطئ أگلو لتنغرز بحيزومها ومقدمها في رمال الشاطئ فيما يقال.

وباكرا استيقظ الجميع محملقين فيما صنعه البحر والموج من حركات الرمال! نراها لأول مرة، ونكاد نلمس برودتها بأقدامنا المخدرة من البقايا التي خلفها البحر في أشكال الرمال وكائناتها الدقيقة وحجارتها الملساء المتعددة الألوان وطحالبها الخضراء، وعند ما عمت الشمس وبدأ المجربون من رفاق المؤطرين للموسم بلوازم التغذية والطعام وألوان الثياب والعطور في الإنحدار إلى البحر رأينا ثلاثة من الشبان المجربين القريبين من البحر الممارسين والمغرورين المفتولي العضلات الطوال القامة! يقتحمون هذا الموج الهادر اقتحاما ويتجاوزون الموج المتوالي! متحدين تلك الأمواج الفاغرة فاها لالتقام السابح وليّه ليّا وإغراقه، ثم الالقاء به جانبا! وإذا هم يتجاوزون هذه الأمواج العالية كالجدران ويضربون في عمق البحر في سباق متواصل القذفات سريع الوقع! والشاطئ وناسه قد قفّ شعرهم لهذا المنظر الجريء! وسرعان ما انفلت أحدهم وترك الآخرين حيارى يقتحم البحر حتى لم يعد يبدو لنا منه شيء ! ورجع الباقون مكرهين متعبين مغلوبين.

وبقينا هنيهة محبوسي الأنفاس، والشاب المغرور قد اختفى كلية حتى وقع اليأس!! ووقع الإحباط، وسقط في أيدي الناس! وإذا بنا بعيدا نرى شيئا أسود والموج الأبيض حوله يلمع والناس يشيرون بأذرعهم إليه معتقدين أنه الفتى المغرور آنف الذكر، وبدأت زغردات النسوة والشواب في الارتفاع والإعجاب بهذه المغامرة والمسابقة الحرة الخطيرة وعلى غير انتظار!! وكأنهم قرروا أن يستذروا إعجاب الفتيات فقاموا بهذا الاستعراض الخطير؟!.

ولا أبالغ إذا قلت: إن هذا البحر الهائج المائج قلّ ما سلم منه أحد من الصيادين والسباحين من محترفي البحر وهواته! وقد كنا نسمع أن فلانا (صاحب البحر والموج في زمانه) قد أحيط به ذات ليلة، وأن آخر قد اقتحم البحيرة التي على

يمين الداخل المسماة (بتامدا) أوگلو فابتلعته ابتبلاعا! وأن مغرورا جاهلا بحركات الموج قد تحدى فأخذ على حين غرة والتوت عليه الأمواج التواء حتى اختفى قريبا ولم تظهر جثته إلا بعد يومين في شاطئ غير قريب، وكان أحد أصهارنا من الهواة المحترفين للصيد من أسرة (الرفاگيين الأگراريين) قد أحيط به منذ سنوات رغم ثقافته الطويلة البحرية وصحبته وتجربته! ورأيت أحد رفاقي (عبد الله أُبَتِّ) يوما قد اغتر بقوة عضله وطول قامته، قد اقتحم عن جهالة هذا الموج متحديا فما كان منه إلا أن أسقط قريبا غير بعيد عند محاولته رفع قدميه للخروج والموج الضعيف يستف الرمال من تحت أقدامه بقوة فيزعزِع توازنه فينهار ويميل نحو السقوط، ثم يرتمي على الرمال!.

وهكذا بقيت ذكريات البحر المحيط في اللاشعور طيلة المراهقة والفتوة، فكان من ذلك هذه الارتسامات أعقبتها فيما بعد بقصيد من البحر الخفيف المناسب لخفة أمواج هذا البحر، وما تصنعه البحار براكبها عبر التاريخ وهي بعنوان:

حوار مع محيط الجنوب الهادر

أيهـــاذا الـــــهَدَّارُ بالمـــــوج مـــاذا   يخـــتفي فيـــك مـــن شـــجون وهَـــمِّ

جُــــزْتَ بـــالراكبين مـــن كل لـــــون   أَعْصُــــرًا فـــارتموا على شــــط يَـــمِّ

كم أهـاب الغريـب بالأمـل الـلا   مـــع في متنـــك التماعـــة نــــجم

ومَوَاكيـــب مـــن حجـــيج إلى الشـــــر   ق وقــــــد بــــادروك يومــــا بيـــــوم

وأســـاطيل مـــن جيـــوش وقـــــد ســـا   روا إلى حتـــــفهم كرشـــــقة ســــــهم

تـــومض العـــين في لياليـــك شوقـــا   للمـــواني مـــن بعـــد غفـــوة نــــوم

مــخـــض البحــر أنفســا وشــبابا وســـــواعيد واهتبـــــالة قـــــوم
أيهــــاذا الكـــريم طـــورا بــــأرزا ق فـتــــزجي بهــا إلى كـــل فـــم
نـعـمـــــة أنــــت تــــارة للبرايـــا وطِـــــوَارًا ترغـــــي بطِـــــمٍّ وَرِمٍّ
قد عرفـت الشـطئان طفـلا غريـرا مذ رأيـت الأمـواج تـردي وتصـمي
ونـــــَعَيْتُ الفـــتى المـــرجى وقـــد لا حـــت تباشــــير نـــجحه لــم يُــتِمِّ
وعرفـت اليـتم الـــممض وقـد حـا لــت أمــواج بــين الأَبِــينَ[1] والأُمِّ
وســـمعت البحَّــار يـــحكي أمـورا طـــعمها مشـــرب بجرعـــة ســـم
كم حوى بطنك العميـق مـن الأس رار والـنـبـــإ العــــظيم المهــــم
منذ غاب الفرعون والـــجند والقـر صان في بطنك الكتـوم الْمِكَـمِّ[2]
هــل تجَنَّيــت في الخطــاب أو الدعـوى وهاذي الأحداث تسـري وتـنمي[3]
كـــتب الكاتبـــون حولـــك أنـبـــا ءً قـــــد اقترنـــت بقـــدح وذم
فـــالردى شـــاخص على لجـــة السـط ح ونَـــاجٍ إلـــى نـيـــوب وكلـــم
ظلمـــات وبعضـــها فـــوق بـعـــض تـــردم الشـــخص في غفـــير وَجَـــمٍّ
لا أرى الخلــق في الشــواطئ يــدرو ن أمـــورا بِهـــا تُغـــيرُ وترمــــي

---

(1) جمع أب تغليبا.

(2) المكمة : شبكة توضع على فم البعير وغيره لحجزه عن الأكل.

(3) نمى الخبر ينميه: إذا أفشاه.

سحرتهم آمال صحو ونَجم ... وَأَصِيلٍ وسَجْوِ لَيْلٍ بِتِمِّ[1]

غسل الخلق همهم في بحار ... ملئت بالشجى وبالهم تهمي

غير أن الكثير من همنا يب ... دو على شطها كشكلة ضم

أركب الله إنسه في شواطيه ... على لجج به وخضم

عم نوحا طوفانه والبرايا ... قبله والسفين في كف غيم

نبذت قرعة نبيا به لو ... ما قدرة الله لم تنله بِنُعْمِ

قد نهي ابن الخطاب عن خوضه الصح ... ب ولو للجهاد والبحر يصمي

ورأى الفقهاء أنَّ به قد ... يسقط الحج في مخوف ملم

غير أن الإله قد سخر الْبَحْـ ... رَ لنا فالسفين في البحر يحمي

وبه من طعامنا ذلك اللح ... م طريا للأكل في كل فم

وبه السحب توقر الماء للأر ... ضِ فتوصله إلى كل قوم

أرضنا فخرت به في الكواكي ... بِ جميعا بالارتفاق المهم

رب فاحم البحار من مكر إنس ... ملأ الأرض من مبيد وسم

أگلو 1990

---

[1] قمر التم والتمام : في ليلة الرابع عشر وهو بكسر الميم في الأولى المثناة.

وقد عبرت عن مشاعري تارة عن هذا الشاطئ بالبحر الحر التفعيلة فجاءت هذه الأبيات:

الشاطئ المتوحش

أيها الشاطي الطفولي المتوحش
كم قضيت من السنين
وأنا مأخوذ بصدى صوتك الصاخب
وكم سلخت من عمري
وأنا أقيس كل الشواطئ على صورتك
يوم اكتحلت عيناي
بزرقة البحر
كنت أول ما انفتحَتْ عليه
أتذكر تلك الدهشهْ
التي استمرت أياما
وأنا أتملى منك
مأخوذا بطلعتك الغريبة
وعند ما كنت صغيرا
كانت جدتي
تحكي لي عن الخطر المغرق
مقترنا باسمك!

****

لا زالت تلك المشاعر

غضة طرية إلى اليوم

وأنا أقبل عليك كهلا

كما أقبلت عليك طفلا

آهٍ ما أحلى تلك الذكرى

العالقة بأعماق اللا شعور

كان موجك مخالفا في إيقاعه

لكل الأمواج التي سمعتها أذناي

في مختلف البقاع

وكان منظر أؤلائك الفتيان

الذين أقبلوا يصارعون موجك العاتي حينذاك

غير عابئين بشيء

لا يزال عالقا بالذاكرة كأنما وقع منذ أيام

****

أما تلك الريح المسرعة

التي كانت تداعب بقوة قامتي

فلا أزال أتنسمها في الريح التي استقبلتني بها

وأنا كهل في صبيحة يوم خريفي

****

لقد بدت لي بعد ذلك شواطئ المحيط

وكأنها نسخة معدلة منك

بل إنها الصدى لصوت لا يلبث حيا مؤثرا

****

وها أنا ما أزال أتهيب كلما أقبلت للارتماء في أحضانك

ألا أمسك بسوء

ويوم ارتميت على أذرعك الحنونة

كان يوما لا ينسى

إنهما ذكريان متميزتان

إحداهما تنغرس في الطفولة بجذورها

والثانية تَمُتُّ إلى الشباب بكل عنفوانه

****

أيها الصديق والحبيب

والغريب والبعيد

لتبق في هيبتك الأولى

شامخا كالطود

شريدا كالجمل الهائج

مندفعا

كعواطفي التي ولت وخمدت ولن تعود

قاصفا

كالثورة التي كانت الفتوة تثيرها

في أعطافي

ساحرا خلابا

كتلك الصورة التي أحببتها لحورية بحرية

مرت على جانبك

ذات أصيل

****

وإياك أن يعبث بك تجار الكرة الأرضية

فيقتطعوك

قطفا أرضيهْ

ويلحقوك تابعا لمرافقهم

التي تشبه القلاع

أو يسجنوك في مربعات

هندسية للبيع

فيحولوا بينك

وبين أحبائك الأولين

ويحجبوا عنك الجبل الذي احتضنك

من ملايين السنين

والنباتات التي تبادلك الهمس

كل ربيع

****

خوفي عليك
من لصوص اللذة
وبائعي الليالي الحمراء
وقراصنة الطبيعهْ
وتجار التلوث
وسارقي الرمال؟!
****
فلتبق
ولو زمنا يسيرا
ذلك الطفل الصاخب المندهش
الذي رأيت فيك أول مرة
حتى لا أفقد فيك ثقتي الأولى
وذكريات مضت ولن تنسى أبدا
****
وليُجَلِّلْكَ الله بالمهابة أبدا
وبالجاذبية
وبالقوة
وبالحب العنيف المتوهج من الأعماق
والذي لا يني يعطي أحلى الثمار
باعثا في جوك رائحة عبقهْ
كرائحة حورياتك الفاتنات

بتيزنيت 1988/9/12



لقطة من شاطئ أگلو المليء بالصخور في بعض جوانبه المسماة (أزرو زگاغن) أو الحجر الأحمر وهو يرغي ويزبد وموجه مرتفع وضبابه عال وشامل كما وجدناه في الطفولة قبل التسويات المتوالية (للكورنيش) أي الرصيف.

٥

النسب الأصلي للوالد عبد الله بن مبارك البعقيلي:

(وإدا أوبعقيل) إحدى القبائل الولتيتية الكبرى، كان وصل عدد فرسانهم إلى العشرين ألف فارس، واشتهرت مناطقهم بهذه الأسماء:

أولا: أَدُوزْ: وإليه ينتسب أصهاري الأدوزيون (انظر مادة أدوز في معلمة المغرب بقلمي)

ثانيا: أَسَكَا وْبَلَاغْ : القريبة من تيزنيت بين الجبل والسهل. ومنها ينحدر القاضي (أولعوفي) رحمه الله وغيره من شرفاء إد برباق الزملاء، وحدثني الزميل الرئس محمد عز الدين المعيار الإريسي أن أسرته الإدريسية من هذه المنطقة.

ثالثا: تِغْمِي: المشهورة بأشجارها من التين على يسار طريق تافراوت.

رابعا: قرية المحجوب برسموكة : التي استقر بها سيدي علي الطاهر الفقيه الرسموكي الشهير بالعلم المتوارث أبا عن جد وبالخزانة الباذخة المتروكة إرثا للجميع بتيزنيت (المكتبة الوسائطية) وقيل لي إن بعضها ضاع بسبب مرض عضال لنجل سيدي علي الطاهر محمد أعلي رحمه الله.

خامسا: وِيجَّانْ: مستقر أحد أبناء الشيخ ماء العينين بعد الهزيمة المرة من قبل الاحتلال، واشتهرت بواديها ومياهها وأشجار الزيتون وغيره.

سادسا: تَدَّارْتْ: وهي علم على منطقة بعقيلية خصبة وإليها ينتسب الزميل آنف الذكر مولاي أحمد برباق حفظه الله.

سابعا: تَمّاشْتْ: القرية الأولى والمدرسة الأولى لسيدي عبد الله اليعقوب جد الأسرة الأدوزية، ومن أشهر أعلام البعقيليين سبعة أعلام، حررت تراجمهم وفيهم الصالحة البعقيلية، (مُوُّ أجبون) بقرية (إِغْبُولَا القريبة من تيزنيت) انظر (البعقيليون بمعلمة المغرب) وحديثا سيدي الحاج الحسن البعقيلي الفقيه المؤلف والصوفي البارز بالدار البيضاء أواسط القرن الماضي، (معلمة المغرب، بقلمي) ومنهم المطرب الشهير والشاعر الأمازيغي الرائد الحاج بلعيد، أول من أبدع في الفنون الشعرية الأمازيغية في القرن الماضي، وعرف على الصعيد الأمازيغي كله والمغربي والأوربي بتسجيلاته الأولى على أسطوانات الشركة الفرنسية الشهيرة (بيضافون) وبرحلته العجيبة إلى الحج ومناسكه الفقهية، وكان له إلمام بالكتابة والإبداع، وعقلت ليلة وأنا ابن خمس سنوات بساحة آيت بنوح التاريخية آثار الحطب والرماد، أمام منزل جدتي صباحا، حيث أقام ليلة تاريخية لأهل العوينة ولشيخها الحاج موسى ند طايفور وذهب موقور الأحمال بالزرع والضرع والزيت إلى تيزنيت، حيث اختار أحد أفراد أسرته اللاستقرار بها آخرا (انظر معلمة المغرب) واشتهر البعقيليون عامة وسط القبائل المحتفة بهم (إدا اوسملال، وإدا گارسموك) بشيء من الغفلة والكرم والشجاعة والإقبال على أمورهم بجد، وسلامة فطرة.

وقد حرف بعض الطلبة اسمهم على سبيل النكتة هكذا. (أبوا أن يعقلوا) إذا ما قورنوا بشطارة وفطنة وذكاء رسموكة وسملالة، وقد هاجر جدي الأعلى بسبب هذه الحروب المتبادلة بين القبائل إلى العوينة ولعل أسرته في ذلك كانت الأولى هجرة واستقر (بآيت البايك) وولد له الأبناء والبنات بها، ومن بينهم جدي الفقيه سيدي مبارك البعقيلي: (هكذا قيده العدل الثقة سيدي عبد الله الأدوزي في كناشته، حيث وقف على تاريخ وفاته قائلا: توفي الفقيه السيد مبارك (البعقيلي) ليلة الثلاثاء (27/

رجب 1350 هـ وهو يوافق 1931م) بحيث يكون والدي رحمه الله قد نيف على الثلاثين فيما أقدره الآن (انظر كناشة الفقيه العدل ص 59 رقم 119) كما عرف أخو الجد (ب سي بِهِي أبعقيل) وأخوه العم (سي الحسن أبعقيل) على ألسنة الناس آنذلك؛ فيكون من حسن حظ هذا الولد صاحب المذكرات، أن يولد من أسرة والده عبد الله البعقيلي وعمه المتوفى بفرنسا باكرا: محمد أُوْمبارك، وبلغ خبر موته إلى علم صاحب الكناشة شهر ربيع الثاني سنة (1347هـ - 1928م) قبل التحاق والدي أخيه الأكبر بفرنسا حوالي سنة (1937 م) (انظر كناشة الفقيه العدل ص 41 مخطوطة). أما عمي الثاني سي الحسن أبعقيل فذكر الصهر الأدوزي أنه توفي الجمعة 23 / جمادي الأولى سنة (1352 هـ - 1933 م) قبل ولادتي بنحو تسع سنوات، وترك عمي (أحمد الحسن أبعقيل) وعمتي (فاضمة الحسن أبعقيل) المتوفاة بمراكش أثناء وجودي بالعوينة وعمتي فاطمة الحسن أبعقيل.

وقد كانت فاضمة هذه زوجة لأحد فناني سوس (الرايس المختار) وكان الوالد يصل معها الرحم لما كنا بالدار البيضاء (1949- 1953) (انظر كناشة الفقيه العدل ص 46: عمود أخير) وكانت عمتي (الأخرى) فاطمة أبعقيل ملاصقة لدار الوالد ومصبحة علينا وممسية، وفيها من خصال البعقيليين من الانحياش والجد والصفاء والصراحة والقصد في الأمور، وبعض المعاملات مع الوالدة وبهذه الأخلاق التي كانت الوالدة لا تتحملها أحيانا فيكون منها رد الفعل إلى حين، ثم تسامح كعادتها وترجع المياه إلى مجاريها، وكانت تحبني من بعيد، وكنت أحس بها وبعزة نفسها، وهي زوج (محمد بن عبد المالك) أحد مؤذني المسجد الجامع، الذي كان يمر على دارنا ليلا ونهارا محافظا على أوقات الصلاة، ضابطا جادا كجدِّ عمتي أو أكثر متقشفا قنوعا عازفا كعزوفها رحمها الله، وقد سجل الصهر سيدي عبد الله في كناشته وفاتها

قال: (ماتت فاطمة به أبعقيل بمراكش يوم الإثنين 15 ربيع النبوي 1370 وهو يوافق 1950) وما أظنه إلا قاصدا (فاضمة الحسن أبعقيل) آنفة الذكر، والتي توفيت فعلا بمراكش في هذا التاريخ ونحن والوالد بالدار البيضاء، وقد كان الوالد يتردد على مراكش وعلى زوجها الرايس المختار قصد ترتيب تركتها بالعوينة وبيعها له جزءا من دار عمي أحمد أُحسن أخيها، كما تثبت ذلك بعض الوثائق الخاصة بالأسرة بحوزتي (قارن بكناشة الفقيه العدل ص 50 عمود 6 من أعلى) أما جدتي من الوالد (زَيْنَ نِدْ عمر) فكنا نلقبها نحن ومن ترحم عليها كالوالدة والجارات بِ (إِبَّا زَينَة نِدْ عُمَر) نَايْتَ بنُّوِحْ من الأسرة الساكنة قرب مسجد آيت بنوِح والمطلة على الوادي الصغير (تاسيفت) التي تلتقي على مرأى البصر بالوادي الكبير (أسيف أُوْ دودو) العظيم والمخترق للحد الفاصل بين بساتين العوينة على ضفته اليمنى، قريبا من قرية تِيكِيوْتْ المهدومة، وبين مساكن وأسوار وأبواب العوينة الجديدة.

ووشم في الذاكرة واللاشعور لم يندمل إلا بصعوبة

من بقايا الصراع القبلي وتنازع السلطة بين شيوخ اتحادية قرية العوينة انبثقت سلطة قبيلة (أيت تلمشت) أولى القبائل نزولا على الضفة اليسرى لوادي (أدودو) والتي نازعت آيت بنوِح، وقضت على الثائر من أحلافها والمسمى (بوحلايس) ورحَّلت آيت بنوِح من قريتهم الخربة إلى حيث هم الآن، يفصل بينهما (آيت البايك) آنفو الذكر فلا غرابة أن تسود في الآخير مشيخة هذه القبيلة، وتنسخ مشيخات وأعيانا كانوا في سياقها:

أولا: يذكر من بينهم الشيخ مسعود بن محمد بن علي التمنارتي المشار إلى ورود قبيلته إلى العوينة من تمنارت، وتساكنها مع بقية مكونات القرية الجديدة،

وكان عاصر القائد إبراهيم الكنتافي، لما أعطي هذا الآخير اخضاع سوس للسلطة المخزنية. ودار إدمسعود أدركناها على الضفة اليسرى للوادي مباشرة.

ثانيا: وكذلك الشيخ محمد بنهِمُّوشْ بآيت بنوح وكنت أمر عليه وأنا طفل قاصدا دار الوالدة بإداحماد فأقبل يده وهو ينظر إلي في تقطيبه وعبوسه وكأنه وتر وفقد ماضيا مجيدا كانت عليه داره المبنية بالمنجور والگايزة وقد أصبحت قبل الاستقلال محلا لأول مدرسة عصرية لاشتمالها على مرافق كان قد هجرها أبناؤه ومنهم عبد الله نِدْهِمُّوشْ صديق الوالد وكان يزوره من باريس إلى بروكسيل وكانت بينهما صحبة خاصة؛ وتمتد دار بن هموش لتشمل مرافق أخرى محتوية على جيران من قرابته المطلين على مسجد أيت بونوح وإلى جانب الباب التاريخي لدار بن هموش كان يسكن (أنفلوس عمي كوران) بكلابه السلوقية فيمنعان المرور عني وعن بقية الأطفال إلا في حذر شديد.

ثالثا: وممن تشيخ في آيت تلمشت إد أعبون، وقد أدركت كبيرهم عمر أعبون رجلا طوالا، صعب المراس، حاد البصر، كنا نخاف من المرور أمامه، وهو يتشبح خارج (تمزگدا) الجامع، رافضا الاستجابة للصلوات الخمس وربما لسلس كان يعانيه يمنعه من إمساك الوضوء، وعاصرت أحد أبنائه الأقوياء (محمد أُعمر) والذي كان يجمع بين الكتاب وبين مساعدة أسرته في الاهتمام بممتلكات الوالد هذا وكان يسأل عني ويصل الأسرة مرات ومرات وكان له أخ صغير يلقب ب (أَضَرْضُورْ نِدْ عبون) قد حبب إليه هذا المسجد الجامع، ولا يزال من شدة نشاطه وكثرة حركاته وتحركاته بالمحاضر والجلاس وجرأته على الصعود إلى حافة بئر المتوضا والتعلق بسانيته وحباله! محدثارغم بكمه من الضجيج ما جعل الآخرين يستأنسون به ويتخذونه أحدوثة يومهم، إلى أن حل به القدر، فتدلى مرة إلى البئر، ولم يتمكن الحاضرون من

إخراجه إلا بعد أن شرق وغص بمائه البارد الغزير، وظلمته المخيفة، وعمقه البعيد الغور رحمه الله؛ أما والده عمر أعيون، والذي كان من أعيان العوينة هذا فقد اشتهر بالتصاقه بالمسجد الجامع هجيراه فارضا نفسه على الجلاس والمارة ومذكرا لهم بماضيه المجيد وحاضره المتوسط، وقد وصف ب (العين المصيبة) فلا يكاد يتكلم في أحدهم إلا أصيب لفوره، فكنا نحن أطفال الكُتَّابِ! نتجنب المرور بين يديه حتى لا يتناولنا بلسانه، كما كان المارة إلى الوادي ومنه يتوقون المرور أمامه إلا مع تعوذات بالله من إصابته لهم، أو إصابة بعض مواشيهم، وكان بصره يمتد بعيدا ليسأل عن الصاعد والنازل في إحدى عقبات البساتين البعيدة نسبيا، فربما أصيب أحدهم أثناء قطع هذه العقبات بسقطة أو انجرار فينسب ذلك فورا إلى عمي عمر أعيون الجاثم المرتمي على دكات السقيفة هجيراه لا يكاد يغادرها حتى للصلاة التي كان يقاطعها دون سائر جلاس دكات المسجد لا يتخلف أحد منهم، وإلا فالويل له من ضربات الفقيه الطالب سيدي علي الشبيه بالأسد الهصور في طلعته ونظراته وهجومه على المستهينين بالجماعة بعد سماعهم دقاته على دفة المصلى ثلاثا!!! رحم الله الجميع وغفرلهم. وكان جريئو المحاضر أحيانا يتحرشون به منبهين إياه إلى الصلاة فينهاهم ويتبعهم باللعنات ويقشبهم بسوء! فيتقون لسانه كما يتقون نظراته رحمه الله .

رابعا: ومن شيوخ القرية الصغار المسمى ب (أمغار إيزلا) وإيزلا عبارة عن مدشر صغير منقطع عن معظم القرية بالوادي على الضفة اليمنى حل به من غرباء القبائل وبعض المهاجرين من سملالة وغيرها وبه مسجد يقال إنه أول مسجد جامع بني في العوينة وأقدم المساجد الثلاثة بها وكان خاليا أزوره للتعرف وأجول في مرافقه متعجبا من صنع البنائين بمرافقه المهجورة تقريبا إلا من إمام يقضي معظم أوقاته بالمسجد الجامع في أيت البايك وله به حانوت للخياطة وعرض المحاضر الأسوار

عليه هو سي أحمد الحسين الآتي ذكره. وكانت إحدى خالتي قد حببت إلي هذا المدشر فكنت أشد الرحلة وأقتحم عقبة (أزلا) الخشنة الملتمس والمزلقة الصعود للوصول إلى منزلها بين التواءات وعقبات أتحداها حذرا! إلى أن أغشى دارها الآمنة فأجد بين أحضانها كثيرا من الترحيب والفرح! وكانت رغم كبر سنها بيضاء البشرة دائمة البشر محافظة على زينتها وتفاؤلها رغم تقدم سن زوجها أحمد أوفارس رحمه الله، وكنت أجد في نجليها المحمْد والحسين وإحدى بناتها (إِجُّو نِدْ فَارْسْ) كثيرا من الود والإشعار بالقرابة والرحم وأُطعَمُ عندهم من منتوج الساقية وبساتينها كل باكورة! لقربهم من الحقول والبحائر والفواكه، وكان خالي المحمد هذا من فتيان القرية المتشيطنين الأذكياء السريعي البديهة! فاتصل بأبناء أخ الشيخ موسى نِدْ طَايْفُورْ آنف الذكر، وكوَّنا عصابة قوية الوقع لا تهاب أحدا غلبت عليها السخرية وتقليد أصوات الحيوانات ليلا، فكانت تحدث في سكون ليل العوينة وظلمة أزقتها وساحتها جلبة وضوضاء، وربما دقت بعض أبواب الساكنة وأيقظت بعض أهلها، واختلطت بكلابها في معركة ضاجة لاجة يقُفُّ[1] لها شعر الصبيان في أحضان أمهاتهم، ورغم هذه (الشيطنة) فقد استطاعت هذه العصابة أن تحدث في القرية نوعا من إزالة الهيبة عن الشيخ موسى الآتي الذكر، وتَحَدَّتْ فيما بعد نفُوذَهُ قبيل الاستقلال، فكانت أول من أقام حفلا في القرية بمناسبة عيد العرش متحدية بقايا نفوذ الشيخ موسى نِدْ طايفور وسطوته وقبضته التي لا يفلت منها إلا الأذكياء، وكان من بين المتحدين المحتفلين خالي (محمد نِدْ عَبْدْ) آنف الذكر، ووالدي رحمهما الله وهما ممن رفع شعار العصيان الهادئ فيما بعد، واستطاعا أن يكيلا للشيخ موسى الصاع صاعين، كما سيأتي، ورغم هذه الشيطنة من خالي (محمد نِدْ فَارْسْ) فقد كان صهري سيدي عبد

---

[1] قَفَّ الشعر يقُف بالضم إذا انتصب من الفزع (محيط المحيط ق ف ف).

الله الأدوزي يقربه ويستعين بذكائه ونشاطه في قسمة التركات لصلة بين إِذْ مماد والأدوزيين سببها المصاهرة، وأمغار إيزلا آنف الذكر أدركنا نجله المحضار المحفوظ أومغار إيزلا وحدثني الزميل محمد أبت أن المحضار المحفوظ أومغار إيزلا كان هاجر إلى فرنسا بعد أن حصل معنا شيئا من القرآن فتعاطى عدة مهن إلى أن استقر على مهنة مذرة للمال حيث كان يحضر في سوق المصادرة وشراء المتاع المصادر ثم إعادة بيعه فجاءنا مرة بسيارة مرسيدس لا نظير لها في المغرب فأغراه كبير تيزنيت بالبيع فامتنع.

خامسا: ولعل أقوى شيخ أدركته. وقد استسلم أهل العوينة بأجمعهم له وألقوا مقاليدهم إليه بعد شد وجذب ومغالبات! الشيخ موسى بن الطيفور، وهو الشيخ الفارس المقدام والفتى الممشوق القوام الطويل النجاد الرفيع العماد المتمتع بجمال الصورة وبياض البشرة، وزرقة العينين يشع فيهما الذكاء، وبحلاوة لسان ممزوجة بنبرات فيها شموخ السلطة، وقد أخفى حقيقته تحت ألفاظ سريعة وأوامر وجيزة واختصار وإيجاز! لا تكاد يمناه تلمس المسلم عليه إلا ويسحبها منه ببراعة المهاب من قِبَل الصغير والكبير، والذي لا تكاد تتنبأ بردود أفعاله أو أسئلته أو أوامره، والذي عرك أحداث قبائل المنطقة ومعاركها قبيل الاستقلال، وسافر إلى مراكش وسطات واجتاز جبال الأطلس بالجلب[1] من المواشي والأنعام وباع واشترى وجلب الخيول ولقحها ودافع عن القافلة في الشعاب والأنهار والثنايا والجبال، قبل توليه مشيخة العوينة وبعدها، وهو الشيخ موسى ابن الطايفور المولود نحو (1308هـ/ 1890م) وكان عمه العربي ابن الطيفور قد تعرض في حرب بين أهل العوينة وآيت إبراييم سنة (1367هـ/ 1948 م) وكانت له صلة واتصال بالمولى الحسن الأول، وقد وفد إليه لما كان بمراكش! ويرتفع نسبهما إلى الجد موسى بن سيار صاحب القبة

[1] الجلب من المواشي وغيرها ما جلب للتجارة.

المقامة على مشهده بقرية (أَنْسِّيسْ) من الأطلس الصغير، وقد وجد الشيخ موسى نفسه المؤهل الأول لقيادة أهل العوينة، وذلك قبيل وصول الحماية الفرنسية إلى تيزنيت، فخبرته الحماية فوجدته أهلا لرئاسة هذه القرية القريبة المسافة والشبه بمدينة تيزنيت والتي تعتبر حديقتها الخلفية ومزودها الأول بالفرسان الأشداء والخيل المسومة أيام الاحتفالات التشريفية وغيرها، والمنتج الأول للخضر وخاصة الجزر واللفت وأصناف القثاء وغيرها من منتجات البيض والسمن والدجاج والفواكه وأنواع التين الممتاز فكان ربما إلتجأ إليها أيام المسغبات من أوزاع القبائل ألفاف من الخلق طلبا للقوت.

وكانت بساتينها وغلاتها وثمارها أيام المجاعات مهوى لأفئدة القبائل التي تشعر بالمعاناة من حولها كأيت برابيم الملاصقة لأهل العوينة من الجنوب وغيرهم من مستبضعي الخضر والفواكه والإدامات والبيض والدجاج القادمين من تيزنيت والقريبين جدا من العوينة وتلك البساتين والأشجار والزروع والثمار والعين الجارية الدائمة الانهمار. ولذلك تأتى لحكام تيزنيت أن يجدوا فيها وفي الشيخ موسى وكذا موظفوها السامون وخدام القصر الخليفي الحسني وتجار العطور من يهود تيزنيت؛ المسرح والمستراح والمنتجع الأول، كما وجدوا في الشيخ موسى ذلك الكريم المضياف والفارس الفتى! ذا الخصال الحميدة، والتقاليد المخزنية المورثة أبا عن جد بداره المتوسطة الموقع بآيت تلمشت، ذات القباب والمرافق الشبيهة بقباب مراكش، وكانت سقوفها مختلفة عن سقوف سائر القرية زينة وتغطية بما يسمى (سقف السماء) كما يتحدث عن ذلك أستاذنا محمد المختار رحمه الله في إحدى زياراته لابنة خالته والدة زوجتي للا ربيعة عثمان! حيث انتقل من دارها وضيافتها المميزة في سوس كما يروي في رحلاته (خلال جزولة) إلى ضيافة هذا الشيخ في مأدبة حافلة ضمت أطعمة متنوعة حضرية حقيقة لا مجازا في قبة مراكشية مسقفة بسقف السماء، ومفروشة بالحشايا اللينة والوثائر والمخدات العالية الفاخرة في دار فخمة أنيقة يستوقف جمالها

الأنظار ويخلب الأفكار (خلال جزولة 4/ 31 – 32) وذلك بمعية الصهر المذكور ومعه والد لَلاَّ ربيعة المشار إليه (سيدي عثمان بن أحمد الأگراري) الفقيه الصالح وصهر الأدوزي عبد الله، وجد زوجتي خديجة، فكان هذا الفقيه زينة مجلسهم، وهو في نحو الثالثة والثمانين، وقد تكلف المجيء راكبا من مسكنه بنحو سبع كلم (خلال جزولة 4/ 32) وكان الشيخ موسى هذا وسيدي عبلا صهري فيما بعد، قد تمكنا من إعادة هيكلة قرية العوينة بتنظيم أمورها العامة والخاصة: الأول بنفوذه واستعانته بمساعدات مسؤولي الحماية المخلصين له الود والمساعدة في كل شيء، وبما استطاع أن ينميه من ثروات حيوانية كالجمال المرعية والبقر المعتنى به وفي وسطها البقرة الهولندية القبطانية الفياضة بالألبان والسمن والمهداة له من قبل القبطان الحاكم الفرنسي بتيزنيت، فكانت قدور مطبخه لا تنطفئ فيها النار، وكانت المطاحن والأرحية في زريبته دائرة لا تتوقف عن الحركة، والعاجنات الخابزات يشمرن عن سواعدهن لإعداد الأخباز من القمح النادر والشعير الوفير وإذابة الزبد المتوفر من الأغنام والجمال، وكانت الماخضات يمخضن القرب الموقورة بالألبان صباح مساء والشارون للعسل في مناحله بسيدي سعيد وبقربه غابة الأزهار والأعشاب في شرقي الوادي وهكذا.

أما سيدي عبلا الأدوزي فكان يقوم بتنظيم المجال الأرضي بالتدخل في قسمة التركات، وفض النزاع، ووضع الحدود وإقامة الشريعة: من أمور الأنكحة والبيوعات والتبرعات والرهون، وتسجيل ما جرت به أحداث القرية وولاداتها ووفياتها في كنانيش لا تزال الأسرة تحتفظ بها إلى اليوم صحبة أخيه سيدي إبراهيم العدل بنظارة تيزنيت، ذي الخط الجميل الوثائقي الواضح[1] كأخيه سيدي عبلا رحمهم الله، وكان من حسنات هذا الشيخ على القرية ونحن في الكُتَّاب، أنه كان يستضيفنا ليلة

---

[1] في خزانتي مخطوطة من صورة هذا الكناش من تلخيص الزميل الصهر المرحوم الأدوزي عبد الرحمان، رحمه الله. (وانظر نماذج من خطوطهما في الملحق آخر المذكرات.)

القدر فطورا وعشاء وسحورا! فنملأ أرجاء داره الواسعة بالأحزاب والصلوات، ونأكل من أطعمته الحضرية كل ما يقدم إلينا! فلا نكاد نغادر إلا ونحن متخمون مسهلون من أثر ذلك.

كما كان من حسناته أيضا أنه لم يكن يترك أحدا من القبائل وجيران العوينة، يحدث نفسه بالجرأة على حدود العوينة ومسارحها وأشجارها وسهولها وسهوبها ومراعيها إلا بإذنه، وحتى أعراب الصحراء آنذاك كما يقال لهم كانوا يتفاوضون معه قبل الإذن لهم بنشر مواشيهم وإبلهم في سهوب القرية وما حولها، في مفاوضات مطولة تنتهي غالبا باتفاق، ومثل ذلك في منازعات تقسيم عين العوينة مع عين أهل أگلو آنفة الذكر، وكذا ما أحدثه أحد (الْإِبْرَاِئِمِيّينَ) من حفر بئر عميق، أثرت فيما يظهر على نسبة مياه العين، فدخل أهل العوينة معه في نزاع لم يستطع أحد أن يفصل فيه، إلا بعد تدخل الحاج موسى نِدْ طايفور ليوقف (بكَار) المزود بماض مَجِيد في خدمة فرنسا وبنفوذ قوي أيضا.

وقد امتحن الحاج موسى رحمه الله رغم ذلك بشباب من فتوات العوينة، ومنهم ابن أخيه محمد الحاج المحفوظ الشاب الذي كان يفتخر به عمه الحاج موسى، والذي لم يعقب ولم يرزق إلا بنتا آخر عمره فيما يذكر لي، وكانت لالة فاطمة الحاج ابنة أخيه المحفوظ صديقة الوالدة والتي تعتبر رابعة النساء المضروب بهن المثل في الشرف والفتوة والشباب والجاذبية وقوة الشخصية وحب المغامرة عند بعضهن، ويذكر من بينهن في السمعة والشهرة على صعيد العوينة كلها فاضمة گوتبان والسيدة يامنة بلال والسيدة فاضمة ندبلال وخالتي السيدة زينة ندفارس وحماتي لالة ربيعة عثمان المتميزة بكرم النسب والحسب والضيوف والضيفات لا تخزن عنهم شيئا إلا أخرجته وغيرهن من بنات ادگمانوز، وقد استطاع محمد الحاج بسبب هذه الدالة أن يفرض على عمه مجموعة من الفتوات الأقوياء ينازعونه أمورا من القرية وفي مقدمهم خالي (مُحمْد نِدْ

فارس) آنف الذكر ومعهما من أقيان الحدادة المختصين بإعداد محاريثها وأقفالها وأكبالها ومفاتيحها المرحوم (الحسين ند وَهيم) وأخوه (علي ند وَهيم)! وكان الأول خفيف الظل من الفتوات بينما كان عليٌّ هذا ثقيل الظل والوقع، وربما آذاني ذات مرة فهدده الوالد بالشكوى إلى الحاج موسى هذا فنال منه أي منال! رحم الله الجميع، ومن المتضامنين مع (الحاج محمد ند طايفور) في مشاكسة عمه الحاج موسى! خالي (محمد ندعابد) زوج الوالدة الثاني آنف الذكر، وكان في الظاهر يخدم عَمِّي موسى، كما يقول، ولكنه كان يحصي عليه الأنفاس، ويترصد تجاوزاته وشططه في السلطة إلى حين! وقد أدركت الحاج موسى بعد ذهاب نفوذه المادي وقد استطاع أن يسترجع بكرمه وتدخلاته لصالح أهل القرية مكانته، فكان يقيم المهرجانات احتفالا ببعض زعماء الأمازيغية الكبار، ويدعوهم إلى دارته، وكان ممن شرفه بحضوره الزعيم الأمازيغي الوطني المحجوب أحرضان، وكان ينتهز فرصة زيارتي وأنا طالب بمراكش، ومعلم فيما بعد ليدعوني إلى مناسبات عديدة، واستمرت زيارتي له إلى آخر أيامه رحمه الله، وذلك صحبة زملائي أبوَاتي عبد الله وأخيه محمد والقاضي مولاي الحسن بلخنفار والحاج العمري وصهري الحسن احماد الأدوزي وغيرهم من تلامذة الطالب سيدي علي أبت آيت الهماني، وقد ألفنا عند زيارة العوينة أن نمسيه ليلا فلما دققنا الباب في الزيارة الأخيرة خرجت لنا زوجه (إبا يامنة) بعد ضعف بصرها وكبر سنها وخدمتها ليل نهار في إعداد موائد الشيخ التي لا تنقطع فنادت من وراء الباب آسيادي أين من يفتح لكم ويعد لكم الطعام والشراب وأنا على هذه الحال وزوجي الحاج موسى مقعد من أثر الشيخوخة وحكى لي الصهر المذكور أننا زرناه بآخر عمره فضرب بيده فجيء بالصينية وكؤوس البلار فلما أفرغ الزميل أبوتي عبد الله خلاصة الشاي للتنقية قال: لا أرى لون هذه الصبابة في الكأس البلوري الملون فصفق الحاج موسى فرفعت الصينية وأُتي بأخرى ذات كؤوس رخيصة الثمن دون تعليق منه.

٦

لوحات فنية عن جمال طبيعة سوس
التي اكتحلت بها عيناي في الطفولة

وأنتقل بالقارئ إلى لوحة بهيجة ورحلة لي وللوالدة خلال جبال جزولة تخفيفا عن النفس وعن القارئ الذي يعيش معي هذه الأحداث سواء أكان ممن عاصرها أو سمع عنها أو عاش فيها معي من أصدقاء الطفولة المشار إليهم في هذه الذكريات:

وكان ذلك في زيارة خاطفة لصلة الرحم لأخوالي السعيديين ب (إمجاض نتزلمي) عبر الأطلس الصغير وعقبة أفود وجمعة إدأوسملال وخميس آيت وفقا وَدُّو أُوْگادير إيلغ، في نظرات في جمال الطبيعة والأناسي خلال جبال جزولة وسوس عامة، وعند أسرة ابن العربي الأدوزي خاصة.



منظر عام لقرية دوگادير إِلْغ

ويسر صاحب هذه الذكريات واللوحات الموسومة بعبق أزيجها وبنسائم سهول وجبال وأودية سوس العطرات، وبماضيها الموغل في القدم السابق جبالا وتكوينات على الأطلس الشامخ ذي القمم الدانية! أن يستحضر إلى أبصاركم بهذه البلدة المحاطة بالجبال والشلالات من بعض ما تبقى في ذاكرته ومحفوظاته ومسموعاته من طفولة ومراهقة عاشها بعرصات سوس قبل استقلال المغرب، حيث لا تزال أرضا بكرا ولم تطأ أقدام الاحتلال ساحتها إلا قبيل ولادته بسنوات! وفي وسط بلدة محاطة بالأسوار مطلة على الأنهار والمياه والأشجار مكتنفة بذيل من ذيول الأطلس الصغير المطوق لأمواج المحيط عند شاطئ (سيدي وگاگ) تهب عليها تارة السحب ورذاذها، وأخرى تلقحها رياح الجنوب بلفحاتها وهي قرية (عوينة إدأوبلال) الأشداء الرحل المنبطين لهذه العين فيما يقال؛ وهو من والدة هي الفتوة والجمال بعينها من قرابة سيدي عبد الله بن سعيد المرابط الثوي بقرية (تارسواط) عند (أمانوز) الضاربة في الجمال والكرم والذكاء! وكأن رجالها ونساءها من قارة أوروبية السمات والشيات والطبع، وفي طلعة الوزير بوفتاس الحاج عبد الله وأسرته كل برهان، وقد احتل أجدادها جزءا من قرية (إلغ) بلدة نسيبها محمد المختار رحمه الله في هدوء مظهر ومن والد بعقيلي سملالي من ربى أدوز بلدة الفتى الأول في عصره بسوس جمالا وكمالا، وبنات وحفيدات وأبناء محمد بن العربي الأدوزي (ت. 1323 هـ / 1905 م) والمنتمية إليه من جهة والدتها الأدوزية زوجتي (للاخديجة عبد الله) وعلى غلوتي ربوة مطلة على (وادي أدودو) ودار الأدوزيين العُوَينيين أصهاري لم أر قمرا أجمل من قمر ساحتهم ولا سهولا أعبق من أزهار سهولهم ولا مآدب أشهر وأحلى من مآدب حماتي (للا ربيعة عثمان الأگرارية الرفاگية) حفيدة ابن العربي المشار إليه.

وهكذا التقط هذا الطفل بعدسته الصافية مناظر سوس وسهل تيزنيت ذات السيط العالي في الجمال والحضارة والعلم والفنون منذ أنشأها مولاي الحسن الأول

رحمه الله (1836 - 1894) والأسطورة الميثولوجية عن أصولها العابقة بأريج الإغراء والإغواء واللذة وحلاوة العيش وبلهنيته إلى اليوم، فيما ينقل على الألسنة عن صاحبتها الأميرة الأمازيغية زمن الفاتحين الأولين للمغرب (الأميرة تيزنيت وقد يقال بالسين[1]) فتوحي إيقاعاتها تارة بالزين المشتقة منه هذه الكلمة الأمازيغية وأخرى بمعنى صخرة منبع العين الزرقاء بها، وتارة بضرع البقرة الحلوب (طيزي نيط) وهذه المعاني كلها توحي بالنماء والخصب والجمال والخير، وتلك صفات أصبغت على المدينة إلى اليوم طابعا سياحيا مميزا وجوا صحيا صافيا وبلهنية في العيش والموارد والمصادر تميزت بها هذه المدينة التي كانت أول مدينة اكتحلت بجمالها عين هذا الطفل الدارج في الكُتَّابِ النموذجي في قرية العوينة[2] ذي المرافق المتحضرة في الشكل والمضمون واللمسات الجمالية الخارقة بحمَّام ساخن وأمواه ميضأته الدافئة وسقيفته الخارجية للأضياف والتجار اليهود غالبا، وحظيرته الواسعة للدواب والعلف واختلاء المحاضر عند الحاجة، ومقصورته البارزة إلى الخارج وسقوف مسجده الملونة بألوان قوس قزح ومدخله ذي الدكات المضروبة بالجير المخمر، وصحن مسجده الخارجي المجصص الصالح للألعاب والاستراحة والتحفيظ وإقامة المآدب والزردات، وبيوت طلابه ذات الطوابق المطلة من الخلف على الحديقة السفلى، وجمال سطوحه المجصصة بالجبس والجير الصالحة للألعاب وقراءة حزب المساء وإقامة التسميع للنساء من خلال فتحات مناره، والكل مطل على وادي أدُودُو المتوحش في فيضانه وعلى آلاف أشجار الزيتون والفواكه، ويتوسط المنظر كله حديقة الشيخ موسى نِدْطَّايفُورْ الفارس الفتى المضياف الضارب في الحضارة والمخزنية بسهم، وقد جلب له الوالد من مراكش أشجارا وأعشابا صالحة للشاي ولأول مرة بسوس، وخاصة شجيرة

---

[1] منشورات جامعة ابن زهر كلية الأدب والعلوم الإنسانية أگادير ط- 13- 30 بحث لأحمد بومزكو بندوة مدينة تزنيت وباديتها 2 / 189 / وقارن بخلال جزولة 1996.

[2] راجع ما كتبه عنها محمد المختار السوسي في خلال جزولة الأجزاء 3/ 4/ 5 .

(العطرشة أو رجل الغراب) وأشجارا من البرتقال وتطعم الليمون الأترجي السوسي الشهير بالبرتقال المراكشي، فأعطت الشجرة برتقالا هو في غاية الحلاوة والسكرية يهدي منه الشيخ رحمه الله للخاصة.

ونحن نسمع تفجيرات (الديناميت) فرحين مشدوهين بهذا الاختراع، ونشم لأول مرة روائح البارود في طفولتنا المندهشة بكل جديد، ونتذوق حليب البقرة (القبطانية) الهولندية المورد! تميز بها الشيخ موسى وصهري (العدل) مؤرخ القرية (سيدي عبلا الأدوزي) وكانت (إبًّا هرو المجاطية) اللاجئة إلى حمى الصهر! ترعاها خاصة وتقرأ عليها (العزائم) خوفا من عيون بقرات القرية البلدية العجفاء، إذا قورنت بهذه القبطانية الغربية !!؟؟؟ ومن نتائج هذا التميز أن صهري وحماتي للاربيعة لم يخل يوما بيتهما من حليب أو لبن أو لبإ. وبعيدا عن تيزنيت بمرحلة تظهر لنا قرية العلم والجمال والضيافة والكرم والجو الربيعي الخارق (أدوز) بماضيها الخصب وحاضرها الممثل لبقية من ذلك الماضي العريق، وقد شيد بها أحفاد الشيخ سيدي عبد الله يعقوب (ت 1058هـ) المدرسة الأدوزية العتيقة حسا ومضمونا، والشهيرة بصناعة التآليف وتسفير الكتب من أثر تعاطي فقهائها أحفاد الشيخ لفنون التدريس والتسفير والحرث والبناء والتزويق والنجارة والفتوى والتوثيق والقضاء والحكامة والصلح بين الناس، حتى بلغت مؤلفاتهم نحو السبعين في مختلف الفنون، وأصبحت كتبهم مقررات تُدرس في مدارس سوس وغيرها إلى اليوم وخاصة (أيسر الممالك إلى ألفية ابن مالك) زبدة ما قيل في النحو من منظوم ومنثور، وخلاصة أفانين، وفنون القول عبر العصور وهو في تسفير أدوزي مذهب الحواشي غاية في الجمال[1].

---

(1) انظرالخزانة الخاصة للعلامة محمد الأدوزي.

وقد تميز من بين علماء أدوز الفتى الأول همة وحضارة وأدبا وكرما وجمالا وأناقة وإطعاما وتنشئة للأبناء والبنات والطلاب والمريدين (محمد بن العربي الأدوزي) آنف الذكر.

وفي الحنين إلى بلدة المختار (إلغ) وبلدة جد صهري أَدُوزْ وبلدة والدتي (إمجاض نتزلمي) وإلى (تيزنيت) ومسقط الرأس (العوينة) أقول عن رحلتي إلى هذه الناحية بعنوان (خلال جزولة) في فترة لا تتجاوز بداية المراهقة.

خلال جزولة

نماني إلى جزولة خير والد   ووالدة تدنو إلى إلغ مختار

نماني إلى سملالة خير والد   ووالدة تسمو إلى إِلْغِ أبرار

نماني إلى بَعقيلةٍ خير والد   ووالدة من إِلْغِ بلدة أخيار

وصهر إلى أدوز مَعْقدُ أصله   وَحَلَّ بقرية العوينة كالدار

فصرت أحن في الطفولة باكرا   إلى ذي الْجِبال في استقاء لأخبار

إلى أن أتى يوم تبارك شأنه   ودعوة خال لِي بعزم وإصرار

فسافرت من تيزنيت بورك ماؤها   وَعَيْنٌ بِها زرقا صفاء كبلار

ووالدة لي فِي الركاب ودمعها   غزير وشوقها اسْتَحَرَّ لِتَسْيَارِ[1]

طوينا سهولا من حصى وترابُها   قد أحمر من جَرَّا اشتياق لأمطار

ولما قطعنا وادي وِجَّانَ في الضحى   تبدى لنا ما اخضر من جنب أنهار

فَذَكَّرنا عهد العوينة والذي   بِها من مياهها وكثرة أشجار

ووادي أَدُودُو شَقَّهَا في اجتياحه   بطمي الْجِبال والسهول كجرار

وها نَحن في (أَفود) نصعد في جهد   حثيث مع السير البطيء بأسفار

نسير بجنب الأطلس الصعب في التوا   وحط وتصعيد ودفع لدوار[2]

إلى أن تطلعنا بشوق إلى (تِغْمِي)   قد اخضر من أرجائها كل مدرار

---

(1) تسيار بفتح التاء كتذكار وتسآل وكلمات أخر معها.

(2) ما يصيب المسافر في الجبل والبحر من الدوخة والشعور بالغشيان والقيء جراء الخض والشمس إذا اقترنا.

وفي جـامع لأهـل (سَـمْلالةٍ) حطـت   ركاب لنـــا أهـــلا بشـــهرة ذي الدار
ولم نرتَّجـل إلا (بأيـت وَافْـــقَا) ومـا   يزال علينا السـير حَثّـــاً إلى السـاري[1]
مـــرورا بــأرض (إلــغ) بــلدة مُختــــار   وآل الســعدي جــدنا دون إنكـــار
وبَغْلَتُنا حطت بنــا السـير خـوف مـا   يَحل بِجـوف الليــل مــن فعــل أشرار
إلى أن حططنــا الرحــل وســط قبيلــة   هنــاك وهــذا العــم فــوجئ بالطــاري
فـــقام بتقـــديم القــــرى بذبيحـــة   بليلـــة قـــرٍّ دون ســـحب وإمطـــار
قضـــينا بِهـــا يومـــا ويومـــا وثالثـــا   ورابـــع يـــوم ليلـــه ليـــل أخبـــار
على بـــــغلة له سرينـــــا لرجعـــــة   قطعنـــا بِهـــا قفـــرا وظلمـــة ســـمار
تَحُـث الخُطــا بنــا بعــزم ومــا نــرى   بِها غيــر شخصــينا خــلاء بأقفــار[2]
وغـــير نباتـــات الحُلَيْفَـــةِ غطيـــت   ببعض بيــاض الثلــج أو بعــض أشــجار
وغــير عُــواء الذئــب يــأنس عمنــا   بـــه مـتـــــوقيا لإنـــس وعـــمـار
فـــــطورا أُراني راكبـــــا متوقـــــيا   بـــرودة أقـــدامي بتحريـــك أوتـــاري
وأخـــرى أســـابق الطريـــق بِخطـــوة   تـعـــــثر ســـيرها بصـــدمة أحجـــار
ووالدة لي صابـــــرت وتـــــذكرت   طفولتهـــا والـجــــد حمـــال أوزار
على عاتـــق له تـــحط عجانهـــا   وهذي ضباع الليل خلف الفـتى الـواري
تحــدى الســعيديُّ الضــباع وســنه   قد أضحكها صنع الضـباغ بـأغرار
وهـــا نـــحن قـــد نعيـــد قصـــة والد   لَهَـــا فــــِي طفـــولة بـــليل وزوار

(1) إشارة إلى نحو قوله تعالى (والليل إذا يسري).
(2) جمع قفر المفازة لا ماء فيها ولا نبات.

إلى أن حمانا الرب بالشمس أطلعت لنا من ذؤابات لَهَا بعد إسفار
ولَمَّا وصلنا جامعا لقبيلة بسملالةٍ لَهَا هنا كل إكبار
هناك حططنا الرحل واخضر عُودُنا وأنبت حبا للقبيلة والدار
وها أنا في حضن الجزولي سليمان وآل الجْزولي من عَلٍ دارِ أبرار
ومِنْ بُعُدٍ تَبْدُو (إِيلِيغُ) وشانها كبير بأحفاد ابن موسى الفتى الساري
له بمراكش مقام وأتباع له بِها شيخ خاره خير مختار
شريفان من جزولة طال مجدهم بسوس أقاصيا لَهم حسن تذكار
وثالثهم أخ الجْزولي أبو بكر ضَجِيعٌ (بِتِيمُولاَيَ) بلدة أخيار
قد اختارهم رب الأنام لقومهم وللغرب والشرق القصي بين أغيار
بهم خَمَّرَتْ يوما عجينةَ خبزها رؤوم من الأمات في حضن أقمار
فأضحت جزولة لَهم برجالها ونسوتِها محبوبة عند سمار
سجلهم اليوم الْمَلِيءُ مَنَاقبا توَزَّعَ ندوات وكتبا لأخيار
لَهم بِمراكشٍ حفيد ومثله وأعلام فكر معْ وَلِيّ وأحبار
إليهم نَمَى الرحالي الكوشي الذي بقرية أَنْمَّايْ فعلا لأحرار
وأحفادُه وعالمٌ متفصح حَمُّومِيُّ نِسبةٍ رَحَّالِي آثَار
ومعْهم على الركب الكبير مؤرخ وصاحب إعلام وتدبيج أسطار
وصاحبنا الشريف إدريسي العلا رجال مؤطإ له خير معيار

تضوَّع عطرهم بشرق ومغرب ... بِكُتْبٍ وألواح لأرضٍ ودَوَّار[1]

تُوافق في مضمونِها شرع قرآن ... بإشراف علال وتَمحيص مسبار

بدار الْحديث نوقشت وبأوقاف ... تنضَّدَ حرفها بتوفيق حرار

صناعته مثل الْحرير وحبره ... خياطة سلهام الإمام كذا القاري

وللواعظ المشدوه بالشرق ناسيا ... أصالة مغرب بتذكير أغمار

وللخطباء قد يكون أصابَهم ... حنين إلى وعظ من الْخطب الوارى

وللتابعين من أفارقةٍ غدت ... بلاد لَهم مفتونة بشظى النار

وللشعب ينفخ الشيوخ أَتُونَهم ... لِيُشْغَب بالْخلاف في مَحض إنكار

تصدى قويا للخلاف وشأنه ... مُحمدٌ يَيِّسفٌ مُحمد أحبار

ومَعْه من الأخيار كل مُعَلَّم ... تَحدوا من الإعصار هبة مدرار

يقيمون ندوة الْجُزُولِيِّ مِشْعلا ... هنا وهناك فِي التفاتة أخيار

ومعْهم جَماعة الجزولي وباحث ... نزيه وناظر بعطف وإكبار

قد انفك من نُزُوعِ موجة تابع ... ومُسْتَحْمَرٍ يبغي شفوفا لأغمار

ولَم تثنه دُرَيْهِمَاتٌ ومطعم ... من السم في زق من العسل الشاري[2]

له اللّه كم تعلو عليه انتقادة ... وتُهمة تبديع وتضليل ذي الدار

هم الغَدُ صخرة الْمغارب لاتني ... تصد من أوعال لَهم كل خوار

---

(1) الدوار من أصل عربي للخيام الدائرية الشكل، ثم اطلق على كل مجمع سكني أولي وهي عامية فصيحة الجذور والأصول.

(2) فاعل بمعنى مفعول من شرى العسل قطعه من الجبح.

إلى أن يُصــِرَّ المغـرب اليــوم في رضى ... بإبـــداعه وعـلمـــه كـُـلَّ إصرار
بتشـــجيع مالـــك همـــام محمـــد ... خليفـــة جـــده جديـــر بـــأقدار
تَحملهـــا فـــتى وكهـــلا ومثلهـــا ... له اليــوم شـــأن في عـــوالِم أخبـــار
أتـــتكم نـــدوة الجْـــزولي مـــوردا ... من الدفـع للأعـداء والفتـك بالضـاري
كما كـان تابوت له مثل مـن مضـى ... سكيـــنة أخيـــار هزيـمـــة أشرار
بـــه وبـمثـــله وجـــيشٍ مشـــمر ... من أهل الدليل والتسـابيح والقـاري
تَـــعهدهم منـــدوب فعـــل وموقـــف ... وأصل وتصـــريف وقـدر ومـــقدار
وشـــوقي إلى شـــوقي مقـــيمٌ حقيقـــة ... مُحـــقق أسـفار ومنجـــز آثـــار
ودعـــوتنا للخـــل عبـــاسيَّ الْهـــوى ... تـــطهره مـــن كل ســـقم وأوضـــار
ومن لم إذا لم أُسْـمِهِمْ طـال عمـرهم ... يزينون ذا الفضـاء في حسـن أنظـار
وقـد كرَّمـوا شخصـا عزيـزا مقامُـه ... له بالْحجـاز مرقـد الـولي الـواري[1]
ومَعْـــه مُحمـــد الدَّفَـــالِيُّ مَحبـــوب ... لدى شيخنا الْمختار خُـصَّ بأشعـــار
وشـــيخٌ مُـــعَلِّقٌ كتابـــا أمـانـــة ... بـه أظهـر الكمـال لأهـل ذي الدار
وصـــل إلـهـــي تـــارة بعـــد تـــارة ... على خير خلق الله خوفـا مـن النـار
وعـذرا إذا قصـــرت في جنـب سـيد ... له في الــــفؤاد كل حـــب وإكبـــار
فمـــا أنـــا إلا كالشـــهاب وضـــوؤه ... قريـــبا يـــؤول للـــزوال بـــأوزاري
فيـــارب عفـــوك الْمعجـــل أرتَجـــي ... إذا أنـا في نعشـــي وثـوبي وإقبـاري

---

(1) أي المتوارية كراماته عن الناس فلم يذكر وهو الفقيه الورع المؤلف لنفائس الكتب عبد السلام السميج المراكشي الأصل.



قرية ومدرسة أدوز بين جبال بعقيلة

وكان من أنباء الوالدة التي تذكر للعبرة كما أشير إليه سابقا.

ذلك الحدث الذي بقي وقعه المؤلم موشوما في ذاكرة طفل لا يتجاوز الثالثة من العمر، وكانت له علاقة بالحاج موسى، وبنفوذه وبأحد زبانيته المسلطين على حراسة حقول وبساتين القرية المسمى (عمي كوران) آنف الذكر من بقايا عبيد القرية الغلاظ الشداد السريعي الخطى، والذي كان مزودا بجموعة من كلاب الصيد الضارية، وبنظرات غريبة جامدة، وبطلعة مغبرة مخيفة لا نكاد نرفع بصرنا إليها رهبة! وكان هذا الزّبني قد كُلِّفَ من قِبَلِ الشيخ موسى بمراقبة المتجرئين والمتجرئات على اقتحام البساتين وبعض الحقول أثناء إعلان الحظر الذي يستمر مدة تُتِيحُ لشجر الزيتون النضج، فلا يقتحمه مقتحم، إلا بعد إعلان رفع الحظر فوق سطح المسجد الجامع (بالتبريح[1]) المعروف يقوم به (الحسن أبكاض الجراي) والمسخر من قِبل الشيخ، والذي كان لا يفارق (السبسي)[2] فمه! فكان (المحاضر) يستأنسون به لوداعته وضآلة جسمه، وكان من عادة الوالدة أن ترعى بقرة حلوبا بمختلف أنواع الحشائش، فإذا جاء الخريف وجفت حشائش أهل البور، لم يبق إلا اللجوء إلى الحقول المسقية بالعين، فكان من الوالدة وهي الجريئة على كل أحد والفاتحة باب دارها للنساء والأطفال وتلامذة تمزگدا الجامع وكان منهم الزميل محمد أُبَتِّ الذي كان مع بقية التلاميذ يطوفون بآيت البايك فيجدون باب دارها الضخم مفتوحا فيغشونه فيجدونها

---

[1] من برح المكان أو برح الأمر إذا ظهر وتجلى، والبرَّاح مولدة من هذا المعنى في خصوص المعلن في الأسواق وغيرها عن أمر هام ومنه البرَاح للظهور والبيان.

[2] أي القصبة التي يصعد منها الدخان ولعلها كلمة تركية الأصل.

كعادتها جادة في إعداد الأخباز والعجن والطحن وقد عمدت إلى الرحى في المطبخ الموازي لباب الدار فيتناولون عندها ما تيسر من الخبز والإدام والشاي والسكر ثم تدعو لهم فيودعونها فرحين بذلك الاستقبال النادر المثال.

وسيأتي الحديث عن هذا الحدث المؤلم في إحداث شرخ في طفولتي وما تركه من آثار مكتومة مكبوتة تحولت فيما بعد إلى هلاويس ورؤى وأمساخ تعبيرا عن هذه المكبوتات لم أنفك عنها إلا بعد سنوات طويلة وتحليل نفسي وشعري.

وكان من خبر ذلك أن الوالدة اقتحمت أحد بساتين الوالد، وحشت منه ما شاء الله، وقد أخبِرَ (كوران) هذا بالخبر، فما كان منه إلا أن تعقب الوالدة فلم يستطع اللحاق بها لخفتها رحمها الله في السير وخوفها الشديد من الفضيحة! وبينما أنا في شغل ولعب داخل دارنا القريبة من الوادي والبساتين، إذا بضربات قوية متوالية للباب الضخم القوي، وأنا أنظر إلى تواليها وسرعتها حتى أحدثت شرخا في الباب ولم تتوقف إلا بصرخات الوالدة ومحاولة لفت نظر الجيران إلى هذا الصنيع الفاجرالدال على نفوذ هذا العلج العملاق وسيطرته على مقدرات القرية وساكنتها وحرماتها.

وبعد شكوى واسترعاء وإصلاح بين الوالدة وبين المسؤول الأول عن شؤون القرية ارعوى (عمي كوران) وكف عنا أذاه منذ ذلك اليوم، ولكن هذه الحادثة بقيت في ذاكرة هذا الطفل شرخا لازمه في صورة حلم مزعج، يتكرر مرات: تارة يظهر في صورته الحقيقية في غير مواربة، وتارات يتشكل في صور شتى كلها تجتمع في صورة حلم يظهر باب دارنا تارة غير موارب، وأخرى غير محكم الإغلاق، وتارة مفتوحة بعض نوافده، وأنا أحاول إحكام إغلاقها! إلى أن استطعت فك هذا الحلم بعد سنوات طالت، وكان تفكيكه تارة بالكتابة عنه نثرا، وأخرى نظما منثورا، وقد أنتج هذا فيما بعد قطعتين: إحداهما تعود إلى هذا الحلم نفسه، والأخرى تصف مصير

هذا المقتحم الأسود اللون والفعال المخيف الحركة خلال أزقة القرية وبساتينها، والذي كانت النساء يسكتن باسمه أطفالهن، وكنا نتحاشى المرور أمام منزله المترامي بعيدا عن دار جدتي بخطوات، والذي كانت كلابه يسمع هريرها غير بعيد عنها، فنزداد خوفا على خوف، وكان عزاؤنا في ذلك أمران: أحدهما أنه كان زوجا لأمة اسمها رقية (تاسوقيت) وكانت أطول منه قامة، وفي سواد لونه، وكانت لم تخلف، وقد أمتازت بالطيبوبة والسذاجة وحب الأطفال، فكانت تعوضني عن نظرته القاسية بالحدب علي وضمي إلى حضنها، والذي لم يكن بذاك رحمها الله! وكانت أحيانا تتحداه وترفض تحكماته وضرباته، حتى إنها أسقطت نفسها في بئر، كان يحتجن مياهها أحيانا لسقي حقل له، فاضطرعمي كوران إلى أخراجها من البئر مرغمة! وقد أبى الله إلا أن تكون نهايته على يد خالي محمد نِدْ عَبْدْ زوج الوالدة الثاني في نزاع بينهما استطاع فيه خالي أن ينتقم لأهل العوينة من تصرفات (كوران) ما قدم منها أو حدث: حيث أخذه بالعقاب أخذا وبيلا، لم يلبث بعده إلا أشهرا قبيل أن يسلم الروح! غفر الله للجميع، وهذه ارتسامات عن هذا الحادث وصاحبه ومصيره، استرجعتها رجاء محو هذه الذكريات المزعجة من لاشعوري الباطن الطفولي المنابع ومن البحر الرمل.



صورة الفتاة المساعدة للوالدة والوالدة تتوسط المجلس وإلى يسارها أحد أبناء الأخت زينة سعيد ووالدته في الأخير.

حلم مزعج

حلم .... يتكرر.... مرات

يتكرر في صور شتى

تتوحد في رمز التخويفْ

وحينا يأخذ شكلا مكتملا

يتجسم في جسد دَمَوِيٍّ

أصارعه وأصب عليه النقمة والطَّعَنَاتْ

****

وأُفيق

أتمتم بالدعوات .... من الشر الواقعْ

رب أنجدني برضاك .... وغَسِّلني بالماء الصافي مِن زمزم

أَخرِج تلك السوداءَ من القلْب المضغوط

وشُقَّ على صدري بِحَنانْ.

****

وأَنقذنيَ من الأغلال

قد التصقت بمشاعر ذاك الطفلِ

وما تَفْتَأْ ..... تتراءى في الأحلام

تتكرر أشكالا تتصارعِ فيها قُوىً

كَبُرَتْ وما مَسَّهَا مُبْضع الجرَّاح

فهْي كالسرطانْ تتنامى في صمت قَتَّالْ

****

كَعِصَابات الإجرامِ

قَدِ التجأت بجزائرَ خَالِيةٍ ....

وما يدري الإنسان متى ستفاجئه بالشر وبالعُدوَانْ.

اللهَ اللهَ من الوحش المُتَرَبِّصِ بالطفل الحيوانْ

ومن سُمٍّ ونُيُوبٍ يُخفيها الثُّعبانْ

ومن نَفْثِ الشيطانِ

ومِن عَبَثِ السَّكْرانِ

طويلا في ظُلُمات الغارْ

****

غير أن عِنايَة ربي لولاها

ما خلَّصْتُ نَفْسِيَ

من الأغلال.



صورة الباب الكبير للمسجد الجامع بالعوينة ويظهر من اليسار: إبراهيم أفاضل/ محمد أُبَتِّ/ مولاي الحسن بلخنفار / عبد ربه/الحاج العمري .

٧

المسجد الجامع المتوسط لمواقع قبائل أهل العوينة
ذو المرافق العجيبة الوضع

وعند واسطة عقد القرية سيدي علي أُبَتِّ الهماني في المسجد الجامع العجيب الأوضاع المتفرد المرافق والمكانة والتاريخ أبى الله لهذا الطفل الدارج بين أزقة (آيت بنوح) عند الجدة فاطمة سعيد، ووسط ساحتهم الكبرى (بدرب أحراري) وبين مسجدهم القريب من جهة، ودار زوج الوالدة الجديدة خارج السور بالقصبة المهدومة آنذاك (والمسماة ب قَصَبَةِ إبدرارن) من أثر الدفاع! إلا أن يحفز بالترغيب والترهيب ليلتحق في نحو السادسة من عمره بِكُتَّابِ آيت بنوح، عند (سيدي عمر) أول الأمر دون نجاح يذكر بسبب ما يقال من عجز (سيدي عمر) عن الاستمرار في أداء مهمته وليونته وتساهله مع الأطفال المبتدئين، فأخذتني الوالدة ذات صباح مرغما إلى كُتَّابِ المسجد الجامع، عند (سيدي علي آيت الهماني) المشهور بالحزم والعزم والشدة، مما جعلني أبدي بعض المقاومة أثناء الطريق نتج عنها إنغراز إبرة إحدى حلي الوالدة الفضية في ضبعي، وخروج شيء من الدم، حاولت الوالدة أن تنسيني إياه بهدية آخذها لأول مرة في حياتي: عبارة عن عدد من النقود الورقية الجديدة المتفاوتة الأحجام، والمتعددة التصاوير والألوان، من صنف القروش والفرانكات والريالات الجديدة من بنك المغرب آنذاك، ومن حرصي دفنتها في محل أضعت فيما بعد موقعه!!!

وهكذا استسلمت للقدر، لأجد نفسي وسط أعداد من محاضر (سيدي علي أُبَتٌّ) متفاوتي الأسنان والأنساب والقامات: ما بين مبتدئ ومتوسط وحافظ ومتخرج

يعيد حفظ القرآن بالروايات، وما بين طارئ على القرية من تيزنيت وآيْتْ بْرَيِيمْ والساحل، وَآيْتْ هْمَّانْ، أعطي دكانا خاصا به أو ألْحِقَ بغيره، أو اكتفى بالمبيت عند سيدي علي خوفا عليه من بطشة كبار المتخرجين، ذوي الأسنان المتقدمة البالغين الفتيان المتصارعين فيما بينهم، لا يَحُدُّ من نفوذهم إلا سطوة الطالب الشبيهة طلعته بطلعة الأسد الهصور، وضرباته بضربات أقسى المكتبين ولعناته تتتالى حتى يطأطئ من قوة وغلظة هذه العصابة البالغة في الفتوة مبلغ التسييد من قبل الصغار. فلا تسمع فيهم إلا سي (مبارك ند محماد) وسي (العربي نبُومِيًّا) سي (بن سي الحسن) سي (الحسين نطالب) سي (إبراهيم أموسى) وسيدي (الحسين نِدْ سيدي العربي) سي (أحمد أتفراوت) وسي (محمد أُبِهِ) وسي (محمد الراجل الركيبي)؛ وهكذا ما بين فتى قوي مفتول العضلات وآخر لطيف المعشر؛ وفي زاوية من زواياها حانوت لأقدم طالب مشارط في الجامع قبل سيدي علي أبت وهو سيدي احمد أوالحسين الذي فضل العيش وسط الطلبة ناصحا ومعيدا وخياطا للجلابيب ومستأنسا بالمحاضر وبسيدي علي وقد أحضر نجله سي الحسين الطالب لاستكمال حفظ القرآن وسط محاضر سيدي علي وأضاف إلى ذلك المراجعة معه واستصحابه ليلا إلى دارهم بإداحماد في امتحانات يومية وخوف من الطالب من جهة ومن والده من جهة كما حدثني.

ورغم هذا الخليط المتفاوت المستويات، استطاع المرحوم سيدي علي أُبَتِّ الهماني أن يفرض على الجميع نظاما يوميا دقيقا لا يتخلص من وطأته إلا هذا الصنف الثالث من صغار المحاضر الساكنين بالعوينة، يغادرون مساء، ويلتحقون صباحا يحملون خبزا طريا ينتظره زملاؤهم عند باب الجامع قصد مقاسمتهم إياه، والبحث بعد ذلك عن إدام يليق بسخونته، وقد بقوا منذ الثالثة صباحا! على لحم بطونهم ملتجئين عند ما يشتد بهم الجوع إلى جفنة من (كسكوس) بائت بقيت منه بقايا

ناهبين منها في لذة باعثها المسبغة وبرودة الليل، وقد قيل: (نِعْمَ الإدام الجوع) وكانوا يتمثلون عند الأكل بقول الأمازيغ (إِيگَايسْ أُوْمْغَارْ أُوْدِي) أي هو طعام من دار أَمْغَارْ (شيخ القبيلة) مدهون بالسمن فَكُلْ! وهكذا وجدت نفسي، وأنا أتعرف على أصناف من الزملاء من جهة، ومن الكبار المشرفين أخرى، ومن مصلين وافدين للصلوات الخمس، وفي وسط مسجد جامع واسع الأرجاء، متعدد المرافق والغرف والصالات والساحة والملحقات، يستحق الإشارة إلى شيء من ماضيه ومكانته لفرادته، إذا ما قيس بمساجد أخرى في قرى مجاورة.

ويقع المسجد الجامع هذا وسط القرية ببحبوحة (آيت تلمشت) أهل النفوذ والمشيخة قريبا من دار الشيخ موسى، ومن معمل الحدادة التقليدي للقرية (أنوض) على ربوة مشرفة على الوادي، وعلى بساتين الساقية السفلى وحي ازلا وعلى مقبرة سيدي إبراهيم أُمنصور، يحيط به فندق ملحق للداوب الواردة ولحمار الطالب القوي الفاره، وبه مرافق خزائن الحبوب والتبن، وأحواض لغرس النعناع، يتزود منه الطالب وضيوفه خاصة، ويطوق مقصورة المسجد ذات الصفوف السبعة والأقواس والسواري والسقوف الملونة جناح إضافي منفصل للنساء، يتخذنه للذكر والصلاة، وإقامة أطعمة المناسبة (المعروف) صدقات للجميع، يضاف إلى ذلك سكنى خاصة بالطالب قريبة من (أخربيش) تتكون من مصريتين واسعتين، وغرفة خاصة بتهجد الطالب، وهجوده وقيلولته، قَلَّ ما يغشاها المحاضر، وتلتصق بهذه السكنى ساحة مسقوفة ذات أعمدة وأقواس مبلطة بالجير المتين المسمى (تادلاكت) يتخذها الطالب والمحاضر بعد العصر لمراجعة الألواح، وإعادة حفظها، حتى يقترب وقت المغرب وتتخذ احتياطا للصلاة عند امتلاء المسجد لذلك سميت (بالمركع) أي موضع الركوع.

وقد يتحول هذا المركع يومي الخميس والجمعة إلى ساحة للكرة والمصارعة، عند سفر الطالب إلى أهله بتيزنيت، وعلى يسار (ساحة المركع) باب المقصورة المؤدي إلى بدن المسجد ذي البلاطات السبعة، تقام به الصلوات والجنائز والجمعات، ودروس رمضان، والختمات والأحزاب الليلية للمراجعة بين العشاءين، وحزبا الصباح والمساء، ويؤدي أحد أبوابه الجانبة إلى ميضأة واسعة الأرجاء، مبلطة بالجبس المتين تحتوي على مرافق مفتوحة الأبواب للمغتسلين من الحدث الأكبر تتوسطها دكة واسعة، تتخذ مغتسلا للجنائز، وتستعمل أيام الراحة مغتسلا لثياب المحاضر والطالب وللغليظة السميكة منها خاصة كالكساء المرقع والهيضورة ونحوها، وعلى يمينها أنبوبان حديديان مقفلان بعودين أحدهما ينصب منه الماء الحامي باستمرار لما زودت به (تافضنا) وحمامها من حطب وأنابيب وقدر من النحاس، يصل إليها مع الماء من البئر بواسطة أنابيب من الفخار ثم يخرج من الميضاة منه فرع موصل إلى الأنبوب الحامي.

كما يتخذ الحَمَّام أيام البرد للاغتسال بدل الغرفة الخارجية المفتوحة الهواء، ويؤدي أحد أبواب الساحة الملحقة بالحمام إلى غرف المحاضر القاطنين بالمسجد في طابقين، ويلتوي الطالب بعد الخروج من غرفته إلى اليسار ليجد (أعگمي المسجد) الطويل المزود بدكات للجلوس والمؤدي إلى الباب الرئيس الضخم المحاط بالألوان والزخارف يتخذه المحاضر والجلاس للاستراحة وانتظار الصلاة، وأحيانا يفاجئ الطالب سيدي علي الجميع وقت القيلولة الواجب القيام بها على المحاضر خوفا من خلودهم للنوم ليلا قبل أداء ما عليهم من إعادة حفظ الألواح على نار (أخربيش) بعدالعشاء، فإذا وجد بعضهم لا يزال يستمرئ اللعب أخذه بالعقاب، ومن معه من رجال أهل القرية، لا يستثني أحدا ولا يستطيع أحد أن يرد له كلمة، وهو يسب ويلعن ويوعد رحمه الله. أما العطفة اليمنى للمحاضر القاطنين فتؤدي إلى مدخل الميضاة، وبها بئر عميقة ذات أصداء مخيفة، ومياه غزيرة باردة جدا، وعمق بعيد، وحبال طويلة، ودلو يسمع صوته خارج المسجد، وحبب إلى لمحاضر هذا المكان

لبرودته من جهة ولإمكان العبث بأداوته لإخرج الماء والتزود للوضوء، ولوجود صهريج مسطح على يمين الداخل، أُعِدَّ ليشرب منه المحاضر، ومنه إلى الميضاة في أنبوب بارد مواز لأنبوب الحمام المذكور يحلو للمحاضر أن يتسلقوا حوافه لإدخال أفواههم إلى ماء الصهريج للشرب والعبث بشفاههم.

أما سطح المسجد فيتخذ عادة للأذان وإعلان الأنباء الجديدة لأهل القرية، وقراءة حزب المساء صيفا، وجلوس أحد المحاضر المسمعين وسطه لإبلا غ النساء والمرضى بالتكبيرات والتسميعات، والسلام والدعوات، وربما نام أحدهم" وخاصة بالليل، فضاع منه بعض ذلك، فتعرض للعقاب ولوم الجارات لإفساد صلاتهن كما وقع لأحد التلاميذ ذات ليلة! وخارج باب المسجد الرئيس دكات طويلة يتخذها المخلدون للشيخوخة والمؤذنون والمحاضر قيلولة، وملتقى للسمر بالليل، ويستعملها بعض هواة فتل الحبال والخياطة، وإعداد سعف النخل، أو حلاقة رؤوس الراغبين بموسى حافية يستعملها الجميع، فلا يكاد يسلم رأس أحدهم من إصابته بجراحات أو آفة القوباء أو الجرب بسبب هذا الاشتراك في عملية شاقة لا يخرج منها المحلوق منتصراً أبدا!!

وبعيدا عن هذه الدكات، سقيفة للضيوف الطارئين: من عطارين وعابري سبيل ومحترفين: من يهود ملاح تيزنيت، وبائعي السمك وغيرهم، ملجأ ليليا يشعلون لهم نارا تدفئهم إلى الصباح، وتمتاز سقفها المسودة بسكنى الوطاويط نهارا، فربما حاولنا أن نصطادها بحزمة من شوك السدر نلصقه بقصبة طويلة ونضع عليها فِلْقَةَ بصل نمررها بهواء السقف فتشمها الوطاويط فتنزعج مضطربة الطيران فيمسكها شوك السدر لنتمكن من قبضها، وفرز أجنحتها، والتأمل في أسنانها، والتحرش بأصواتها المزعجة وأمام السقيفة مربط يربط به الطاريؤن داوبهم، ويتخذه المحاضر أحيانا مبالة لهم ليلا، خوفا من الابتعاد عن بوابة المسجد، فيخفي التبن والشعير وروث الدواب

ذلك إلى حين، وربما ربط بها يهودي طارئ أو مرَّاك [1] أو لحام أو صاحب حشو برادع، مربطا لدابته، فيسقط بين يدي المحاضر تارة، فيعبثون بأثاثه أو يسقط أخرى تحت طائلة لعنات الحاج المحفوظ أخ الحاج موسى المتظاهر بالصلاح، والتجاني الطريقة، والمتعصب لحرمة المسجد بشكل مبالغ، فيأخذ هذا اليهودي الأمازيغي المسكين بمختلف أنواع العقوبات، وفي مقدمتها أخذ شاشيته والضرب بها أرضا، ومع ألوان من الصفع واللعنات!!

وقد اشتهر (الحاج المحفوظ) هذا بكراهية المحاضر، وهم يتلقون شاحنته الوافدة من الدار البيضاء، حيث تجارته متوجها إلى أخيه الحاج موسى راجما لهم بالحجارة واللعنات عند محاولتهم التعلق بالشاحنة والتي تتكرر كل مرة رغم هذا العقاب لاشتياقهم إلى هذه الشاحنة النافثة للدخان والسريعة السير يترقبون قدومها بالإنصات والاستشراف فيسرعون إليها متسابقين قبل دخولها إلى القرية.

والحاصل أن مسجد وكُتَّابَ سيدي علي أبت يحتلان مكانة هامة، فتوسعت سمعة سيدي علي أُبَتِّ وإحياء الإقراء به بعد أن سافر إليه وهو (بالخميسات) كل من الشيخ وسيدي عبلا الأدوزي، فطلبا منه (الشرط) بالعوينة، فلما قبِل ذلك، قام بالمهمات الموكولة له أحسن قيام وباعتباره زميلا سابقا في الدراسة بالمدارس العلمية العتيقة مع الصهر المذكور، وقد أبى إلا الاقتصار على الإقراء مع ما يعقب به على الألواح من أنصاص وفوائد، وربما فتح الأجرومية أوبعض الأمهات مع بعض المحاضر الشُّداة[2]، ومن توقيعاته على لوحي حفظت القصيدتين الشهيرتين في المديح وغيرهما

---

[1] (المراگ) بالعامية الذي يصلح من شقوق القصعة بواسطة لحم أطرافها بقطعتين من القصدير. وفي المثل المغربي فلان كمغزل اليهودي رطب ويثقب الخزف (بْحَالْ الْمَرَّايْ نْتَاعْ اليهودي رْطْبْ وْتَيْثقْبْ) وكأن معنى الفعل مشتق من الامازيغية مركه إذا لحمه.

[2] جمع شاد وهو الطالب الحريص.

رحمه الله، وقد سبق أن شارط بهذا المسجد أربعة من القراء بعضهم من القرية نفسها كسيدي احمد أحسين وبعضهم من نواحي العوينة بالاضافة إلى الفقيه المتخرج في مدرسة بيعنفرين سيدي محمد إيسملالن الذي اختفى عن والديه نحو ثلاثة عقود قبل أن يفاجئهم ذات ليلة يدق الباب فيخرج والده ولا يكاد يميزه لتغير صورته ولحيته حتى أكد له أنه نجله ففتح له الدار، والفقيه سيدي محمد إيسملالن من نجباء المدرسة وأحضر معه إلى العوينة خزانة باذخة كنا نسمع بها ولا نصل إليها إلا بعد وفاته بواسطة المرحومة زوجه لالة صفية بعد أن تأخذ منا العهد وشيئا من الدراهم لإرجاع الكتاب كما هو، وامتاز العلامة سيدي محمد إيسملالن بالبياض وزرقة العينين وطول القامة وكان أصلع طوالا لا تتسع الأبواب له فربما أصابته عتبة الباب فصارت له حدبة بارزة وكان به سلس فكان الطالب عبد الله أبت يحضر له تبنا ونخالة يوقدهما من تحته فإذا تدفأ وشعر بالبول سهل عليه ذلك وقد أنجب بنين وبنات في غاية الجمال وقد ذهب أحدهم خائفا من بطش الحاج موسى إلى تونس وبها توفي وهو محمد أسملال وله أخ بكاتبة الضبط في تيزنيت أنجب طالبا هو خريج الجامعات ودار الحديث يوسف بن أحمد.

وقد أقيم في هذا المسجد الذي تطوع أحد المحسنين للعلم والعلماء والدين، وهو أحمد بن عمر الفارس الشجاع (سنة 1320هـ/ 1900م) على هذا النمط الجديد، بعد أن كان مجرد مسجد عادي، وقد كتب لصاحبه أحمد بن عمر هذا الاستشهاد بعد ذلك، في حروب بين أهل بونعمان وآيت جرار وأهل ماسة، وتسمى حرب (إشناض)، (سنة 1326هـ/ 1906 م) رحمه الله وجزاه عن هذه المؤسسة وخريجها إلى اليوم أحسن الجزاء، وقد كان ذلك قبل مقدم الهيبة بن ماء العينين عام (1330 هـ / 1912م) لأجل محاولة دفع الحماية عن سوس، في غير ما نجاح.!



محمد السملالي المتوفى بتونس



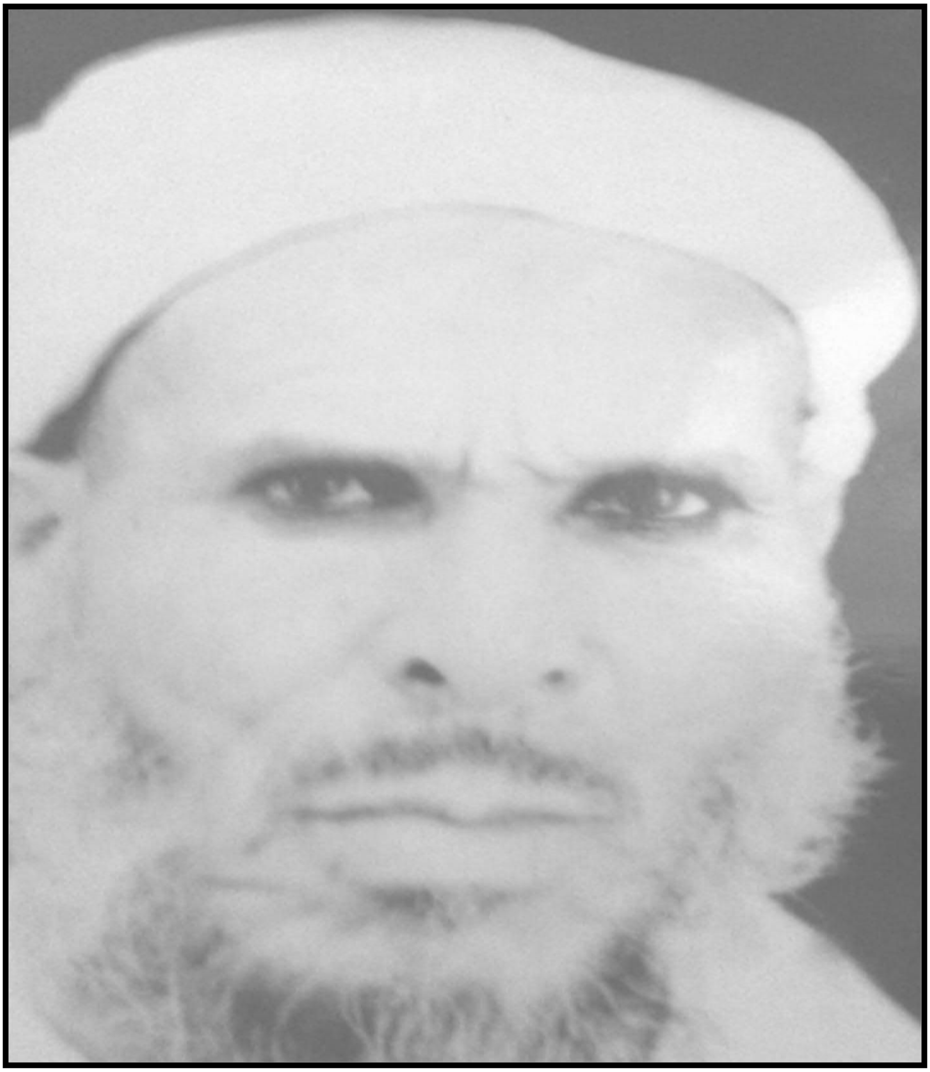
أخوه الأصغر أحمد السملالي



دار الفقيه جدهما في دوار ايزلا مستقلة مبعدة من الدور لمكانة الأسرة



الحفيد الدكتور يوسف السملالي خريج كلية الآداب بمراكش
ودار الحديث الحسنية



صورة مميزة لشيخي الأسد الهزبر سيدي علي أبت الهماني الركيبي الأصول

تنم عن شخصية ذات إرادة حديدية ونظرات حادة وعيون صحراوية نفادة



على اليمين صاحب هذه المذكرات وبجانبه الزميل الشاعر والوكيل عبد الوافي
وفي الوسط أبت عبد الله وفي أقصى اليسار عبد الجليل لعلو أحد مواليد تيزنيت



مع آخر طالب مشارط بالمسجد الجامع بدوار العوينة وهو عضو المجلس العلمي لسيدي إفني الفقيه علي توفيق وقد جدد جوانب من الجامع وأضاف صومعة ومرافق مما أشبه بعض ما تعرضت له مجموعة من المدارس العتيقة بسوس من تغييرات

وقد انطبع في الذاكرة من هذا الشيخ والمسجد والمحاضر والأحداث المواكبة لهذه الفترة من بين السادسة والتاسعة من عمري، وكذا رجوعي أثناء اقتراب نهاية عهد الحماية إلى سنتي 1952/ 1954/ تقريبا، ما جريات تنطبق في معظمها على نظام المساجد في الإقراء، وكتاتيب سوس، فكان من ذلك قصيدة حركت في نفسي وفي سامعيها بمراكش وسوس، ما نقلهم إلى هذه الأجواء من أواسط القرن الماضي بعنوان:

أطفال شاكرين المحراب والكتاب

إمامَ الهُدى وَسْـطَ الدَّيَـاجِرِ وَالدُّجَـــى ... يُوَقِّعُ عن رَبِّ الْـوَرَى خَمْـسَ مَـــرَّاتِ
وَيَرْقُـبُ نَجْمًـا طَالَمَـا أَطْلَـعَ الضِّيَـــا ... عَلَى الأُفْقِ يَهْدِي السَّائِرِينَ بِظُلْمَـــاتِ
يُهَوِّسُـــهُ وَقْـــتٌ تَغَـــيَّرَ تَــــــارَةً ... وَزَادَ وَنَقصٌ عَادَ فِي بَعْـضِ أَوْقَـــاتِ
يُرَاقِـبُ وَهُـوَ مُغْمَـضُ الْعَـيْنِ قَلْبُـــهُ ... عَلَى دَقّـةٍ مِنْـهُ دَقَـائِقَ سَاعَـــــاتِ
تَقَلَّـبَ فـِـي الْفِـرَاشِ طَـوْرًا وَجَفْنُـــهُ ... تَحَسَّسَ ضَوْءَ الصُّبْحِ وَسْـطَ السَّـمَاوَاتِ
يُصَـارِعُ نَوْمًـا قَـدْ تَغَشَّـاهُ وَانْثَنَـــى ... بِإِلْحَاحِـهِ ضَـيْفًا عَظِـيمَ الشّـفَاعَاتِ
وَأَحْلاَمُـــهُ رُؤىً يُمَازِجُهَـــا الضُّحَـــى ... فَتَبْدُو لَهُ الأَضْوَاءُ عَمَّتْ مَسَافَـــاتِ
فَيَهْـتَزُّ مِـنْ فَـرْطِ الْمَخَافَـةِ جِسْمُـــهُ ... وَتُوقِظُهُ الـرُّؤَى قَـوِيَّ الْقَنَاعَـــــاتِ
مُكَـــذِّبَ نَجْـمٍ تَـارَةً وَمُصَدِّقـــــًا ... لِمَا اعْتَادَ مِنْهُ مِنْ مَحَاسِـنِ عَــــادَاتِ
وَهَا هُوَ بَعْـدَ الشَّـكِّ يَـنْهَضُ قَائِمـــًا ... وَيَقْطَـعُ شَــكًّا بِـالرُّجُوعِ لِمِيقَـــاتِ
يُقَـارِنُ بَـيْنَ الْيَـوْمِ وَالشَّـهْرِ وَالـــذِي ... بِهِ الفَجْرُ هَذَا اللَّيْـل زَادَ دَقِيقَـــاتِ
وَيَحْمَـدُ رَبَّـا حِـينَ أَحْيَـاهُ مَـــرَّةً ... وَكَانَ تَوَفَّـــاهُ الإِلَهُ سُوَيْعَــــاتِ

تَمَطَّى وَحَرَّكَ الْأَنَامِلَ وَانْثَنَى ... يُحَرِّكُ مِصْبَاحًا بِجِبْرَةِ زَيَّاتِ
وَشَدَّ عَلَى عَصَاهُ وَاجْتَازَ بَيْتَهُ ... وَفَتَّحَ مُغْلَقًا وَأَلْقَى تَحِيَّاتِ
وَتَمْتَمَ بَعْضَ الشَّيْءِ خَوْفَ الذِي بِهِ ... قَدِ امْتَلأَ الظَّلاَمُ مِنْ شَرِّ نَفَّاتِ
وَفِي كُمِّهِ القُرْآنُ وَالسُّبْحَةُ الَّتِى ... تُلاَزِمُهُ أَثْنَا رَخَاءٍ وَشَدَّاتِ
وَمِصْبَاحُ زَيْتٍ نُورُهُ يَطْرُدُ الذِي ... قَدِ الْتَبَسَ اللَّيْلَ الْبَهِيمَ بِرُقْيَاتِ
وَجُلُّ الْوَرَى فِي كِنِّهِمْ وَفِرَاشِهِمْ ... تَوَارَوْا عَنِ الْأَنْظَارِ لَيْلاً بِغَطَّاتِ
وَقَدْ ضَرَبَ الْكَرَى عَلَى السَّمْعِ وَارْتَخَتْ ... جُفُونُهُمْ عِنْدَ الْهَزِيعِ لَصِيقَاتِ
فَلاَ يَسْمَعُ الْقَوَّامُ غَيْرَ حَسِيسِهِ ... وَغَيْرَ سُعَالٍ مِنْهُ طَوْرًا وَتَارَاتِ
وَغَيْرَ نُبَاحٍ مِنْ بَعِيدٍ وَمَا انْبَرَى ... لَهُ الذِّئْبُ مِنْ عُوَائِهِ فِي الْمَجَالاَتِ
وَغَيْرَ صِيَاحِ الدِّيكِ يَنْفُخُ صَدْرَهُ ... لِيُعْلِمَ مُؤْذِنَ الصَّبَاحِ بِصَيْحَاتِ
وَغَيْرَ أَنِينٍ مِنْ عَلِيلٍ تَنَاوَبَتْ ... عَلَيْهِ حُمَيَّا الدَّاءِ مِنْ بَعْدِ غَفْوَاتِ
وَغَيْرَ هَدِيرِ مِنْ رَحىً تَطْحَنُ الذِي ... تَسَاقَطَ مِنْ كَفٍّ تَجُودُ بِحَفْنَاتِ
لَهَا اللهُ تِلْكَ الزَّوْجُ تَبْغِي طَحِينَهَا ... لِتَعْجِنَ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ خُبْزَاتِ
وَغَيْرَ خَرِيرَ الْمَاءِ يَحْبِسُهُ عَلَى ... جُنَيْنَتِهِ سَاقٍ بِمِدْرَى وَطَعْنَاتِ
وَغَيْرَ شِهَابٍ ثَاقِبٍ يَحْرِقُ الْفَضَا ... وَيَتْرُكُ ذَرّاتٍ وراء وَمِيضَاتِ
فَلَمْ يَشْعُرِ الْقَوَّامُ يُلْقِي بِنَفْسِهِ ... إِذَا هُوَ عِنْدَ الْبَابِ تَوًّا بِخُطْوَاتِ
فَعَظَّمَ رَبًّا بَارِئَ الْكَوْنِ وَالْوَرَى ... وَمُؤْنِسَ هَذَا الْعَبْدِ فِي ذِي الْخَفِيَّاتِ
تَفَتَّحَ مِصْرَاعٌ لَهُ حِينَ قَدْ بَدَا ... بِعَزْمِ الّذِي يَغْشَى رِيَاضًا وَجَنَّاتِ
فَرَحَّبَ أَمْلاَكٌ بِهِ وَمُسَافِرٌ ... يَنَامُ بِبَهْوِ الْبَابِ يُبْدِي تَحِيَّاتِ

فَأَلْقَى عَصَاهُ وَاسْتَقَرَّ بِهِ الذِي   قَدِ اعْتَادَ مِنْ بَهْوٍ وَسَقْفٍ وَطَاقَاتِ

فَشَدَّ إِلَى الْوُضُوءِ ثَوْبًا وَقَدْ بَدَتْ   عَلَى النَّارِ قِدْرٌ تَدْفَعُ القَرَّ دَفْعَاتِ

فَأَبْدَلَ (قَبْقَابًا) بِنَعْلٍ ثُمَّ انْثَنَى   يَصُبُّ عَلَيْهِ مِنْ وَضُوئِهِ حَفْنَاتِ

وَهَاهُوَ فِي الْمِحْرَابِ مَحْبُوبِهِ الذِي   يُحِسُّ بِهِ إِذَا تَصَدَّى لِقَوْمَاتِ

فَكَمْ ضَمَّهُ لَيْلاً عَلَى غَبَشٍ وَكَمْ   مَعَ القَرِّ قَدْ أَحَسَّ مِنْهُ بِضَمَّاتِ

وَكَمْ أَسْنَدَ الظَّهْرَ الذِي يَنْحَنِي بِهِ   إِلَى رُكْنِهِ بَعْدَ التَّهَجُّدِ تَارَاتِ

وَكَمْ سَمِعَ الأَمْلاَكُ مِزْمَارَهُ وَذِي   بَقَايَا خُطَاهُ فِي الْحَصِيرِ عَلاَمَاتِ

وَكَمْ طَافَ شَيْطَانٌ بِهِ يَبْتَغِي بِهِ   لِيَعْبَثَ لَوْلاَ نَفْحَةُ الإِلَهِ بِرَجَّاتِ

وَهَاهُوَ بَعْدَ وَقْفَةٍ وَتَهَجُّدٍ   وَبَعْدَ صَلاَةِ الصُّبْحِ يَتْلُو كُلَيْمَاتِ

وَيَدْعُو لِكَافَّةِ الأَنَامِ وَمَنْ أَتَى   وَيَجْهَرُ بِالدُّعَا وَيَرْفَعُ دَعْوَاتِ

وَيَبْدَأُ حِزْبًا رَاتِبًا عَطِرًا لَهُ   تَرَانِيمُ دَاوُدٍ وَتَأْوِيبُ رُبْوَاتِ

تَحَلَّقَ حَوْلَهُ تَلاَمِيذُ قَدْ هُزُّوا   مِنَ النَّوْمِ قَبْلاً فِي مَقَارِئِ لَوْحَاتِ

فَآنَسَ نُورًا جَانِبَ الشَّرْقِ وَانْبَرَى   يُقَوِّمُ أَصْوَاتَ التَّلاَمِيذِ نَبْرَاتِ

وَيُوقِظُ نَوْمَانَا يُغَالِبُهُ الْكَرَى   بِدَفْعَةِ كَفٍّ أَوْ بِوَاقِعِ صَفْعَاتِ

وَلَمَّا اسْتَوَى حِزْبُ الصَّبَاحِ وَتَمَّ مَا   تَقَسَّمَ مِنْ نِصْفٍ وَرُبْعٍ وَوَقْفَاتِ

تَنَشَّرَ فِيهِمْ لِلبُصَيْرِيِّ بُرْدَةٌ   مُنَغَّمَةُ الْبَحْرِ الْبَسِيطِ بِقِسْمَاتِ

وَتَمَّ الْقَصِيدُ بِالصَّلاَةِ عَلَى الَّذِي   شَمَائِلُهُ تُجْلَى عَرُوسًا بِجَلْوَاتِ

وَتَرْضِيَةٍ عَلَى الصَّحَابَةِ وَالأُلَى   مَضَوْا فِي طَرِيقِهِمْ خُلُوفًا وَسَادَاتِ

فَقَامَ الْجَمِيعُ لِلْفُطُورِ وَمَا بِهِ   تَقُومُ الْجُسُومُ مِنْ حَسَاءٍ وَتَمْرَاتِ

وَهَاهِي أَلْوَاحُ التَّلَامِيذِ قَدْ بَدَتْ   وَقَدْ بَانَ صَلْصَالٌ عَلَى ضَوْءِ ذَرَّاتِ
وَصَرَّ عَلَى سَطْرٍ لَهَا قَلَمُ الَّذِي   عَلَى حِرْصِهِ يَقْفُو بِفُتْيَاهُ كَلِمَاتِ
وَيَلْتَقِطُ الدُّرَّ النَّظِيمَ وَقَدْ بَدَا   مِنَ الشَّيْخِ كَالنُّورِ الْمُشِعِّ بِظُلْمَاتِ
وَمَا مَرَّ وَقْتٌ غَيْرَ مَحْضِ سُوَيْعَةٍ   إِذَا اللَّوْحُ قَدْ أَضْحَى حُرُوفًا وَشَكْلَاتِ
فَتَمَّ وَأُلْقِيَ اللَّوْحُ لِلشَّيْخِ وَانْبَرَى   تَلاَمِيذَةٌ فِي السَّاحِ قَفْزًا وَنَطَّاتِ
يَشُقُّونَ طُرْقًا بَاحِثِينَ عَنِ الَّذِي   سَرَى فِي الشُّرُوقِ مِنْ حَسِيسٍ وَهَمْسَاتِ
وَهَاهُوَ فَلاَّحٌ وَرَاعٍ وَوَاسِقٌ   يَهُشُّونَ هَشًّا أَنْعُمًا وَشُوَيْهَاتِ
وَهَاهُوَ شَيْخُ اللَّوْحِ يُلْقِي بِطَرْفِهِ   إِلَى رَسْمِ أَحْرُفٍ وَشَكْلٍ وَكِلْمَاتِ
فَيُعْمِلُ فِيهَا بِالْغَلِيظِ مِنَ الَّذِي   يُقَوِّمُهَا رَسْمًا وَلَحْنًا وَغَلْطَاتِ
وَيَمْضِي إِلَى الْأَلْوَاحِ لَوْحًا فَلَوْحَةً   يُوَبِّخُ مُمَسَّكَ الدَّوَاةِ بِنَخْسَاتِ
وَيَمْسَحُ فِي رَاسٍ لَهُ قَلَمًا بَدَا   عَلَى فَمِهِ شَيْءٌ مِنَ الصُّوفِ شَعْرَاتِ
وَبَعْدَ الْفَرَاغِ فِي الضُّحَى يَضَعُ الَّذِي   بِوُسْطَاهُ حامِدًا لَهُ جُهْدَ كَراتِ
وَيَمْضِي الى رُكْنٍ وَيُلْقِي بِجِسْمِهِ   إِلَيْهِ وَقَدْ عَادَ الْخَوَارِجُ وَحْدَاتِ
يَنَامُ عَلَى هَزِّ التَّلاَمِيذِ رَأْسَهُمْ   وَتَقْرِيعَهُمْ أَلْوَاحَهُمْ بِالْخُشَيْبَاتِ
وَمَا فِي صُدُورِهِمْ يَؤُزُّ فَيَنْثَنِي   لَهُ الرَّأْسُ كَادَ يَنْطَحُ اللَّوْحَ نَطْحَاتِ
فَيَفْتَحُ عَيْنَا تَارَةً يَبْتَغِي بِهَا   لِيُشْعِرَ كَسْلانًا عَوَاقِبَ غَفْلَاتِ
وَلَمَّا دَنَا وَقْتُ الْغَدَا صَرَفَ الَّذِي   قَدِ انْهَدَّ مِنْ مَقْرىً وَجُوعٍ وَهَزَّاتِ
إِلَى جَفْنَةٍ مِنْ كُسْكُسٍ قَدْ بَدَا بِهَا   بَلِيلٌ وَشَيْءٌ مِنْ شُحُومٍ وَحَبَّاتِ
فَأَعْمَلَ طُلاَّبٌ بِهَا كَفَّهُمْ بِلَا   انْتِظَارِ لِمُحْدَثٍ لِيَصْنَعَ لُقْمَاتِ

وَلَمَّا بَدَا مِنْهَا أَسَافِلُهَا ارْتَمَى مُخَلَّفُهُم فِيهَا مَخَافَةَ آفَاتِ

فَقَامُوا وَفِي كَفٍّ لَهُمْ مِنْ بَقِيَّةٍ عَوَالِقُ يَمْتَصُّونَهَا كُلَّ مَصَّاتِ

فَقَامَ الْفَقِيهُ فِيهِمُ يَأْمُرُ الَّذِي يُعَرِّفُ فِيهِمْ بِالْمَقِيلِ هُنَيْهَاتِ

وَزَاغَ إِلَى الفَضَاءِ مِنْهُمْ بَقِيَّةٌ وَقَدْ آثروا أَلْعَابَهُمْ مَحْضَ لَذَّاتِ

إِلَى أَنْ بَدَا فِي الشَّرْقِ ظِلٌّ كَمِثْلِهِ وَأَذَّنَ ظُهْرٌ مُؤْذِنًا بِالْعَشِيَّاتِ

فَقَامَ الْجَمِيعُ لِلْوُضُوءِ وَبَعْضُهُمْ وَمِنْ تَعَبٍ يُبْدِي خُطًّى مُرْتَخِيَاتِ

لَهُ اللهُ مَا أَحْلَى الْفَرَاغَ مَعَ الْهَوَى وَمَا أَصْعَبَ الْجِدَّ الْمُقِيمَ عَلَى الذَّاتِ

وَمَا تَنْفَعُ الشَّكْوَى وَهَذَا إِمَامُنَا يُعِدُّ لِظُهْرِ نَفْسَهُ بِالتَّحِيَّاتِ

وَيَخْتَارُ مِنْ أَثْوَابِهِ زِينَةً بَدَتْ عَلَيْهِ ! وَمَا نَفْع الْمُرَقَّعِ رُقْعَاتِ

وَيَسْتَحْضِرُ الْجُمْهُورَ وَالرَّبَّ وَالَّذِي مِنَ المَلإِ الْأَعْلَى يُصَلِّي زُرَافَاتِ

عَلَى رَأْسِهِ عِمَامَةٌ جَلَّلَتْ لَهُ سَوَادًا وَشَيْئًا مِنْ مُبَيَّضٍ شَعْرَاتِ

وَيَعْرِضُ وَجْهَا مُشْرِقًا وَمُدَنَّرًا وَلِحْيَتَه الْمَلْمُومَةَ الشَّكْلِ لَمَّاتِ

فَمَا أَحْسَنَ الْإِمَامَ فِي الْقَوْمِ يَنْبَرِي إِلَيْهِمْ بِهَذَا السَّمْتِ مِثْل السَّرَاوَاتِ

وَمِثْلَ مُلُوكٍ مُقْبِلِينَ عَلَى الَّذِي لَهُمْ وَهَبَ الْقَبُولَ سَمْتًا وَنِيَّاتِ

إِلَى مَلِكِ الْمُلُوكِ يَدْنُو فَيَنْجَلِى لَهُ الْغَيْبُ بِالسُّجُودِ لله مَرَّاتِ

وَلَمَّا دَنَا مِنْ حَلْقَةِ الْبَابِ وَانْثَنَى إِلَيْهِ يَدُقُّ الْبَابَ دَقًّا بِضَرْبَاتِ

تَنَبَّهَ كُلُّ الْحَاضِرِينَ إِلَى الَّذِي عَلَيْهِم مِنَ الْقِيَامِ لله قَوْمَاتِ

وَقَبْلَ الشُّرُوعِ فِي الْإِقَامَةِ سَارَعُوا إِلَى الْجَهْرِ بِالصَّلَاةِ طُرًّا بِنَغْمَاتِ

عَلَى خَيْرِ خَلْقِ اللهِ والآلِ وَالَّذِي مِنَ الصَّحْبِ وَالسَّلَامِ شَوْقًا لِرَحْمَاتِ

وَمِنْ بَعْدِ ذَا قَدْ قَامَ فِي بَهْوِ جَامِعٍ نُشُوؤٌ لِحِفْظِ اللَّوْحِ جَمْعًا لِآيَاتِ
إِلَى أَنْ غَدَا ظِلٌّ كَمِثْلَيْهِ فَانْثَنَى مُؤَذِّنُ عَصْرِ يَصْطَرِيخُ بِأَهَّاتِ
فَأَلْقَى تَلاَمِيذ عَلَى التَّوِّ لَوْحَهُمْ وَقَدْ بُشِّرُوا بِالِانْفِكَاكِ لِسَاعَاتِ
وَهُمْ طَلَبُوا مِنَ الْفَقِيهِ مُهِمَّةً لِيُطْلِقَ قِوَاهُمْ مِنَ الأَسْرِ طَلْقَاتِ
يَؤُمُّونَ فِيهَا بِالوُثُوبِ مَقَابِرًا لِيَحْتَطِبُوا مِنْهَا بِدُونِ مَخَافَاتِ
مُغَامَرَةً سُنَّتْ لَهُمْ فَتَدَرَّبَتْ أَيَادِيهِمُ قَطْفًا وَنَتْفًا لِشَوْكَاتِ
بِدُونِ نُكُوصٍ أَوْ مُرَاعَاةِ طَارِقٍ أَوِ الْخَوْفِ مِنْ بَعْضِ الْهَوَام وَلَسْعَاتِ
حُفَاةً خَفِيفِي اللُّبْسِ لَيْسَ يَقِيهِمُ سَرَاوِيل أَوْ نِعَالُهُمْ وَسْطَ سِدْرَاتِ
فِيَا مَا أُحَيْلَى تِلْكُمُ الْخَرْجَةَ الَّتِي تُنَقِّلُهُم مِنْ حَالِ ذُلٍّ وَحَسْرَاتِ
إِلَى حَالَةٍ مِنَ الْوُثُوبِ عَلَى الَّذِي يُعَرْقِلُهُم طَوْرًا وَشَتَّى الصُّعُوبَاتِ
وها هي فِى أُفْقِ الْغُرُوبِ عُيُونُهُمْ تُخَبِّرُهُمْ طُرًّا بِقُرْبِ النِّهَايَاتِ
وَقَدْ جَمَعُوا إِبَّالَةً بَانَ شَكْلُهَا مَعَ الضِّغْطِ صَارَتْ فِي أَيْدِيهِمْ مِثْلَ حُزْمَاتِ
يَرُوحُونَ لِلْكُتَّابِ يَبْغُونَ أَجْرَهَا وَقَدْ قَفَزُوا عَلَى الْجِدَارِ زُرَافَاتِ
وَيَبْتَدِرُونَ الْمَغْرِبَ الْقَادِمَ الَّذِي يَلِيهِ حِسَابٌ بَعْدَ حِزْبٍ وَأَبْيَاتِ
وَمَقْرَإٍ أَجَزَاءٍ وَعَرْضٍ عَلَى الَّذِي يُحَاسِبُ لَيْلًا عَنْ نَقِيرٍ وَزَلَّاتِ
فَلَا تَسَلِ الْمَهْمُومَ عَنْ حَالِ هَمِّهِ يُرَاقِبُ لَيْلًا وَاعِدًا بِالْعُقُوبَاتِ
يَمَرُّ عَلَيْهِ الْوَقْتُ مِنْ بَعْدِ ذَا العَنَا وَمِنْ بَعْدِ عَرْضِ الْخُمْسِ وَالْعَشْرِ عَرْضَاتِ
وَحَتَّى إِذَا انْهَدَّ الْقُوى مِنْهُ وَانْثَنَى يُقَاوِمُ نَوْمًا خَائِفًا مِنْ رُجُومَاتِ
تَسَاقَطَ فِي رُكْنِ مِنَ الْمَوْقِدِ الَّذِي يُنَشِّرُ دِفْئَا فِي الْجُسُومِ بِطَاقَاتِ

فَلَمْ يَدْرِ كَيْفَ بَاتَ حَتَّى ارْتَمَى لَهُ ... مِنَ الْبَابِ سُعْلَاتُ الْفَقِيهِ قَذِيفَاتِ

وَصَوْتٌ يُنَادِيهِ الْقِيَامَ وَتَارَةً ... يُسَمِّيهِ بِاِسْمِهِ وَهَادِمِ لَذَّاتِ

فَيَحْمِلُ جِسْمَهُ سَرِيعَا يُجِيبُهُ ... نَعْمَ سَيِّدِي أَنَا مُجَمِّعُ هِمَّاتِي

وَمُمْسِكُ لَوْحِي بِالشِّمَالِ وَحَافِظٌ ... عَلَى ضَوْءِ نَارٍ شَكْلَ رَسْمٍ وَكِلْمَاتِ

وَعَارِضٌ حِفْظِى بَعْدَ حِينٍ عَلَيْكُمُ ... لَعَلِّى أَقْوَمُ لِلْمَمَاحِي الْقَرِيبَاتِ

كَذَا قَدْ مَضَى مِن اللَّيْلِ ثُلْثَاهُ هَكَذَا ... وَشَيْءٌ مِنَ الثُّلْثِ الْأَخِيرِ سُوَيْعَاتِ

وَلَمْ يَقْطَعِ الْحِفْظ الْعَسِير سِوَى امْرِئٍ ... يُوَسِّعُ لِلْإِلَهِ جَاهًا وَرَحْمَاتِ

يُؤَانِسُ تِلْميذًا وَيُشْعِرُهُ بِمَا ... يُقَرِّبُ مِنْ فَجْرٍ وَصُبْحٍ وَمِيقَاتِ

وَسِرٍّ بَدَا فِي اللَّيْلِ مِنْ رَبِّ نِعْمَةٍ ... تَنَزَّلَ لِلسَّمَا الْقَرِيبَةِ رُتْبَاتِ

وَمَدَّ إِلَى الطُّلاَّبِ كَأْسًا وَشَرْبَةً ... فَفَكَّ إِسَارَهُمْ مِنَ السَّهْوِ فَكَّاتِ

وَهَاهُم يَعْرِضُونَ حِفْظًا مُنَسَّقًا ... تَتَابَعَ مُسْرِعًا عَلَى رَغْمٍ وَقْفَاتِ

وَقَدْ بُشِّرُوا بِالْمَحْوِ لِلّوْحِ بَعْدَمَا ... تَحَصَّلَ مَا فِي الصَّدْرِ مِنْ حِفْظِ آيَاتِ

فَفُكُّوا مِنَ الْعِقَالِ وَانْدَفَعُوا إِلَى ... فَضَاءٍ مِنَ الْجَوِّ الْمَلِيءِ بِنَسَمَاتِ

وَهَاهُمْ خِفَافٌ كَالطُّيُورِ وَقَدْ غَدَوَا ... عَلَى لَوْحِهِمْ مَحْوًا وَغَسْلًا وَمَسْحَاتِ

وَصَلْصَالَهُمْ تَحْتَ السَّوَاعِدِ قَدْ غَدَا ... لَصِيقًا سَوِيًّا بَارِدَ اللَّسْعِ دَارَاتِ

هُنَالِكَ فَلَيَهْنَا سَبُوقٌ بِخَرْجَةٍ ... لِيُدْرِكَ مَا اسْتُبْقِيَ فِي قَعْرِ جَفْنَاتِ

فَيَبْدُو لَهُ رَغْمَ الْمَبِيتِ مُطَيَّبًا ... لَذِيذًا وَإِنَّ الْجُوعَ رَبُّ الْإِدَامَاتِ

وَهَاهُوَ يَسْمَعُ الْأَذَانَ أَخِيرَهُ ... فَيَشْعُرُ أَنَّ الصُّبْحَ قَامَ بِهَجْمَاتِ

فَيَحْمَدُ رَبًّا بَعْدَ عِتْقِ رِقَابِهِ ... مِنَ الْحِفْظِ كَالبَبْغَا وَمَحْضِ الْقِرَاءَاتِ

فَلَمْ تَمْضِ أَعْوَامٌ يَقِلُّ كَثِيرُهَا   عَلَى الذَّكِيِّ الْمِطْوَاعِ لِلشَّيْخِ طَاعَاتِ

إِذَا هُوَ فِي حَفْلِ بِحَذْقَاتِهِ غَدَا   يَصُولُ بِحِفْظِ الذِّكْرِ وَالرَّسْمِ صَوْلَاتِ

وَهَاهُوَ يُفْتِي لِلصِّغَارِ بِهِمَّةٍ   وَثِقَةِ شَيْخِهِ بِهِ فِي الْمُهِمَّاتِ

فَيَا مَا أُحَيْلَى بَعْدَ ذَلِكَ أَرْبُعًا   وَأَخْمِسَةً كَذَا أَصَابِيحَ جُمْعَاتِ

بِهَا خَلَا لِلطُّلاَّبِ جَوٌّ وَجَامِعٌ   يَسُودُ بِهِ نَطٌّ وَضَرْبٌ بِطَعْنَاتِ

وَأَلْعَابُ شِقْوَةٍ وَقَطْعُ مَسَافَةٍ   مِنَ الْجَرْيِ فِي السَّاحَاتِ وَالْبَرِّ مَرَّاتِ

وَسَعْيٌ خَفِيٌّ فِي تَخَطِّى مُحَرَّمٍ   عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَعْرَافِ وَالْفِعْلِ حُرْمَاتِ

وَكَمْ رَكِبُوا جُرْمًا غَلِيظًا تَعَرَّضُوا   عَلَى إِثْرِهِ يَوْمَ الْحِسَابِ لِحَمْلَاتِ

مَضَوْا مِنْ قَدِيمٍ فِي الزَّمَانِ عَلَى الَّذِي   تَقَدَّمَ مِنْ جُهْدٍ خَطِيرٍ رِيَاضَاتِ

سِوَى حُلْوِ عُطْلَةٍ وَحُلْوِ قَصَائِدٍ   يُمَتِّعُهُمْ بِهَا مَوَالِدُ سَادَاتِ

وَمَوْلِدُ خَيْرِ الرُّسْلِ مِنْ بَعْدِ عَاشِرٍ   لَيَالِيَ مِنْ شَهْرِ الرَّبِيعِ وَضِيئَاتِ

وَغَيْرِ لَيَالٍ مِنْ صِيَامٍ مَلِيئَةٍ   تَرَاوِيحَ وَدُرُوسَ وَعْظٍ عَشِيَّاتِ

وَمَا يَسْبِقُ الْعِيدَيْنِ مِنْ خَرَجَةٍ إِلَى   أَهَالٍ بِعَشْرٍ تَمْلَأُ الطِّفْلَ فَرْحَاتِ

وَغَيْرَ قِيَامٍ كُلَّمَا جَادَ بَعْضُهُمْ   عَلَيْهِمْ بِحَفْلِ الشَّايِ عِنْدَ الْعَشِيَّاتِ

وَهُمْ يُنْشِدُونَ مِنْ أَرْجَازِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِ   وَكَأْسُ الضُّحَى يَشْفِي الْعَلِيلَ بِشُرْبَاتِ

أَوِ الْجَمْعِ وَالْإِعْدَادِ لِلَّيْلَةِ الَّتِي   يُعِدُّونَ فِيهَا مِنْ طَبِيخٍ وَزَرْدَاتِ

أَوِ اللَّيْلَةِ الَّتِي تَلِي يَوْمَ خَتْمِهِمْ   لِسُلْكَةِ حِزْبِ الشَّيْخِ مِنْ نَفْحِ حَفْنَاتِ

مِنَ الدُّرَةِ الْمَقْلُوَّةِ الشَّكْلِ قَدْ غَدَتْ   بِأَفْوَاهِهِمْ كَاللَّوْزِ مِنْ فَرْطِ لَذَّاتِ

وَمَا يَنْبَرِي لَهُ التَّلَامِيذُ صَيْفَهُمْ   مِنَ الْخَرَجَاتِ لِلْمَوَاسِمِ تَارَاتِ

أَوِ السُّوقِ أَوْ تَأْطِيرِ حَفْلِ يَسُوقُهُمْ ... إِلَيْهِ الْفَقِيهُ فِي انْتِظَامٍ لِنَوْبَاتِ

أَوِ الْحَرْثِ وَالْحَصَادِ وَالدَّرْسِ عَنْدَمَا ... يُحَفِّزُهُمْ إِلَيْهِ شَيْخٌ بِخَرْجَاتِ

أَوِ النَّهْرِ يَعْلُو مِنْ قَرِيبٍ هَدِيرُهُ ... فَيُحْدِثُ فِيهِمْ فَرْحَةً إِثْرَ دَفْقَاتِ

فَلَا تَسَلِ الْخَوَّاضَ عَنْ حَالِ خَوْضِهِ ... وَعَنْ طعنة لِلْمَا بِرِجْلِ وَرَكْلَاتِ

وَمَا تَلِدُ الْمَرْجَاتُ عِنْدَ هُدُوئِهِ ... مِنَ الْعَلَقِ الْمُسْوَدِّ يَنْمُو بِفَتْرَاتِ

وَعَنْ نَقْنَقِ بِاللَّيْلِ وَاللَّيْلُ مُقْمِرٌ ... وَعَنْ قَفْزَةِ الضِّفْدَاعِ فِي حُلْوِ نَغْمَاتِ

وَعَنْ نَوْمَةٍ فَوْقَ السُّطُوحِ لَيَالِيًا ... مِنَ الصَّيْفِ أَوْ فِي بَيْدَرِ الزَّرْعِ تَارَاتِ

وَعَنْ مَوْسِمِ الشَّيْخِ الأَدُوزِيِّ صَيْفَهُمْ ... وَبَعْدَ دُعَاءِ الْكُلِّ بِالْخَيْرِ مَرَّاتِ

هُجُومًا عَلَى الثِّمَارِ وَالنَّاظِرِ الَّذِي ... يُحَاوِلُ أَنْ يَصُدَّهُمْ بِالْقَذِيفَاتِ

وَقَدْ أَذَّنَ الأَدُوزِيُّ الْحَبْرُ فِيهمُ ... فَأَمْسَوْا عَلَى الْكُرُومِ جَنْيًا وَصَرْمَاتِ

فِيَا رَبِّ فَارْحَمْ سَيِّدًا بِصَنِيعِهِ ... بِهِمْ يَوْمَ يَبْدُو فِيهِمُ بِالْبِشَارَاتِ

وَطَلْعَتُهُ الْمُضِيئَةُ الشَّكْلِ فِيهِمُ ... وَصَيْحَتُهُ فِيهِمْ بِتَعْلِيقِ لَوْحَاتِ

وَمُزْحَتُهُ الْغَرَّا مَعَ الشَّيْخِ عَازِمًا ... عَلَيْهِ بِذَا التَّحْرِيرِ وَالْعِتْقِ سَاعَاتِ

بِهَذَا الْمَسِيرِ سَارَ مَغْرِبُنَا عَلَى ... عَدِيدِ الْقُرُونِ دَارَ مَقْرًى وَحَذْقَاتِ

وَقَدْ حَفَلَ الْقُرَى مَعَ الْمُدْنِ بِالَّذِي ... تَوَاتَرَ مِنْ حِفْظٍ عَلَى حِينِ عُجْمَاتِ

تَنَقَّلَ مُقْرِئُونَ فِيهِ إِلَى الْقُرَى ... وَزَادُهُمْ لَوْحٌ وَصَمْغٌ بِخَيْشَاتِ

فَأَصْبَحَ هَذَا الْيَوْمَ فِي كُلِّ مَسْجِدٍ ... إِمَام أَصِيلٌ مُنْجِدُ فِي الرَّزِيَّاتِ

يُؤَطِّرُ أَقْوَامًا وَيَخْطُبُ فِيهِمُ ... وَيَحْضُرُ أَعْرَاسًا لَهُمْ وَالْوَكِيرَاتِ

وَيُقْرِئُهُمْ فِقْهًا وَعَقْدًا كَذَا الَّذِي ... يُؤَثِّرُ فِيهُمْ مِنْ مَوَاعِظَ جُمْلَاتِ

وَيَغْسِلُ مَوْتَاهُمْ وَيَقْرَا رَسَائِلًا ... لَهُمْ مَعْ مَعَاقِدِ الْبُيُوعِ الْوَثِيقَاتِ
وَيَفْصِلُ فِي النِّزَاعِ فَصْلًا مُفَضَّلًا ... عَلَى حُكْمِ قَاضٍ فِي عُيُونِ الْجَمَاعَاتِ
وَيُؤْوِي ضُيُوفًا وَافِدِينَ لِقَرْيَةٍ ... إِذَا لَمْ يَجِدْ كَرِيمَ دَارٍ وَجَفْنَاتِ
وَيُحْيِي لَهُمْ لَيْلَ الْقِيَامِ صَلَاتَهُمْ ... تَرَاوِيحَ قُسِّمَتْ عَلَى اللَّيْلِ دَفْعَاتِ
أَوَاخِرُهَا مِثْلُ الْأَوَائِلِ أُنْشِئَتْ ... قُبَيْلَ الصَّبَاحِ ثُمَّ بَعْدَ العَشِيَّاتِ
وَيَحْفَظُ مَذْهَبًا عَرِيقًا وَمَالِكًا ... وَمَقْرَأَ نَافِعٍ قَدِيم اخْتِيَارَاتِ
بِهِمْ وَصَلَ الرَّسُولُ نَفْسًا وَهُمْ لَهُ ... إِلَيْهِ بِسُنَّةِ التَّعَاوُنِ بِالذَّاتِ
وَقَدْ حَفِظُوا أَيْضًا أَذَانَ بِلَالِنَا ... مِنَ اللَّحْنِ وَالْمَمْجُوجِ مِنْ بَعْضِ نغمات
كَمَا حَفِظُوا رَسْمًا قَدِيمًا وَكُوفِيًّا ... مِنَ الْخَطِّ وَالتَّرْتِيبَ فِي الْحَرْفِ رُتْبَاتِ
وَجُمْلَةَ أَفْعَالٍ مِنْ أَعْمَالِ مَالِكٍ ... وَأَهْلِ مَدِينَةِ الرَّسُولِ عِبَادَاتِ
وَتَرْتِيبَ أَبْجَدِيَّةٍ عُرِفَتْ لَهُمْ ... قَدِيمَةِ تَرْتِيبٍ عُهُودًا عَرِيقَاتِ
وَمَا شِئْتَ مِنْ شِيَاتِ ثَوْبٍ وَعِمَّةٍ ... نِعَالُهُمُ صُفْرٌ فَوَاقِعُ غُرَّاتِ
وَأَقْمِصَةٍ بِيْضٍ وَخُضْرٍ وَمِحْزَمٍ ... جَلِيلٍ وَطَرْبُوشٍ بَهِيٍّ بِلَفَّاتِ
وَلِحْيَتُهُمْ وُسْطَى فَلَا هِي نَشْرَةٌ ... نَشَازٌ وَلَا تَبْدُو نُفُورًا كَمِخْلَاةِ
وَعِلْمُهُمْ جُهْدٌ دَؤُوبٌ وَهِمَّةٌ ... وَنُطْقُهُمُ الْفُصْحَى لُغَاتٍ صَحِيحَاتِ
وَأَمْرُهُمْ شُورَى وَطَاعَتُهُمْ رِضًى ... وَحُبُّهُمُ كَأَعْرَقِ الطِّيبِ نَفْحَاتِ
يُحِبُّونَ عِتْرَةَ النَّبِيِّ بِشِدَّةٍ ... وَقَدْ آثَرُوا آلَ الرَّسُولِ بِطَاعَاتِ
وَلَمْ يَخْضَعُوا لِلشَّرْقِ وَالْغَرْبِ إِنَّمَا ... عُهُودُهُمُ اِسْتِمْرَارُ مُلْكٍ وَدَوْلَاتِ
وَهَا عُلَمَاؤُهُمْ عَلَى سَلَفٍ مَضَوْا ... عَلَى رَغْمِ لَاحٍ لَاحَ بِالْخُلْفِ بُرْهَاتِ

فَلَا هَزَّهُمْ إِرْجَافُ دَعْوَى وَنِحْلَةٌ   وَمَهْدِيَّةٌ تَجْتَاحُ غِرًّا وَزُمْرَاتِ
شُيُوخُهُمُ فِي ذَاكَ عَمُّوا مَشَارِقًا   وَإِفْرِيقْيَا وَالْغَرْبَ هَدْيًا وَسُبْحَاتِ
يَبُثُّونَ حُبًّا لِلرَّسُولِ وَذِكْرُهُمْ   حَلَالٌ زُلَالٌ يَشْحَنُ الْقَلْبَ شَحْنَاتِ
وَقَدْ فَتَحُوا أَقْصَى الفِلِبِّينَ وَانْتَحَوْا   إِلَى جُزُرِ الشَّرْقِ الْبَعِيدِ بِرِحْلَاتِ
وَهَاهُمْ زَوَايَا فِي الْبِلَادِ بِأَسْرِهَا   خَلَايَا مِنَ الذِّكْرِ الْمُشِعِّ بِطَاقَاتِ
وَعِنْدَ مَضِيقِهِمْ تَقَابَلَ مَالِحٌ   وَعَذْبٌ مِنَ الْعِلْمِ اللَّدُنِيِّ مَوْجَاتِ
حَدِيثُ الرَّسُولِ فِيهِمُ فَاحَ نَشْرُهُ   وَمَتْنُ المُوَطَّإِ وَالمسَانِيدِ بِالذَّاتِ
وَقَدْ بَحَثُوا فِي الْفِقْهِ بَحْثًا مُبَرِّزًا   وَقَدْ قَبَسَ الْقَانُونُ مِنْهُ مَجَالَاتِ
وَقَدْ رَحَلُوا إِلَى الْحِجَازِ وَغَيْرِهِ   قَدِيمًا كَمِثْلِ النَّحْلِ يَمْتَصُّ زَهْرَاتِ
يُحَوِّلُهَا غَرْبِيَّةَ الذَّوْقِ وَالْهُدَى   يُنَزِّلُهَا تَنْزِيلَ نَصٍّ بِبَيئَاتِ
فِيَا رَبِّ فَارْحَمْ شَيْخَنَا الْأَوَّلَ الَّذِي   قَدِ اِحْتَضَنَ الطِّفْلَ الْغَرِيرَ سُنَيَّاتِ
هَمَّانِيَ نِسْبَةٍ عُوَيْنِيَ جَوْلَةٍ   أَبٌ مُخْرِجٌ لِلنَّشْءِ مِنْ ذِي الْجَهَالَاتِ
وَجَازِ مَشَايِخًا بِدَارِ حَدِيثِنَا   وَمَنْ قَدْ لَقِينَا مِنْ حَجِيجٍ بِعُمْرَاتِ
وَمَنْ قَدْ صَحِبْنَا فِي مَجَالِسِ جَامِعٍ   ابْنِ يُوسُفَ أَوْ فِي فَاسَ مِنْ أَهْلِ طَاعَاتِ
وَمَنْ قَدْ رَبَانَا بِالثَّوَاءِ لَدَيْهِ فِي   مَدَاغَ سِنِينَ فِي رِيَاضٍ وَحَلْقَاتِ
وَمَنْ قَدْ صَحِبْنَا فِي دُرُوسِ إِمَامِنَا   مِنَ العُلَمَاءِ الْكُثْرِ شَهْرَ المَزِيَّاتِ
وَمَنْ قَدْ لَقِينَا عِنْدَ فَاسَ وَسُوسِنَا   وَتِطْوَانَ وَالْحَمْرَا رِجَالَ كُلِّيَاتِ
وَمَنْ بِمَجَالِسِ الْعُلُومِ مِنَ الْأَعْضَا   وَمِنْ قَيِّمِينَ دَيِّنِيِّينَ سَرَاوَاتِ
وَمَنْ قَدْ أَخَذْنَا مِنْهُمُ فِي صَحَائِفٍ   مُنَاوَلَةً أَوْ مَقْرَءًا وَوِجَادَاتِ

وَمَنْ قَدْ أَجَازَنَا بِوَاسِطَةٍ وَمَنْ ... دَعَا لَنَا بِالتَّوْفِيقِ شَيْخًا وَشَيْخَاتِ
وَمَنْ أَشْرَفَ الْإِشْرَافَ كُلاًّ وَبَعْضَهُ ... عَلَى عَمَلٍ لَنَا بَطِيئِي الْخُطُوَاتِ
وَمَنْ قَدْ صَحِبْنَاهُ عَلَى طُولِ فَتْرَةٍ ... مِنَ الرُّؤَسَا فِي الْعِلْمِ وَالْحُكْمِ بُرْهَاتِ
وَمَنْ قَدْ أَضَافَنَا سِنِيْنَ وِزَارَةً ... وَسُلْطَانَنَا الْإِمَامَ مُحْمُودَ فَعْلَاتِ
وَمَنْ قَدْ شَكَرْنَاهُ بِمِدْحَةِ صَادِقٍ ... مُحِبٍّ لِأَعْمَالٍ لَهُ وَمَعَ الذَّاتِ
وَمَنْ صَاحَبَ الْعَبْدَ الضَّعِيفَ لِفَتْرَةٍ ... تَطُولُ مِنَ الرِّفَاقِ وَالصِّهْرِ بُرْهَاتِ
وَجَازِ قَرَابَةً لَنَا وَمُرَبِّيًا ... مِنَ الْوَالِدَيْنَ فِي الْجِنَانِ بِرَوْضَاتِ
وَجَازَ مَرَاحِمًا لَنَا وَعُمُومَةً ... وَعَائِلَةَ الشَّيْخِ الْأُبْوَتِّيِّ بِجَنَّاتِ
كَذَا زُمَلَاءَ الدَّرْسِ قِدْمًا وَمَنْ إِذَا ... نَسِينَا اسْمَهُمْ فَهُمْ حُضُورٌ بِنِيَاتِ
وَصَلِّ إِلَهِي تَارَةً بَعْدَ تَارَةٍ ... عَلَى خَيْرِ خَلْقِ اللهِ دُونَ نِهَايَاتِ[1]

---

(1) نشرت أولا على الفايس في صفحة محمد البايك، ثم صدرت مطبوعة في شكل ديوان صغير، بمراكش مطبعة ووراقة المنصور 2019 / بعنوان : (أحفاد شاكر بين المحراب والكتاب).

لطائف وطرائف ومواقف
من ذكريات الكُتاب الأول بالعوينة
(تمزگدا الجامع)

تعتبر "تمزگدا الجامع" بالعوينة الخلية الكبرى للأحدث في العوينة محيطها وما حولها، ولمن يرد إليها بسبب اتخاذها منطلقا وموردا لأفراد القبيلة وغيرهم يوميا وأسبوعيا وموسميا وسنويا تصنع فيها مصائر (المحاضر) وثقافتهم الأولى، وشخصياتهم ومواقفهم وكذا مصاير (أحداث القرية المشتركة) من لقاءات طارئة، ومناسبات دينية وغيرها، ولقاءات بين الأفراد والجماعات، ومستراح للمتعبين والمصلين والضيوف، وباعة السمك واللحوم والتبن والعطارين واليهود المحترفين لمختلف المهن الحيوية، وللجماعة المشارطة للطالب من آل العوينة، والقائمين بنوبات إطعام المحاضر، ونوبة الطالب، وجامعي الشرط السنوي من حبوب وتبن وزكوات، وزبدة كثيرة تجمع من الدوار وتكركر في المركع فوق الأرض المجصصة لتعد للإذابة وتتحول إلى سمن للاستدامة طويلا بدلا من تمليحها؛ ومن موتى يغلسون، ويصلى عليهم، وقاصدي (الطالب) وخاصة منهم الشيخ موسى، وأخاه المحفوظ، وسيدي عبلا الأدوزي، والعلامة سيدي محمد ابنه الذي درس بالقرويين، وتبنى الفكر الوطني بسوس فحسب له الشيخ والمسئولون الفرنسيون والشيوخ ألف حساب، وراقبوه وتتبعوا خطواته، وهو ينتقل بين المدارس العتيقة بآيت مزال، والمدارس الفرنسية ببوزكارن وتيزنيت، خوفا من أن يعدي بهيئة خريجي القرويين الجديدة بسوس صغار الطلاب والتلاميذ،! إلى أبسط وأصغر القوم، ومن طراء على القرية يسمون (بِالْمَسِيْحِيِنْ) أَو يسمون اليوم (إِشَانْطَوِيْنْ) وآخرين مغرمين بكرة القدم مع (المحاضر) وفتيان يتقرب إليهم المحاضر عليهم سمياء ممارسة الصيد والسباحة والفلاحة والمغامرات، وزوار رحلوا إلى الخارج

وخاصة فرنسا وتونس والبيضاء وتيزنيت وما إلى ذلك من عجائز يكنسن جنبات المسجد، ويقدمن الطعام المسمى (بالمعروف) ومؤذنين يعلنون أخبار وأوامر السلطات بتيزنيت حول (الضابط) و(التلقيح) الذي ظهر لأول مرة بقرية العوينة، فملأ الدنيا، وشغل الناس، وتفريق (البون) والإعلان عن (حد الصائم) للسخرة في الأشغال المتعلقة بإصلاح الطريق، وكنس خطارات العين، أو إعداد الخيل من قبل فرسان القرية للاشتراك في الاستعراضات الرسمية أيام الأعياد الدينية بالمشور الحسني السعيد أو غيرها من المناسبات.

وما إلى ذلك أيضا من مناسبة طارئة وأخرى منظمة، وخاصة موسم سيدي عبد الله الأدوزي والذي تتهيأ له القرية ماديا ومعنويا يسوقون عجلا مشتركا رافعين عقائرهم بمثل قولهم (مُحَمَّدْ أَبُو الَانْوَارْ، الصَّلَاتْ عَلَيكْ الرسول، إِعْزَّاكْ الْبَارِئ تعالى، إِمْقُورْ الشَّانْكِي يا الله يا الله يالعزيز يا ربي) إلى أن يصلوا إلى (الأوبار) ومساكن إِدْ سيدي عبلا، قاطعين الوادي الصغير، ومنه إلى بسيط طويل عريض إلى أن يصلوا إلى ضفتي (أدودو) يقطعونهما في حماسة وتشمير وهيللة وأذكار، لتقديم الهدية إلى أسرة الولي الصالح، صانع السلم والاتفاقيات الكبرى، والمواثيق الغليظة بين أهل العوينة وغيرهم، في أمور من نزاعات العين والساقية والحرب والسلم، متذكرين هذه المناقب في صور يبرز فيها الصهر المرحوم سيدي عبلا حفيد الشيخ، في استعداد للاستقبال والاستضافة بداره الكبرى الفسيحة الأرجاء للاطعام والإذن للمحاضر الفرحين به وبالمناسة للإغارة على بساتين القرية صرما وقطعا لثمارها مساء ذلك الخميس العطلة! معلنا الطلقة الصوتية الأولى لهم (يالله أيمحضارن فِيَاعْ فِيَاعْ وإياكم والسيبة) فينطلقون كالسهام ويكون نصيب هجومهم الأول على بحيرة أحد أخوالي (أحمد أُعْلِي نِدْ عمر) الذي يكون مستعدا لهذا الهجوم بكليته، ومع ذلك لم يسلم من ضربات إيمحضارن على أم رأسه وتدميته في بعض الأحيان رحمه الله.

ذكرى البروز لاستقبال الوفد القافل من الحج برئاسة الحاج موسى وسيدي عبلا، والفقيه سيدي علي أبت، والحاج المحفوظ، والفقيه سيدي إبراهيم أعبد العزيز الأدوزي فقيه المدرسة العلمية سيدي بوعبدلي سنة 1945

لا أزال وأنا في الخامسة من عمري متذكرا لهذه المناسبة المفرحة، حيث أعلن المحاضر، برئاسة زعمائهم وعرفائهم النفير للخروج إلى ظاهر العوينة، مبعدين النجعة ومسرعين إلى طريق تيزنيت، يقطعون اليابسة في غير مبالاة بالحفى والحصى والعقبات، قاطعين وادي أدودو، عند دار سيدي موسى، ومارين على (إِگِّي نْ السبت) وبستان (إد هرهاش) ومصعدين إلى طريق السيارات والشاحنات والدراجات والأنعام، مشرئبين إلى ظهور أول علامات غبار الشاحنة التي تواكب سيارة الوافد من الخلف، والتي تضم كلا من الحجاج: موسى بن الطايفور، وسيدي عبلا الأدوزي، وسيدي علي أبت، والحاج المحفوظ بن الطايفور، والفقيه سيدي إبراهيم أُعبد العزيز الأدوزي ومن معهم من المرافقين، وقد عزم الجميع على تحزيب القرآن الكريم، ورفع العقيرة بالصلاة على رسول الله في مثل قولهم. الصلاة والسلام عليك ياسيدي يارسول الله. ثلاثا. أجاه النبي !.

وقولهم: مرحبا. مرحبا. بحجاج للا مكة. بزائرين الرسول

ومتبعين ذلك ب (ءامن الرسول. إلى أوخر سورة البقرة)

وربما رمى بعضهم إليهم تمرا من شدة الفرح، يلتقطونه فرحين ومصرين على الإحاطة بالسيارة والشاحنة غير مكتفين بذلك، والحاج موسى، وسيدي عبلا، يأمران

السائق بتخفيف رجله على (الدواس) حتى لا يثير المزيد من العجاج علينا دون نتيجة تذكر! وهم مشتدون بالإصرار على الالتصاق بالموكب والتعلق بأواخر الشاحنة مما أضطر معه الحاج لحفوظ إلى ممارسة عادته الحاسمة للأمر، فأمر السائق بمزيد السرعة مما تسبب في سقوط أو تساقط جل المصرين على التعلق إلا واحدا هو: الزميل سيدي عبد الله أبواتي والذي لم يتمكن من وضع قدميه على اليابسة فامتص من أدخنة (المازوط) ما جعله يلقي بنفسه وبكليته إلى اليابسة مغمى عليه. مما أضطرنا إلى محاولة إنعاشه، تاركين الوفد يتم الطريق بسلام.

ويوم حذاق القرآن للمحضار
(سِّي الحسين أُعْبْدْرْحْمْ)

ومن ذكريات كُتَّابِ "تِمْزْكِدَا الجامع" التي لا تُنسى، يوم حذاق القرآن الكريم للمحضار المميز (سي الحسين أُعْبْدْرْحْمْ) ذي الملامح الجادة والهدوء المميز وتقدم السن بالنسبة إلى بقية المتابعين لمسيرة حفظ القرآن الكريم الأولى، والذي ميز هذا الحفل الذي ابتدأ بعد صلاة العصر في انطباعاتي شيئان: أحدهما أنه أول حفل أحضره، وأتملى بأدبياته وشعاراته الخاصة، وحديث المحاضر قبل إبانه من يوم الأربعاء، مما أضفى عليه من المشاعر طابعا لا ينسى، حتى إنه أنساني يوم الاحتفال بحذاقي للقرآن الكريم في نفس المكان، بعد سنوات سبع، فلم تفارق تلك الفرحة شعوري نحو هذا المحضار المميز بهذه التسمة آنذك (سي الحسين) بجديته من جهة وحسن أدابه واستعداده من جهة.

والأمر الثاني، وهو من الأهمية بمكان، ما أظهره والده من البشاشة والفرح والبروز للمناسبة وسط الجميع بما حمله من جفنة فخارية ملئت بمأدبة التخرج والحذاق، وهي عبارة عن عصيدة خاصة معمولة بالزيت ودقيق الشعير المنخول، تصنع لهذه المناسبات ويتولى (الطالب) بعد قراءة ما على اللوح من أبيات وآيات ورموز، والدعاء للمحضار سي الحسين وللمحاضر بالفهم والحفظ، والحضور بمثل ذلك بفتح قريب، يتولى (سيدي علي) بنفسه تلقيم المحاضر واحدا واحدا مناديا كل واحد باسمه لقمة عظيمة مدهونة ساخنة يجدها ألذ من كل لذيذ من الأطعمة المعتادة في مناسبات القرية رغم تنوعها وتعدد أصنافها، والمحضار يشعر لأول مرة بأبوة سيدي علي وحبه له وبالفتح القريب على يديه وبتلقيمه طعام الفتح والحفظ والبركات! وقد كانت شخصية والد سي الحسين محببة للجميع، بسلهامه النظيف وسمرة بشرته المقبولة ورقة حواشيه وكأنه فقيه النفس، وإن لم يكن بالفقيه، ولكن كان نبيها حاذقا ظهرت شخصيته المهمة وسط القرية بعد ذلك في تدخلاته المستمرة في المنازعات والدعاوي المقامة بين يدي القاضي (سيدي أحمد أعمو) وذلك لتقدم سنه من جهة، ولمعرفته بتفصيلات الحدود والورثة والأنصبة من جهة أخرى؛ فقضى بقية عمره مترددا بين محكمة القاضي بتيزنيت، وبين قرية العوينة، بعد أن غاب عنه سي الحسين أعواما في بلاد الشاظمة ناحية (أقرمود) وتزوج هناك، ولم يعد يظهر في القرية إلا نادرا، ويكون لحضوره بيننا وسمره معنا وقع كبير، وفرح عظيم.

وَكُتب لوالده هذا أن يكون القدر قد ساقه ذات مساء بعد أن ضعف بصره، وهو يقطع عشرات الكلمترات، بين العوينة وتيزنيت، جيئة وذهبا، إلى السقوط في مهواة وجد بها وربما بسبب تنزهه عن الطريق لقضاء الحاجة وقد فارق الحياة رحمه الله، وكان يغشى الوالدة فتكرمه وتسأله عن نزاعات وأمور من هذا القبيل، فكان

يتردد في القطع بالحكم مداراة لها واحتياطا من تصريحاته حتى لا يؤخذ بها وإن لم يخل من إشارات وتلميحات تدل على خبرته في هذه الأمور، رحمه الله. وكان بعض من حضر هذا الحفل من محاضر الكتاب وهم كثر أذكر بعضهم من الوافدين ومن أبناء العوينة كالتالي :

الوافدون من تيزنيت (وترجمة سيدي احمد اعمو أستاذي بمسجد الجامع الكبير):

ابرهيم حويس / محمد حويس / عبد الله حويس / مولاي الحسن بن الخنفار / مولاي الحسن برباق / مولاي احمد برباق / محمد أراضي / أوبتي عبد الله / أوبتي محمد / أوبتي حسن / مولاي علي بالخنفار / مولاي الحسين هوصاص / عبد اللطيف أعم. وهو الذي زودني هاتفيا بنظرة عن والده الذي أخذت عنه وهو العلامة سيدي أحمد أعم في مسجد الجامع الكبير بتيزنيت وكان مدرسا به وناظرا في الوقت نفسه لمحكمة تيزنيت والاقليم من مواليد (1326 هـ / 1908 م) تلقى القرآن من كتاتيب تيزنيت وانتقل الى أدوز مع بعض الاعلام كسيدي علي أوطاهر وسيدي عيسى الأدوزي وسيدي محفوظ الأدوزي وسيدي علي أبت الهماني ثم استكمل بفاس سنوات ورجع إلى مسقط رأسه تيزنيت فعين ناظرا بأحباسها ثم قاضيا قبل الاستقلال وقد أقالته الاقامة العامة لوطنيته وبعد الاستقلال أعيد تعيينه قاضيا ومدرسا في نفس الجامع وأخذت عليه بعض المتون وتولى الاحكام بعد وفاة القاضي المصلوت وله أحكام وفتاوى وطرر على هوامش الكتب التي درسها وعلى غيرها نشر بعضها وقد ترجم له أستاذي محمد المختار السوسي مثل خلال جزولة والمعسول وغيرهما وأقيمت ندوة في عين المكان تناولت سيرته بتفصيل بحضور نجله هذا.

وهو من أسرة اشتهرت بالقضاء وكان أخوه محمد قاضيا أوائل القرن الماضي وله أبناء وبنات وأصهار منهم : الرئيس والمنتخب والمستشار وأخوه الاستاذ بالجامعة القاضي والرئيس الأخصاصي.

ومن الوافدين على كتاب الجامع من أيت برييم :

حويس محمد / حويس سعيد / حويس محمد أبيهي / ابراهيم أتفراوت / العسري محمد / گويگالفن.

ومن الساحل :

ابراهيم بوگصعة .

ومن الأسر العوينية :

سي مبارك ندمحماد / العربي بوميا / محمد الركيبي (الراجل) / الحسين أعبدرحم / مولاي احمد الادوزي / مولاي عبد الرحمان الادوزي / مولاي الحسين الادوزي / مولاي الحسن الأدوزي / مولاي امحد الأدوزي / الحسين بنسي احماد ألحسين / سيدي الحسين ندسيدي العربي / الحسين هبان / سي احمد أبلخير / محمد بلقايد / محمد أهرهاش / احمد أعمارة /وأخوه مبارك / أمجوض أومغار إيزلا / محمد أبربو / أضرضول ندعبون (منعه الصمم من الحفظ) / عمر أعمر نداهوز / الحسين ندلمودن / محمد ندومغار /الحسن ندومغار / أودوتركا / سي بلحسن أمترز.

٨

ذكريات طفل بين الوادي والساقية والعين الفياضة والحقول والزيتون و(إِنْفْلَاسْ) وسنة وضع (المينا) والمتفجرات وسط صخور (أدُودُو)

لا يزال ماثلا أمام أعيننا وعلى مرمى قدم مِن "تِمْزْكِدَا الجامع" ومن أحداث الكُتاب الموشومة في ذاكرة الطفولة إلى اليوم، ما أحدثه تفجير (المينا) أو الديناميت وسط صخور (أدودو) قرب بستان الحاج موسى المراد دعمه بالحجارة الضخمة خوفا من الانجراف على الضفة اليمنى، وقريبا من المسجد الجامع، ونحن نكاد تصطك أسماعنا ولأول مرة بتفجير يتلوه تفجير بعد الظهر غالبا، وبعد أن يكون اختصاصيو التفجيرات قد حفروا الأثقاب منذ الصباح، ثم غرزوا فيها أصابع الديناميت الموصولة بحزام يمتد إلى البعيد، يسمى (الْمِيشْ) آنذاك، ثم إشعاله بعود الثقاب، بعد أن تكون صفارة الإنذار التي نسمعها لأول مرة قد أطلقت ليبتعد القاطعون للوادي، ومعهم دوابهم وما حملته، وقد أنذروا قبل الانفجار، ونحن نتتبع هذه التفجيرات يوميا ونلحظ أدنى حركة لتسوية الصخور المنفلقة قصد تكوين أساس على الضفة اليمنى لبستان الحاج موسى (تُورْتِيتْ) والمشهورة ب (جَرْدَا أُمغار) إلى اليوم. وعلى خلاف سائر البساتين والبحائر التي تمتد على يمين الوادي والمعرضة للانجراف، عند اشتداد وحملة وادي أدودو والمعزز بوادٍ آخر، لا يقل عنه عند مدخل القرية، حيث يلتقيان أحيانا في حركات صبيب واحد تصطدم مياههما لتلغب الأمواج الأقوى مؤقتا، ثم تتلاءم حركتهما في صبيب واحد، يرتفع حتى يصل إلى البساتين المحادية ليحدث فيها فيضانا لا يكاد يخلو من انجرافات، وقد طوّر الحاج موسى هذا البستان وقواه بهذا الصنيع، وبجدار صخري يصد أمواج الوادي من جهة، ويترك مسافة مضمونة ملأها بالقصب

المغروز في أعماق التربة زيادة في تثبيتها، ثم عمد إلى الأشجار المستوردة من جهات مختلفة بواسطة معارفه، فجلبها وغرسها، وقام بعملية تطعيم بعضها، وخاصة البرتقال الرومي، بالبرتقال الحلو الأصفر، المسمى ب الأترج، أو (الليم)! ليتولد منهما مذاق معتدل الحلاوة والحموضة، امتازت به هذه التربة يهدي منه الشيخ للنخبة أولبعض الأسر والضيوف، وقد أصبتُ بعضه، وأنا أزور القرية بعيدا بمراكش بعد الاستقلال.

وكان الوالد فيما بعد، وقد استقر سنوات (1949- 1953) بالبيضاء، قد جلب للحاج موسى من مراكش شجرة (رجل الغراب) أو (العطرشة) ولم تكن معروفة في سوس، وكان الشيخ موسى يتذوقها مع الشاي، عند مقدمه إلى معارفه بمراكش، فحرص على جلبها إلى العوينة، وقد رأيت أصولها المنقولة عند الوالد بالدار البيضاء في هذه الفترة، وهو يهيئها للإرسال إليه، وكان الوالد يزور إحدى عماتي بمراكش (فاضمة به) ويتصل بأصدقاء زوجها (الرايس المختار) رحمه الله وقد يحيون عند الباشا بمراكش الحاج التهامي سهرة (الروايس) فيحدث الوالد الوالدة، وأنا في حوالي التاسعة أسترق السمع عن هذه الأجواء التي أسمع عنها ولأول مرة.

ولم تخل عملية دعم حديقة الشيخ موسى بالحجارة الصلبة من بعض حوادث تقع لبعض أغرار الشباب عند الاقتراب، فربما أصيب بالشظايا والجراحات مما استلزم من المحاضر وهم يشرئبون بقاماتهم ويشمون رائحة (المينا) ولأول مرة! مزيدا من الحذر والخوف، وقد كتب لنا فيما بعد زيارة هذه الحديقة والجلوس تحت أشجارها، وقطف بعض ثمارها، وجلب النُّعْنُع الممتاز المشهورة به مدينة تيزنيت ونواحيها منها. وكان الحاج موسى ربما استعان (بإمحضارن) عند هجوم الجراد على الهش لإبعاد الجراد فكانوا يعمدون إلى فواكه الحديقة قطفا وأكلا وخبنة، فربما فعلوا أكثر مما يفعله الجراد!، وقديما قيل:

(إن الطلبة من الجوائح السبعة!؟) وكان الطلاب عند ما يجتمعون في بعض أعصر الأسابيع قصد إعداد كأس العصر ينشدون عن هذا النعنع مثل قولهم:

وما أفضل الأتاي إلا مكركب   وما أفضل النعناع إلا الدراديل

والدرادل نسبة إلى هذه العائلة بتيزنيت الشهيرة بعنايتها بإعداد حقول النعناع الأخضر الممتاز وكذلك قولهم:

وكأس الضحى يشفي العليل بسرعة   إذا كان ممزوجا بالنعناع الأخضر

وكانت بعض الجدات عند الضحى إذا لم يجدن سكرا أو شايا تشتكين من الصداع، مشيرات إلى أنهن لم يتناولن الشاي بعد، فإذا تناولنه ذهب ذلك الصداع كله! وكن يعمدن إلى مختلف الأساليب، لجلب (السكر) ومن ذلك مقايضته بحفنات من ذرة أو شعير، رحمهن الله، وكنت أشاركهن في قطع من السكر اقتصر عليها دون شرب الشاي، كما كان المحاضر عند العصر يعمدون إلى زيارة بعض القادمين إلى القرية ملتمسين ثمن قالب أو نصفه من السكر، ومعه (عمارة) من الشاي، مع الدعاء لصاحب هذه المبادرة، وقد شعروا بكثير من النشاط يسري في ثنايا أدمغتهم وأجسادهم المكدودة ليوظفوها في المزيد من الألعاب والمزاح والشيطنات التي لم تكن أدمغتهم تقف عن ابتداعها تخفيفا من وطأة نظام الكتاب الصارم الدقيق والمستمر أربعا وعشرين ساعة، لا يتخلف إلا قليلا ليلتي الخميس والجمعة.

ثم اشتهر نعناع المنطقة وانتشر في الآفاق بواسطة الحافلة والشاحنات والطائرات، وكان الوالد "رحمه الله" ونحن في الدار البيضاء عقب هذه السنوات (1949 - 1953) من الطفولة، يبعث بي إلى ساحة (گراج علال) لجلب أصناف النعناع إلى المقهى المتوسط للساحة الكبرى بدرب البلدية، فأختار من أصنافه (التيزنيت ي والزياني

والبروج) خاصة، وتصل أصنافه تباعا في الغِرارات[1] أوالأكياس، أو الحزم الضخمة آنذاك، منذ الصباح الباكر، كما كنا ونحن طلاب ب (ابن يوسف) بعيد الاستقلال سنوات الخمسينات من القرن الماضي، نبحث عن إعداد الشاي برياض القاضي البزيوي بدرب مولاي عبد القادر، قريبا من القصابين والبياضة، عن رجل سوسي نحيف طوال يتلبد في نهاية الدرب في درجِ مقهى ضيق ينتظر من يبيعه حزمات صغيرة ملفوفة في ورق (خشن) يضم عددا قليلا من أعواد النعناع التيزنيت ي النفاد الرائحة والمذاق والنكهة، وتباع بدرهم فأقل وثمنها مرتفع إذا ما قيس بنعناع ضواحي مراكش ومسفيوة آنذاك، ومن طرائف ما سمعت عن نعناع تيزنيت أن أحد زوار نيويورك من المغاربة اشتاق إلى شرب الشاي المغربي المنعنع فبدأ يهيم في شوارع العاصمة حتى ظهر له يهودي أمام متجره فناداه هل أنت مغربي؟ فأجاب بنعم فأدخله إلى متجره وعرض عليه كأس شاي مغربي بالنعناع ففرح كثيرا ولما سأله قال اليهودي أنا من مراكش وأعرف إلى اليوم حوماتها ودروبها وأزقتها كما تركتها ويصلني نعناع تيزنيت بواسطة الطائرة التي يوزع بعد ذلك محمولها على المغاربة الأصلاء بالعاصمة.

وكان أحد زملائي سيدي عبد الله أبواتي آنف الذكر أول قدومه إلى مراكش سنة (1955- 1956) خرج لإحضار النعناع للجماعة الذين استضافوه، وهو لا يعلم من دروبها بعد شيئا، فكان نهاره يبحث عن الدرب والرياض للرجوع ولا يكاد يعرف من اللغة العامية إلا كلمات قليلة! وبصعوبة وقع عليه العارفون به وبالمكان، قريبا من مقبرة اليهود المسماة (بالميعارة) بعد ليلة ليلاء وذلك شجاعة منه وجرأة وقياما بالواجب وإظهارا للشهامة في غير موضعها.!

---

[1] جمع غرارة وهي إحدى عيني الغرارتين المحمولتين على ظهر الدابة قصد الاستبضاع وهي من شجر النخل وشطبه غالبا أو ما يقوم مقامه.

ذكريات عن حوار العين والوادي وتبادل الأدوار ما بين فيضان وجفاف وخصب واستقرار وأول فرقة نسوية للكرة بالكرنيف للمغالبة القبلية.

عشت في (عوينة إداوبلال) هاته تلك السنوات الثماني وأنا أسمع حوار الوادي عند هيجه وهجومه وظهوره فجأة بعد التواءات، قبل شقه الطريق وسط القرية تصحبه في صوت هادئ موسيقى إيقاع عين (عوينة إد أوبلال) التي كانت من أسباب امتداد هذه القرية المسورة الضخمة البنيان، من الضفة اليمنى إلى الضفة اليسرى، تارة يمين الوادي لتمتد فيه جداول العين وما جرياتها تسقي آلاف أشجار الزيتون، ومعها بقية الأشجار الأخرى: من تين ورمان وإجاص بأصنافها، وقد يلتقيان عند فيضان الوادي والجداول وغزارة المطر، حيث تفيض جداول العين عن الحاجة، فيطلق المسؤولون عن (تناست) لها العنان والمدعوون بـ (إِعيَّاضْنْ) أي المنادون جهرا بالعياط ليسمعوا صاحب النوبة لتصب مباشرة في الوادي أو تتقلص عند اشتداد الجفاف أو الصيف أو عند وقوع أحداث تستدعي إغلاقها كلية، مما أشار إلى بعضه الصهر رحمه الله في كراسته المخطوطة حول (القرية) وأسرها وما جرياتها، ووفيات مشاهيرها وغيرهم.

وهكذا: نجد أول إشارة عنده إلى بعض أحداث هذه العين، سنة (1324 هـ/ 1945م) إذ يذكر أن رجلا في قرية (لأرجام) القريبة من عين العوينة اسمه (محمد بن سعيد ولقب ب بگار[1]) حفر هناك بئرا فلقاه الله مع العين! ويختم سيدي عبلا هذا الحدث

---

[1] البقار: تگلگم فتصير (بگار) والباقر في اللغة مالك البقر وراعها ومربيها.

بالدعاء له، بأن تكون بئره هذه بركة ونعمة للمسلمين، وكأنه لم يدرك بعد خطورة هذا الاكتشاف وأثره على عين العوينة باعتبار هذه البئر في أرض قد تمتد عروق مياه العوينة إليها ومنها فيؤثر هذا الحدث عليها، وفعلا نجده بعد ذلك وبعد أحد عشر شهرا من هذا الحدث، وفي (13 غشت 1325هـ/ 1946م) يذكر بالضبط أن عين العوينة وعلى أثر توسيع وحفر (خطاراته[1]) حتى يزداد انطلاقا حدث عكس ذلك: فغارت العين كلية عند الثلث الأخير من الأربعاء 16 من رمضان في نوبة أبناء (ممَاد) أخوالي وأصهار سيدي عبلا نفسه.

---

(1) الخطارات والكِظامات أثقاب للوصول إلى المياه الجارية في عمق الأرض، تترابط في مسافات متقاربة للتحكم في إصلاح المجرى كلما حدث انحباس بسبب أمطار أو إهمال أو شحة ماء وهي نظام سقي قديم في جنوب المغرب يمتد لألف عام والاسم مشتق من خطر وتسمى بالافلاج في عمان والخطارة في المعجم حظيرة الإبل ولا تظهر العلاقة بين هذا المعنى واسم الخطارة بمعنى الفلج المحفور تحت الأرض بنظام التدرج من الأسفل إلى الأعلى إلا على سبيل التجوز.



الحسن بن أحمد الأدوزي أحد أصهاري وواضع اللافتتين المعرفتين بشجرة أبناء الشيخ وحفدته وقد علقناها معا على الحوش الخاص بالأسرة وفروعها الصيف الماضي بعد أن زرنا البناية الجديدة لجمعية الأسرة الأدوزية الخيرية بإشرافه

ويختم هذا الحدث بأن الله سلم، فاستطاعوا إطلاق العين نهار الأربعاء نفسه ووصلت إلى البساتين ليلة الخميس، وهكذا: وفي السنة نفسها، وبعد سفر المرحوم سيدي عبلا، والحاج موسى، المشار إليه إلى الحج، وبعد الشعور ببعض المشكلات ووصول بعض الشكاوى من (أهل أگلو) التي تشترك منابع عينهم مع منبع العوينة، جاء المراقب والمهندسون الفرنسيون في 25/ أكتوبر 1946 لإغلاق العين قصد معرفة تأثير ذلك على بقية العيون الأخرى، فيما تذكره كناشة الفقيه العدل ص 24/ 25 (مخطوطة خاصة) فإذا أضفنا إلى هذين التقييدين ما ذكره السوسي المختار في رحلته (خلال جزولة) عند حديثه عن إحدى زيارته لقرية العوينة، وصادف ذلك فيما يظهر إخصابا متأخرا بعد جفاف سنة 1363هـ/ 1944م وكان هذا خلال نهاية الصيف في أكتوبر وبداية الخريف: حيث عاد الربيع ومخض الناس، ودرت الغنم والبقر، ووجد (الدلاع) ثانيا وكذلك التين والفواكه والشهد الكثير، مما اعتبر آنذاك من العجائب التي تؤرخ (خلال جزولة. 4/ 32) وأكد ذلك أحد رجالات العوينة، من المعمرين المسنين الطاعنين في المائة، بأنه لم يعش قط مثل هذا ولا عقله.

ولعل هذه الإشارات كافية للدلالة على أزمة العوينة، مع تأخر الأمطار، وفيضان الأودية من جهة، وشحة العين الحية التي يعتمد عليها في الانتاج المضمون للخضروات والفواكه والزرع والضرع، في ارتباط يتكرر في شبه دورات من الإخصاب يعقبه جفاف وهكذا؛ وقد دفع هذا كله أهل القرية إلى اللجوء أحيانا إلى عادات قديمة ورثوها من أصولهم الأولى ومهاجرهم، وقد عقلنا من ذلك ذهاب الصبية والأطفال إلى ظاهر القرية، عند الجفاف بألوان من الشهب والقصب وعروس المطر، يستسقون! والأكثر من هذا ما عشته ذات سنة جافة من هذه السنوات، عند انعقاد فرقتين نسويتين كبيرتين من آيت (تلمشت) من جهة، و(آيت بنوح) من جهة أخرى،

قصد القيام بمباراة تبرز فيها الفرقتان إلى ساحات القرية وسط نقطة تتوسط الحيين خصصت للتبارى بواسطة الضرب بالگرنيف[1] اليابس المجلوب من نخيل القرية لتداول الكُرَةِ بين الفرقتين وإيصال الكُرة في النهاية إلى خارج القرية، قصد طلب السقيا بعد غياب للمطر وجفاف! أو قصد المغالبة بين أصول قبلية لآيت تلمشت القوية المتمركزة وسط العوينة وآيت بنوح المهجرة إلى الضفة اليسرى للوادي والتي تقع منازلها في الطريق الجنوبي للقرية فيما يرجح.

وقد وجدناها فرصة للفرجة الغريبة المسموح بها للأطفال وحدهم، نظرا للموقف الحرج، وقد ضم من عائلات القرية بعض الحسناوات القويات المفتولات العضلات الصامدات الملتفات السيقان والنسوة الخشنات القويات! استعدادا للضربات المتحدية أو العفوية، ونحن نسمع عن حادث هنا وهناك، وإذا بنا نُنبّأ بتلقي إحدى خالاتي (عائشة نِدْ وبدار) رحمها الله زوج (خالي الحسين) متقدم الذكر، ضربة اضطرت معها أن تحمل إلى بيتها وقد تلقت ضربة مؤلمة من قِبل فرقة (آيت تلمشت) وكأن هذه الضربة كانت متعمدة بسبب انتساب خالتي هذه (عيشة نِدْ وبدار) إلى (آيت تلمشت) و (تَدَّرْبَتْ) ولكنها كانت قد أصبحت محسوبة على زوجها خالي الحسين من (آيت بنوح) وكنت شديد التأثر بهذا الحادث مع جدتي وخالتي والوالدة وأختي من الرضاع للجوار والعصبة من جهة وللقرابة الحميمية من جهة أخرى.!

---

[1] ما قطع من سعف النخل فهو الكرنيف الواحدة كرنافة وجمع الكرناف الكرانيف، وهي أصول السعفة، أو الكرب التي تبقى في جذع النخلة بعد قطع السعف وما قطع مع السعف فهو الكرب.

ولا أزال أذكر كثرة ما تبديه لي هذه السيدة من عطف وحب ورعاية وهدايا وإطعام، وأنا أصحب ولدها من جهة زوجها خالي العربي[1] من الرعاية والعناية، وكانت غير ذات ولد، ونحن نغشى دراها ودار خالي صباح مساء، نتناول ما نجده عندها من بيض وعسل وشهد وزيت وثمار التين وغيرها، ونغشى بيتها الخاص، ومرافق دار خالي الحسين المفتوحة المنزوعة الأبواب، وخاصة إحدى (مصرياته) العالية الجدران، والتي بنيت قصد التظاهر بالضيافة وسعة الدار، وإن كان خالي هذا يستعملها يوميا غير مبال بحالتها وأثاثها، وكان يحب أن يستريح بها بعد عناء أشغال فلاحية لا تكاد تنتهي. وقد كانت هذه السيدة تفضل استقبالنا في هذه المصرية الواسعة، وربما أهمل خالي سقوفها فتعرضت للأمطار والقطرة التي تترك أثرا في أرضية المصرية، لا يزال في الذاكرة منه شيء، وكنا نغشى ثلاثتنا (العربي نْ شاين) (وإبراهيم ند اهيا) الحوش الكبير والمحاط بالتين الشوكي، فنتفقد فيه الحمام وبيض الدجاج، وثمار التين الشوكي، حذرين من بعض أحناشه الباحثة عن البيض والفراخ، وكان مواليا للخلاء، لا دار ولا محل يحجزانه فيما يشبه سكنا غريبا نائيا عن زحمة بيوت القرية كلها يشعرنا بالوحشة والالتصاق بالطبيعة والأرض والنبات والحيوان؛ وكثيرا ما كنا نصحب هذه السيدة رفقة العربي وخالي الحسين إلى الحقول البعيدة والبساتين والأجنة محتطبين تارة ومشتغلين بحرث الأرض أو سقي الذرة أو جني التين أخرى في نشاط لم يكن يتاح لنا إلا مع هذه العائلة، رحم الله سلفها وبارك في الخلف.

---

(1) تناديه تارة ب (العربي نْ شاين) والأخرى ب (إعربينوا) كان والده (الحسين مماد) يناديه وهو وحيده على سبيل التمليح، ويهتم به ويلقنه من الحيل والشطارة مما جعله فصيح اللسان ذكي الفؤاد جريئا مغامرا متلافا للمال، وميالا إلى المزحة والإضحاك مع احتفاله بصلة الرحم، قواه الله وزاد في عمره ءامين.



شجرة أبناء وأحفاد وحفيدات الشيخ عبد الله بن محمد الأدوزي (ت 1282 هـ)

وبالرجوع إلى عالم (المِتْ) عند الأمازيغ ومعتقداتهم في علاقة (أنزار) وهو المطر ب (تسليت أونزار) أو عروس المطر كما يسمى قوس قزح عندهم إلى اليوم تبين أن ما كنا نقوم به صغارا، وما قامت به خالتي (عيشة ند وبدار) وتسبب في إصابتها إنما هو ممارسات قديمة أمازيغة، تمتد على طول جبال الأطلس والأوراس إلى ليبيا وَسيوَة وما دونها في طقس يتضمن خروج النساء والصبيان بعروس من (تَاغْنْجَا) مزينة بمختلف الأولوان والأصباغ رمزا لهذه الفتاة المعشوقة قديما من قبل محبها (أنزار) والنازلة من السماء في شكل (قوس قزح) وذلك على استحياء! والمتعففة عن الاستجابة إلى إغراء هذا الشاب الأمازيغي (أنزار) وقد اشتد غضبه ذات مرة فتحول إلى قوة جبارة، وأشفقت هذه (العروس) وقبلت المناجاة معه، وبعد اللقاء الحميمي الذي أنتج مولودا معطاء، هو المطر المنهمر من جديد على رحم الأم الأرض المرموز له بتلك اللعبة الكروية السالفة الذكر فيما يظهر، والتي ينتهي فيها الصراع بإلقاء الكرة في حفرة معدة سلفا لذلك ودفنها وسقيها بالماء، فتحمل الأم فجأة وتخرج النبات والخير بعد المطر المنهمر عليها، وتنشر ذوائبها وخمائلها وثيابها في الأرجاء.

وذلك ما كنا نمارس آنذاك، ولا نكاد نصل إلى أعماقه شأن كل (ميت) أسطوري متكرر رمزي ومعبر عن أعماق المشاعر البشرية المتوارثة عن الأجيال في صور شتى! منها هذه الطقوس المستحضرة عند جفاف الأرض (راجع حول الميت، ماكتبه المرحوم دفين مقبرة الشهداء بالرباط محمد أَرْكُّونْ) الجزائري الولادة والمشارك في الملتقى الاسلامي السنوي بالجزائر موفدا من جامعة السوربون وقد فضل في آخر عمره أن يستقر بين طلابه المغاربة الكثيرين ويوصي بدفنه في مقبرة الشهداء بالرباط؛ وهذه الطقوس القديمة تأقلمت مع صلاة الاستسقاء التي يقوم بها الرجال والصبيان حتى العبريون غالبا لأصالتها منذ استسقى موسى قومه فقيل له اضرب بعصاك

الحجر، ويتجهون فيها إلى الله عز وجل، خارجين حفاة وملتمسين في تبذل وانكسار واغبرار وقالبين أرديتهم في لحظة من لحظات الاستسقاء، ابتهالا إلى الله "عز وجل" مباشرة دون حاجة إلى ما كان يفعله الصبيان والنساء من قديم وبقي منه بعض ما عشناه أثرا بعد عين، وإن كان الناس اليوم قد أصيبوا بنوع من الكسل وقلة التضرع وشحة في الصدقات حتى عندما تقام صلاة الاستسقاء، وكأنهم ضمنوا الزرع والضرع، وقد تمتعوا بالسدود والاحتياط لسنوات، وباستيراد القمح وما إليه من القطاني، وهذا خلاف ما عشناه من شحة وفقر في الاستيراد، وقصور في التجهيز أثناء أربعنيات أو خمسينات القرن الماضي بسوس المقطوعة الصلة عن الوسائل السريعة التي تتحرك لإيصال الغداء إليها من الصويرة وغيرها.

عرس وسط قرى جبل آيت الساحل وإداوبها و (بوزرز) المطل على العوينة في أول رحلة جبلية لي بصحبة الجدة والخالة

حضرت هذا العرس وأنا أعقل أول مرة رأيت فيها عرسا بدويا جبليا بتقاليده وبإخراج العروس من بيت أهلها، وإركابها الفرس، وركوب أخيها خلفها، وما يوضع على رأسها من نبات الحبق، وتعمد رمي العروس بالتمر والزبيب واللوز للشباب، وما يتبع ذلك من احتفالات، وأدخلت إلى بيت فيه من أواني السمن والعسل، وقيل لي: إنك لم تتناول شيئا وعليك أن تأكل من هذه الأواني جميعا، مما بقي أثره في الذاكرة إلى اليوم.



ساقية دوار العوينة الموازية لأسوار القرية على الضفة اليمنى لنهر أدودو



(تسليت أونزار) عند الأمازيغ طقس قديم لا يزال يمارس إلى اليوم

٩

سنوات بالدار البيضاء قبل الاستقلال
بين الحداثة الطاغية والتقاليد الموروثة

1953 – 1949



صورة مركز الدار البيضاء الحديثة بساعته التاريخية المطلة على المدينة القديمة والمواجهة للأحياء الأوروبية الجديدة التي اهتم بها الجنرال ليوطي فاستدعى لها مهندسا مشهورا وبنى المدينة على النمط الكولونيالي الرفيع وبنى معها المدينة الحديثة لإسطمبول هو هينري بروست

ذكرياتي من تلميذ بالتعليم الحر إلى معلم

بين سنوات 1949 / 1960 وسبقه ظهور الوالد بالعوينة بعد الحرب يغير كل شيء ويعجل بانتقالنا إلى الدار البيضاء حيث الوالد في مطعمه الجديد.

كنت والوالدة والجدة والخالة نترقب ظهور الوالد لأول مرة بالعوينة في أية لحظة خاصة. قد بدأت بشائر الأخبار بعد الحرب، تنبئ بعزمه على القدوم إلى المغرب بعد ثماني سنوات من انقطاع أخباره عن الجميع! وفعلا أرسل الوالد رسالة أولى إلى ممثله بتيزنيت (خالي سعيد ند سِّي) موزع الحوالات ومتلقي رسائل فرنسا قبل الحرب وبعدها، يطلب منه إرسال صور لي حتى يهيئ بعض الألبسة اللائقة باستقبالي قبيل مغادرته باريس، وهكذا بتنا نترقب هذه الزيارة على أحر من الجمر.

وفي صبيحة يوم من أيام القرية من 1948 / جاء (النبأ السار)! فنزل الوالد بدار خالي سي سعيد هذا وبعث إلي بكسوة لائقة لبستها أو لبست منها قصد استقباله: وادخلت عليه في قبة مراكشية الوضع أراه فيها لأول مرة، ومعه من أهل القرية أصدقاؤه القدامى؛ فارتميت على حجره معانقا له مدة طالت! حتى شعرت بأنه تملى بطلعتي، وشم رائحتي وتعرف علي عيانا بعد أن رآني في صورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود الرائج في التصوير قبل انتشار الصور الملونة بزمان، وترددت على الوالد طيلة ضيافة بعض محبيه له، ومنهم المرحوم (عمارة) وأبناؤه وأسرته، (وكانوا يتمنون مصاهرته ببعض بناتهم ضدا على الوالدة فيما أدركت من موقف أحد أبناء عمارة من الوالدة وكان سامحه الله يضغط علي وأنا صغير بشتى التعليقات المسمومة في جرأة كانت تميزه وانتقادات ولسعات حتى لقب (بإزي نعمارة)، وكان والده عمارة

يصرع كثيرا وربما صرع في المسجد فكان الطلبة يلفونه في حصير ويقرأون عليه ليفيق ويثقلون جسده بالجلوس حتى يفيق). ومن لم أتذكره الآن من مستضيفي الوالد[1] ويظهر أن الوالدة تلقت هذه الإشارة بذكائها المعهود وحدسها الذي لا يخطئ ؟ فعزمت على تدبير لم يطل التفكير فيه، عبارة عن مغادرة مؤقتة لخالي (محمد ند عابد) وللقرية واستصحابي شفيعا في اتجاه مقام الوالد بالدار البيضاء ذات أصيل! تعمدت فيه أخذ طريق لا طراق به ويؤدي من بعض الأبواب الخلفية إلى تيزنيت، في وقت تغادر فيه الحافلة المتجهة إلى الدار البيضاء نهارا بعد أخذ بعض ترتيبات الانتظار بواسطة أحد المكلفين من قِبل الوالد باستصحابنا إليه.

وهكذا ولأول مرة نغادر فيها في اتجاه طريق (أگادير) و (الصويرة) و (سبت جزولة) وهو الطريق الوحيد المعهود آنذاك. ولا يزال في الذاكرة منظر جبال حاحة الوعرة، وحافلة الركاب القوية الدفع تشق طرقها الملتوية ذات اليمين وذات اليسار، وما لفت نظري بعد ذلك هو الوصول إلى الصويرة، والنزول إلى (باب دكالة) محطة المسافرين آنذاك، ثم المرور على مركز الساتيام قرب البحر قبل مغادرة الصويرة إلى الدار البيضاء في مصابيح ليست بالقوية بسبب الضباب.

وطالت المسافة قبل ظهور بشائر الوصول إلى الدار البيضاء التي ما إن بدأت الحافلة تشق مداخلها حتى غشيتني مصابيحها الكهربائية المتلألئة بآلاف الأضواء! في صورة لم أتمكن من التقاطها وأنا أمر بكل من أگادير وتالبرجت العليا آنذاك، والصويرة بعد ذلك !! ولا يزال هذا المنظر العجيب في بداية الليل البيضاوي مصورا في الذاكرة إلى اليوم، وبعد الوصول إلى محطة (گراج علال) النهائية الوصول، أخذنا

---

[1] واستضاف مرة عمي أحمد الحسن أبعقيل الوالد ولم يطق صبرا عن عادته في قص القنب الهندي الجيد. فشممت رائحته النفاذة الذكية عنده لأول مرة، ولا يزال بعض ذلك في أنفي إلى اليوم. رحمه الله.

عربة (كوتشي) ولأول مرة! قاصدين حيث مقهى الوالد الجديد بساحة درب البلدية الواسعة، يتوسطها ويشرف على دكاكين الجزارة والمشهورة بها وعلى ساحة باعة الحصر وبقية مرافق هذه الساحة الشبيهة آنذاك بعالم جامع بين الحداثة، حيث البنايات والمنشآت الحديثة والدكاكين العصرية، والتقليدية حيث الحلاقون والقصابون وباعة الحصر والجزارون والعطارون ومن معهم من الزَّياتين والخضارين وباعة الماء في الصفائح القصديرية على عربات تجر بالبيد صائحين (ها الماء الحلو) (ها الما الحلو)!! ويضاف إليهم باعة طَابَا وتوابعها من القنب الهندي المعد للتدخين، ولا أزال أتذكر اصطفاف الحصر أمام مقهى الوالد في عروض فنية رائعة للبيع.

وبجانب مقهى الوالد مرافق حديثة، اكتشفت فيما بعد أنها حمام عصري جديد، وعيادة طبيب أوربي سيتعرض فيما بعد من قبل (الوطنيين) للاغتيال، ومكتبة عريقة ذات واجهات زجاجية فيما أتذكر أراها لأول مرة وأتهجى عناوين كتبها الجديدة الغلاف وفي مقدمتها (سلسلة اقرأ) الشهيرة، ولما يمض على ظهورها ووصولها إلى المغرب إلا سنوات معدودة، وقد استقبلنا الوالد بفرح وبشر وأخذنا في نفس عربة الكوتشي إلى ناحية (گراج علال) على امتداد جدار (بوسبير) القديم وفي مقابلته لننزل عند أسرة صديقه (علي أندريز) التي أَلِفَ الوالد أن يحل عندها في المناسبات بعد أن اختار هو الاقامة قبل الوالد بهذه المنطقة مشتغلا بقطاع البناء وصاحب مقهى في موقع (رحبة الزرع) المطلة على قنطرة طريق مديونة، مستندة إلى حي الأحباس في ساحة طويلة عريضة وقريبة من مطاحن مشهورة هناك.

واستقر خاطر الوالدة لهذا الاستقبال، وللتعرف على الأسرة الجديدة الصديقة (علي أندريز وإحدى زوجاته للا تِعْزَّا الأمازيغية الملامح واللهجة والمنطق والشباب) وبعد تفاهم بين الوالد والوالدة يحصل لأول مرة، ولقاء بعد سنوات من الفراق،

فهمت بعد ذلك أنه أشار إليها بالرجوع إلى عصمته، وطلب التطليق من خالي (محمد ند عابد) رحم الله الجميع.

وهكذا رجعنا إلى القرية لإجراء هذه الخطوات الحاسمة في تاريخ الأسرة، وبرجوع المياه إلى مجاريها بعد أجواء متلبدة ببعض الغيوم، وانقطاع طال، ولم يصعب عليها رحمها الله إقناع خالي (محمد نِدْ عَابْدْ) رغم تمسكه القوي بها؛ وأمام الوضعية الجديدة وترجيحا لمصلحة جمع أواصر الأسرة الأولى، وحينها رجعنا بعد ذلك في ظرف غير طويل، والتحقنا بالوالد وبالأسرة آنفة الذكر، قبل أن تقترح الوالدة على الوالد استقلالنا في حي جديد غير بعيد عن ساحة درب البلدية كثيرا، هو حي (القريعة) أو (القليعة) الجديد المسامت لشارع (بولڤار دسويس) الذي تحول إلى شارع (الفداء) فيما بعد!

وهكذا بدأت أتملى بالدار البيضاء ما بين مقهى الوالد وحي القليعة، قاطعا (بولفار دسويس) العريض المليئ بالحركة، ومنه إلى درب السلطان (وسينما الملكي) وكانت في آخر لمسات صباغتها 1949 قبل الافتتاح ومنها إلى الحفارين (والمارشي المركزي) بقربها قبل قطع آخر زقاق مؤد إلى درب اليهودي أو درب مارتان نسبة إلى المهندس اليهودي الأصول، ودرب بوشنتوف والطريق القريب من ساحة درب البلدية المحتوي على أكبر كوميسارية في طور الإنشاء رآى فيها الوطنيون فيما بعد، ليالي سوداء واستنطاقات واتهامات وأنا أراها تنمو شيئا فشيئا وتأخذ نصيبها من التبيض.

وكنت أقطع هذه الطرقات أتملى يمينا ويسارا بقراءة العناوين الملونة للمؤسسات والدكاكين قبل التحقق من محتوياتها الغريبة على هذا الطفل القادم من أقصى سوس البعيد إلى هذه الحداثة التي غزت الدار البيضاء، وامتدت من مركزها عند الميناء والساعة والبرج والنافورة ومقاهي ومتاجر ومرافق هذه المنطقة، لتشمل مساحات إلى

الجنوب في أحياء للمغاربة يفصلها عن الأحياء الأوروبية (درب الأحباس) من تصميم فرنسي حديث سنة 1935م يشبه إلى حد بعيد النموذج المغربي الراقي في البناء والجامع بين اللمسات الأصلية والحدثية مثل (الصويرة وفاس) ومنها إلى ساحة درب البلدية (وطريق مديونة) (والقريعة) (ودرب الكبير) (ودرب الشرفا والطلبا) وما بعدها من (سيدي معروف) (وعين الشق) (وحي سباته) بعد ذلك.

طفل بين الكتاتيب والمدارس العصرية

أصرت الوالدة رحمها الله على إلحاقي سريعا بإحدى الكتاتيب القريبة من دارنا بالقريعة فاقترح العارفون على الوالد طالبا سوسيا جادا وزيادة! في دكان في اتجاه درب بوشنتوف، ومساحة ضيقة يستعملها عند الحاجة ليجمع المحاضر بها تحت حصيرة متهالكة!

ولا أزال أتخيل ملامح هذا (الطالب) السوسي الذي امتاز ببنية قوية وتقدم في السن يبعد عنه الصبوات وبعيون حادة قاسية التأثير، ومما زاد من خشونته بقاء الجلباب الصوفي السوسي القديم على ظهره، وغَبَرَة تعلو وجهه وأداة عقوبة يحملها بيده، ولعلها بقية من حبل يخيف به أبناء هذه المنطقة ذات المستوى الشعبي في العيش والنشأة والمشاغبين بطبيعتهم!

وقد انقلبت فرحتي بالدار البيضاء مع أول يوم من أيام التلمذة، إلى خوف ورهبة، ولعل الوالدة أدركت ذلك فيما بعد من ملامحي، فبدأت تحتال على الوالد المصر على هذا اللون من الشدة فيما يظهر، ورغم اني لم أتذكر أنه مسني يسوء وهو يرى وداعتي وخوفي واستسلامي، فقد ترك في النفس الطفولية خوفا رهيبا إلى اليوم! وهكذا وبعد أشهر من سنتي 1949 - 1950 ستبحث الوالدة لي عن كُتَّاب جديد

انتهى إلى طلب الوالد مشورة أحد أصدقائه، وبعد أن رأى عدم حصول تقدم في حفظي! فاقترح عليه شيخا جليلا بهي الطلعة واللحية والملامح أزرق العينين أبيض، أدوزي الأصول شبه زاهد عن الدنيا أعطي دكانا للتجارة ففضل أن يدرس به بعض صبيان الدرب القريب من (بولفار دسويس) في الطريق إلى مديونة، يعمد إلى إحدى دفتيه فيغلقها ليجتنب الفضوليين وإزعاج الصبية بنظراتهم، وزاد في الألفة لهذا الكتاب (الدكان) عدم إصرار (الطالب) على لزوم الحضور ومراقبة الصبية القلة، وهو يراهم مقبيلن على تحريك رؤوسهم أماما وخلفا مرددين ما كتبه لهم طيلة فترتي الصبح والمساء، وكان في عهدة الحاج لحسن البعقيلي وهو الذي اكترى له كتابا ينافس به الترعة السلفية بالمدارس الحرة فيما عرفت بعد ذلك، رحمه الله وجزاه عن هذا الهدوء والأريحية وسلوك طريق العفة والسلم والغفلة وغض الطرف عن هذا الطفل الذي انفكت عقده بعض الشيء من النفور من صورة بعض المكتبين، وخاصة (سيدي عمر) آنف الذكر.

بين كتاب (درب الحبوس) وحلقات الفرجة (بالقريعة)

يظهر أن الوالد رحمه الله أدرك أن هذا الطالب الزاهد ومن خلال ملاحظات الوالدة وأسئلتها عن مقدار المحفوظ من الأي والسور هذه الفترة، لم يستطع أن يشرف إشرافا كاملا على الصبية القلة الذين يترددون عليه! فبدأ من جديد في البحث عن كتاب يتميز (الطالب) فيه بالجدية وسرعة التحفيظ والنشاط والحيوية؛ فجاء الاقتراح هذه المرة في صورة نقلي إلى كتاب وسط (درب الحبوس) الشهير الفاصل بين الدار البيضاء شمالا وجنوبا، والمتميز بنزول نخبة أهل فاس به، وسكناهم بمنازله الشبيهة بفاس ومتاجره ومسجديه المميزين التاريخيين (المسجد اليوسفي) في أول وسط الحي و(المسجد المحمدي) بعده في الساحة الخارجية عن أبواب الحي وبه مرافق جديدة من مكتبات أشهرها دار الكتاب لعبد الهادي بوطالب وقد تجرأت فطبعت كتاب الاستقصاء في سبعة أجزاء، وسماط للعدول وحديقة عمومية ومحكمة نموذجية أدركت بداية إنشائها على غرار الطراز المغربي المسامت لها في علو جدران وأبواب، وبقرب القصر الملكي المشرف على حي الأحباس، والواقع قرب الحي الحديث (الأوربي الطابع) من الخلف.

وهكذا وجدت نفسي في دكان ذي طابع حبسي في وضعه وبإزائه دويرة من خشب متواضعة الوضع خصصت للطالب الشاب النشيط والمشتغل أحيانا بالخياطة البلدية للجلاليب، وأحيانا بالإشراف على عدة قليلة من أطفال الحي ومن انضم إليهم كهذا الطفل السوسي المستوفز إلى حفظ القرآن الكريم كاملا شأن قرنائه بسوس، والذي يجهل حقيقة أساسية لا يعرفها إلا المشارطون بالدار البيضاء من الوافدين من نواحي متوكة والأطلس وما بعدهما، وتتلخص فيما عرفت بعد من زميل

سوسي من أساتذة البيضاء صحبته في أول عمرة لي عبر القاهرة، وهي أنهم مجمعون على عدم مساعدة الأطفال على التقدم في حفظ القرآن الكريم خوفا من التنافس ومنازعة الأنداد، شأن (المشارطين) في العادة! فهم يكتفون لذلك بما تيسر مشتغلين بتأطير المناسبات وما تذر عليهم من الأعطيات، ومتخذين الكُتَّابَ مقرا لتلقي الدعوات في الغالب، ومتظاهرين بأنهم محتسبون لِلهِ بتعليم الصبيان، غير غافلين عن طلب الفطور، و (الأَحَدِّيَّة) و (الأَرْبْعِيَّة) مما عرف عندنا ببيضة الطالب يقوم مقامها في المدن الدريهمات المنفوحة للطالب، مرتين في الأسبوعِ عوض المرة الواحدة في البوادي غير غافلين عن إخبار الوالدين عند حفظ اليسير من القرءان الكريم بأجرة. (التخريجة) وخاصة عند ختم أربعة أربا ع الحزب، لا يتجاوزن غالبا حزب (قد سمع) فإذا بلغوا في الحفظ أوصلوا الطالب إلى (يس) وإذا نبغ الطالب وأسرِع وقفوا به عند منتصف القرءان الكريم وما حوله! وقد شعرت أو كدت بهذا الأمر، وأنا أقارن بين حالة (محاضر) العوينة عند سيدي علي آيت الهماني رحمه الله، وبين هؤلاء الطلبة شبه المرتزقين ببلاد الشاوية المشهورة بقلة الحفظ في النكتة المشهورة عن طالبين التقيا بمراكش يبحثان عن (المشارطة) خارج مراكش. فقال الناصح لأخيه:

. إلى كنت طالب جيد سير ل دكـالة !

. وإلى كنت طالب عيان سير ل الشاوية

. فأجاب المنصوح:

. ياتيها رزقَهَا وخلاص (وفتح القاف جهلا !!)

فأسرِع الطالب الناصح قائلا (سير للشاوية، سير للشاوية) ؟؟ واشتهرت نكتة أخرى عن أحد محاضر المنطقة عند ما استفتى (الطالب) : زِيدْ أَسِيدِي (وما كنت شاويا

في أهل مديونة) بدلا من قوله تعالى (وما كنت ثاويا في أهل مدين)[1] فأجابه الطالب بنحو قوله (سير الدار البيضاء وكمل بالرباط وخلاص)! فيما كان يردده الزميل (محمد حمايمو) مراقب الكتاتيب والمساجد بمراكش مدة ليست بالقليلة.

طفل زائغ بين كتاب الأحباس وحلقات القريعة يجمع بين (العيب وماء العيبة) في مغامرة من (الزوغان والفلتان) من وحشة الكُتاب وبرودته وعدوانية صاحبه

وجد الطفل السوسي المسالم نفسه هذه المرة عند طالب يظهر أنه من أصول متوكّة أونواحيها من خلال ملامحه، فلم يرتح له من أول نظرة، وصدق ظنه فيما بعد فيه، فلم يجد إلا المراوغة والالتواء، وعدم المواجهة، كعادته في اللف والدوران، وعدم الاصطدام، فقرر الانفلات من هذه الساعات الثقيلة، يقضيها شبه محبوس في كُتَّابِ الحبس، ورطوبة أزقته وبرودة جوه وأهله التجار، موزعا وقته الذي يبدأ من الرابعة صباحا يصحبه والده ليفتح المقهى المركزي بالساحة، حيث يتقاطر عليه رواد الأشغال من عمال وعاملات وغيرهم في الغالب، وحيث إن المسافة بين القريعة والساحة غير بعيدة، فهو يجد نفسه وسط ظلمة الصبح وغبشه، والكتاتيب لا تزال مغلقة شأن نظامها بهذه المدينة غير الجادة في حفظ كتاب الله تعالى، فيقضي سويعة أخرى من النوم قبل أن يوقظه الوالد نافحا إياه نصف درهم للإفطار بالحريرة الحامضة يذوقها أول مرة، في فضاء معد لهذه الخدمات بطريق الأحباس على قارعة الطريق في الهواء الطلق وغبش الصباح.

---

[1] القصص الأية 45.

ويستغل ذلك قطعا للوقت وانتظارا لبزوغ أشعة الشمس قبل أن يبدأ في التملي بعناوين الدكاكين ومنظر القطار المار تحت قنطرة الأحباس عميقا يتوقف المارة طويلا لمشاهدة سرعة مروره في أحياء الدار البيضاء تطل عليه الدور من عال، في نوافذ ضيقة حتى لا يصل إليها فيما يظهر هديره وصفاراته التي تهز كيان الحيين المكتنفين للسكة العميقة المجرى، والتي سيستغل بعض الوطنيين المقاومين فيما بعد طريقها للهروب من هذه النوافذ حتى لا يدركهم القبض أو القتل (ما قيل عن المرحوم أستاذي أحمد الخلاصة، ومعه المرحوم زميلي زمنا بالدروس الحسنية العلامة سيدي محمد العثماني الشاعر) وهكذا أجد نفسي تتلقفني دروب الأحباس وأقواسها ومنحنياتها الظليلة الباردة وشحة أهل فاس بها في قلة المعروض من الأطعمة والمقاهي والدكاكين الغذائية بها، قبل الوصول إلى الكُتَّاب الشبيه بالسجن وإلى صاحبه الشبيه بالحيوان مصاص الدماء الشره الجائع العريان ذي الأصول الجبلية الباردة، وأخيه الضعيف البنية الشاحب اللون المشتغل بإحدى المرافق ينوب عنه أحيانا، فأجد فيه نوعا من السلم والطمأنينة وسلامة الطوية، رحم الله الجميع.

ولا تصل الظهيرة إلا وقد انطلقت عبر دروب البيضاء الدافئة زوالا باحثا عن مكان آوي إليه قاطعا لما تبقى من الوقت قبل الوصول إلى القريعة مارا أحيانا (بگراج علال) ومتمليا بسينما (الشاوية) و(الباهية) ومتطلعا إلى ملصقاتهما من أفلام (الريش) كما يقال، أو أفلام الهنود الحمر آنذاك.وأحيانا اختفي من نوبات الكُتَّابِ فأجلس إلى أحد أصدقاء الوالد بمكان الخياطة (سي المحفوظ) في الطريق إلى مقهى الوالد أمام الجدار الطويل لمؤسسة (بوسبير الجديد) السيء السمعة ألاحظ صنعته وطريقة تلفيف الثوب وخياطته وحركاته الغريبة، وصوت آلته القوية، والتي تؤثر حركات الإبرة وتوابعها عليه فيزداد حدة وإلحاحا في خوف شديد من الخياطة على أصابعه ومن أن يصل إلى بعضها رأس الإبرة فيصيبها ! مطمئنا إلى أن هذا الصديق من أصول قريتنا لن يخبر الوالد بهذا الاختفاء إلى حين.

وأنا أمر عند باب القلعة المخيفة قرب درب بن العالية
(بوسبير الجديد أو بوسبيير الفرنسية الأصول)

وأجرؤ أحيانا فأرفع نظري إلى باب عال أسود اللون غزير المسامير مصفح يعلوه قوس أسود وفي الوسط راية فرنسية الألوان يقال له (بوسپير الجديد) يحرسه حراس سود الملامح من السنغال مسلمون، ومعهم جندي فرنسي أبيض الملامح أزعر الوجه من (لاليجيون) المهجنين! ويقال لنا أنه ذو سمعة سيئة فلا تقتربوا منه! وهم في كامل أسلحتهم وعدتهم المخيفة! أرى هذا أول مرة! وقد أدركنا فيما بعد بأن هناك في البيضاء القديمة العتيقة أنشئ أول (بوسپير) للجنود الفرنسين، وجنود اللفيف، وللنازلين من الجنود قبل ذلك بالدار البيضاء عند حصارها سنوات 1905/ وما بعدها وأثناء ثورة الشاوية الشهيرة يقال له (بوسپير القديم) وكان متواضع البناء،[1] فاختار الحكام الفرنسيون بناء حي كامل المرافق والمتاجر والحمامات والْمَشْفَى والسجن والمقاهي والملاهي لا يدخل إليه إلا بالإذن، وجلبت له من نساء الناحية القائمة بخدمات هؤلاء الجنود ومن لف لفهم، وأعليت جدرانه وغرست عليها

---

[1] تسمى في العامية (بورديل) تحريف قديم النشأة، يقال أن فاس أكبر المدن مبغاة قديما، ولكن الفرنسيين خوفا من الأمراض التناسلية الفتاكة المنتشرة بالمغرب آنذاك أنشاوا تبعا لتقليد نابليوني الوضع (مواخير) منها ماخور على أرض في ملك (بوسپير فيريو) وسط البيضاء العتيقة أولا، ويقال: إن (بوكاسا) كان جنديا حارسا به منخرطا في صفوف الجيش الفرنسي: وكان بوسبير الجديد يضم ما بين 1700 امرأة إلى ثلاثة آلاف سنة 1950 من المغربيات وقريبا من الدار البيضاء بفضالة (المحمدية) كنت وأنا بمركز كلود مونيي لتعلم الفرنسيةصيفا أرى بناء مستطيلا مصمت الجدران اسمه (سفا نكس) على اسم الهرم يقال لنا إنه ماخور راق في سلسلة من المؤسسات الدولية لا يغشاه الا النخبة من المستعمرين وغيرهم لم يعد له أثر اليوم لأسباب اقتضت التخلص من سمعة هذه المؤسسات وكان بالمحمدية رجل وطني كان أخوه جارا لنا بالعوينة هو مولاي علي الزروالي وكانت له مطالب ملحة لترقية مدينة فضالة (المحمدية حاليا) فكان يضغط بقوة على إزالة مثل هذه المؤسسات من بقايا الاحتلال الفرنسي.

قطع الزجاج اللامع خوف تسلقها دخولا وهروبا، ومنعت الداخلات إليه من مغادرته إلا مرتين أوهاربات، وقلما تسلم إحداهن! وكان الوالد أخبر الوالدة وأنا أسترق السمع بمحاولة إحداهن ليلا التسلق والهروب في غير نجاح: حيث التجأت إلى أقرب مقهى عند الوالد مدماة الوجه والرأس عرجاء الحركات لم يلبث طويلا أن أخبر بمغادرتها خوفا من المسؤولية عنها وكان المقهى يغشاه الفرنسيون والمخبرون باستمرار فأخذت إلى المستشفى هناك يرحمها الله! ويجازي مشغليها بما يشاء.

واستراحة عند سيدي أحمد أسعيد بدرب الكبير

كان من أصدقاء الوالد بالبيضاء في هذه المدة الطالب والتاجر القليل البضاعة والحيلة سيدي احمد اوسعيد من ايت اغرابو من العوينة استقدمه أحد أبنائه (مولاي العربي) (الملقب بِشَكَا الرامي) لقب بذلك لغرابة أطواره عند مقدمه إلى القرية وحركاته وأحاديثه ولباسه واتخاذه ذؤابة خلف رأسه! فكان قد حبب إلي هدوء سيدي أحمد ولطفه وكياسته وتشجيعه لي ومعرفته بالوالدة من قديم وإكرامها له، وجوارها بالعوينة لأسرته الكبرى، فأجد عنده في دكانه غير ذي البال في المعروضات، الترحيب لزج وقت الفراغ أو الزوغان من هذا الكُتَّابِ الحبسي الطابع، وهو يحدثني عن النساء البيضاويات وفطرتهن ولجوئهن إليه في المشكلات يجمع بين الرقيا لهن وتجارة قليلة البضاعة والموارد، ويناغي أطفالهن ويقدم لهم بعض (الأفانيد) تعطفا ويعود المرضى، ويحضر بعض المناسبات، ويحاول أن يشارك (الحزابة المحترفين) بعض تلاوتهم في غير ما نجاح وبسبب ضعف محفوظه أساسا، وإن كان يتظاهر عوض ذلك بحفظ النكات والأنصاص، وأخبار الكتاتيب والطلاب المشارطين بالاحياء والقرى، والباحثين عن الشرط بالشاوية والغرب من طلبة أهل سوس، فإذا حضرت (تَارْجَّازْتْ) رفع عقيرته!

رغم كبر سنه محاولا إظهار فرحه أثناء الترجيز ينتشي بذلك، وينال رضى الحفاظ من حداق الطلبة رغم ضعف محفوظه!.

وهي لحظات تمتد من الظهيرة إلى العصر لا أنساها وأنا أغشى (درب الكبير) وأمر على ثكنة عسكرية شائكة الجدران، مرتفعة الأبراج، قبل أن أنعرج على درب على اليمين لأصل إلى دكان سيدي أحمد أُسعيد هذا فأجد فيه من أسباب الراحة والفرح مَا لاأجد عند غيره من الناس، رحمه الله صديقا للأسرة وللجدة خاصة، وكان إذا سمع بوصولي إلى القرية في أواخر عمره يتكلف المجيء إلى الجدة، ويطلب منها أن أحضر إليه، فتقوم الجدة متكلفة ضيافته مظهرة من ألوان الفرح له من البخور والشاي والإدام والعسل! ما يضفي على الجو مرحا وفرحا، وهو يدعو لها كل مرة، ويعيد عليها أخبار النسوة في القرية حتى تضايقت منه الوالدة مرة فسمته ب (بالصحافة) رحم الله الجميع.

وفي مدرسة الحلقات الشعبية (بالقريعة) عند الظهيرة إلى ما بعد العصر إيابا

وبِما أن ساحة القريعة الشعبية الطابع إلى اليوم! والتي نشأت في الأربعينات وسميت باسم امرأة تعاني من القرع في رأسها فيما قيل، لا تزال بسيطة في مرافقها وخيامها (وَبرَّاكَاتِهَا) وتجارتها من أصناف (الخردة) ومزادها العلني بعد الظهر، وقربها من الشارع الرئسي، وطريق مديونة ومراكش، وقربها من البيت الذي نسكنه، والتي أصبحت اليوم بعد تجارب وحرائق، أكبر سوق شعبي في شمال إفريقيا تضم حوانتها خمسين حرفة وآلافا من التجار ومساعديهم وتقرب خدمات السوق إلى المغاربة وغيرهم، فقد وجدت بها صحبة الوالدة أولا، واستقلالا بعد ذلك! ما أملأ به الفراغ

الثقافي الشحيح آنذاك، والمقتصر على كتيبات في ورقات تعرض على الأرض ومعظمها يتصل بقرعة الأنبياء، وقرعة النساء، و(أخبار تودد الجارية) وقصة و(عجيب وغريب)، و(دقائق الأخبار في ذكر أهل الجنة والنار)، و(بدائع الزهور)، و(أبي معشر الفلكي الكبير)، وكتاب (الرحمة في الطب والحكمة!) فإذا امتدت آفاقها وجدت بها (سيرة سيف ذي يزن)، وسيرة (عنترة بن شداد)، وسيرة (أبي زيد الهلالي)، وما إليها من أجزاء مبتورة، وكتب تضم (شموس المعارف الكبرى) ونحوها من كتب الأوفاق، والطلاسم والرقى (وسحر هاروت وماروت) مما كان له رغم شعبيته وضحالة محتواه! أقوى الأثر في تحبيب الاطلاع والتمسك بالكتاب وحب القراءة.

وقد أدركت فريقا ثلاثيا جميل اللباس رشيق القوام يعرض أحجبة مكتوبة بالزعفران، يقرأ منها بصوت جماعي رخيم ويوصي المشتري بأن يحملها في حامل نحاسي وسرعان ما يمد أصابعه إلى الحجاب النحاسي الحافظ ليضعها فيه، ويغلقه بإحكام! عارضا خصائص هذا الحجاب أو (الحرز) في الحفظ والقبول والمحبة والدخول على الحكام، والصيانة من الشيطان والجن والآفات، والزيادة في المرتبة، وقد كان لبعضهم سلهام طويل مناسب يتكيء على سيارة بيضاء دلالة على المكانة الاجتماعية آنذاك، وفوق الجميع مظلة كبيرة واقية من شمس ربيع البيضاء وصيفها، والأطفال والكبار متسمرون مشدوهون بهذا المشهد المسرحي المتقن الإخراج، والذي لم يغادر قط ذاكرتي إلى اليوم، وقد مات أو انقرض غالب هؤلاء الفتيان الطلاب المعمرين فيما يظهر والمميزين بنحافة أجسامهم وطول قامتهم وصفاء أصواتهم، تنطلق في مستوى واحد من التنغيم ومراعاة الوقف لا تختل أبدا يرحمهم الله.

أما منظر الشيخ الواعظ القارئ لدقائق الأخبار، فكان أكثر تأثيرا في النفس، إلى درجة أن أول ما أقتنيته من كتب، وقرأته بإمعان، وأنا في الكُتَّابِ، هو هذا الكتاب

العجيب الذي يتحدث عن منكر ونكير، وسؤال الملكين، وما أعد الله من زبانية غلاظ شِدَاد لأهل الناروخازن يسمى (مالك) وأصبحت أقضي ليالي معه، ولم يكن عندنا بعد رَادِيُّو ولا (مَاكِنَة الغناء)، في هذه الفترة، وأحيانا أطلب من الوالدة أن أقرأ عليها أوْ على الوالد بعض ذلك، فتنصت إلَيّ متجملة مسايرة داعية لي بالفتح، ومقبّلة ما بين عيني ومحتضنة، وقد أخذت ذات ليلة تنبهني إلى أن الوالد عند مرضه لا يحب أن يسمع مثل هذه الأخبار المخيفة فلا داعي لإثقاله بالمزيد منها ففهمت وأمسكت عن الكلام المباح والمخيف.!!!

بين أزقة القريعة ودكاكين باعة الحليب والسمن الْحَارّ وجارات الوالدة الأمازيغيات التلميذات بالتعليم الحر

قضيت مع هذه المنغصات والانتقالات من كتاب كريه إلى كتاب مريح إلى ثالث غير مستقر، أحلى طفولتي في حي القريعة الجديد الممتد قريبا من شارع السويس الطويل العريض، وأنا أرى أسس البناء الموازي بالقريعة توضع في صورة حُفر مستطيلة سوداء الطينة وملأى بالمياه الجوفية من أثر وقوع الدار البيضاء وسط (وادي بوسكورة) الذي يتخلل تربتها السفلى! متعجبا من هذا المنظر الذي لا يجرؤ على الخوض فيه إلا أشقياء الأطفال ومشاغبوهم! حذرا من أن أنزلق إلى إحدى هذه الأخاديد المحفورة العميقة فلا أجد من ينقذني: ومن هذا الفضاء إلى أزقة (حي القريعة) الممتدة إلى النافورة المؤدية إلى فضاء ساحة القريعة وأسواقها، متأملا هذه الدور الحديثة البناء غير المكتملة التبليط، ومن جملتها هذه الدار التي نسكنها، وأرى بها أحد الشيوخ العمال وقد احتمى بطبقتها السفلى مستسلما إلى برودة (لا موزيك) والذي تعرفت عليه أول مرة بواسطة هذا (المعلم) العاكف على حك مربعاته المتناسقة

الوضع، ولحسن حظي فقد كان يعرف الأمازيغية فسهل علي التعرف عليه، ورؤية ثيابه الممتهنة بألوان (السيما) والصباغة، والتي لازمته لزوم العزوبة والانقطاع، وبرودة المكان، في سعلات عميقة تصدر من رئتيه بسبب بلية (المعلمين) بالتدخين لمختلف أنواع الطابا وما هو أقوى منها.

وأراه يخرج دفترا جميلا من ورق رقيق (النيبرو) ليضع وسطه مسحوق (فافوريت) الأسود اللون وليلفه بإتقان مارا لسانه على حواشيه، واضعا إياه بين راحتيه بعد ذلك في ارتعاش، ليتم تسويته على شكل سيجارة قائمة الذات قبل إشعال عود الوقيد ووضعه بين راحتيه حماية له من الريح في حركة من الزفير تساعد على زيادة الاشتعال وفي فرحة تبدو على محياه عند الشهيق، وقد امتلأ وجهه بالدخان الصاعد ذي الرائحة الرديئة لِطَابَا السوداء الممزوجة (بالتدريحة) التي تزيدها طيبة في زعمه رحمه الله.!

وكنا في العوينة نتجنب صغارا منظر بعض الدخينين (لِلسَّبْسِي)[1] ذي الرأس المعدنية التي تتطاير منها بقايا المادة بعد الاحتراق بالنفخ العكسي، متعجبين من أصابع المدخن المحترقة بلون الدخان، وفمه الملطخ بسواده، وأنفه المغبر من داخله، تحذرنا الأمهات من الجلوس إلى أمثال هؤلاء الكريهي الرائحة، المتوارين حذرا من ملاحظات الجمهور والصبيان، وكبار القوم المتجنبين لهذه العادة (البلية) الدخيلة على القرية المشهورة بالفروسية والرماة والصالحين والصالحات والعُبَّادِ والفقهاء والشرفاء ونحوهم، ولا أزال أذكر الوالدة رحمها الله وأنا أستاذ بمراكش، وقد رأتني أحمل سيجارة معطرة الرائحة، ومعي من خاصة الزملاء من ابتلي بالتدخين وكنت

---

[1] قصبة قصيرة من عود صلب مثقوب مجعوب بآخره شبه رأس يملأ بالدخينة، ويوقد رأسه بالوقيد، ولعل الكلمة تركية الأصل من أثر التداخل بين الدول المغربية والجزائر التركية الحكام.

أجاريهم وأتظاهر بالتحرر والانعتاق، فما كان منها إلا أن غضبت غضبتها النادرة على هذا المشهد الذي لم تألفه، ولم يجرؤ أحد من الناس أن يظهر أمامها به رحمها الله، وكانت هذه الانتفاضة في محلها!!

وترددت أيضا على أحد باعة الحليب والزبدة والسمن الحار قريبا من منزلنا بالقريعة هذا، وكان يسكن بأحد طوابقه فألفت الذهاب إليه قصد الاستبضاع تارة، ومشاهدة بعض تصرفاته بالحليب ومخضه اللبن في (خابية) كبيرة عليها غطاء مثقوب الوسط يمرر من ثقبته عصا في رأسها دائرة خشبية تضرب اللبن الرائب صعودا ونزولا، ليتحول إلى لبن وزبد، كما كان يعمد إلى بعض أوعية كل من الحليب من قصدير لماع فيصب حمولته ليملأ أواني الحليب وقنانيه الزجاجية المعدة لذلك، وأحيانا أحضر إلى سكناه فأشاهد زوجه الأمازيغية من (إمغران) بلهجتها المغايرة للسوسية بعض الشيء، وهي تحثني على أن أناولها كرات من الزبدة تضعها في جابية قصديرية وتملأ جنباتها بالملح، ثم تعمد إلى عجن ذلك بيدها بقوة، وأحيانا يدخل زوجها هذا فيغسل قدميه، ويعمد إلى الجابية المعدنية يعجن خليط الزبدة والملح قصد إعداد (السمن الحار) الذي لا تستغني عنه أسرة بيضاوية يوم الجمعة عند إعداد الكسكس الأسبوعي، مما لم نعتده في سوس التي تكتفي بالسمن الذائب الخالي من هذه الأملاح المبالغ فيها بقصد بقاء السمن أطول مدة حتى يصبح (حائلا) جدا، ويعطي كلما قدُم نكهة حادة نفاذة تشم من السمن الحار كما يسمى.!

وأحيانا كان يقوم وبقية باعة الحليب بحيل معتادة في هذه المدينة ذات الساكنة المبالغة في الاستهلاك، والمتميزين بالشهية المفتوحة، فيمزجون الحليب بالماء أو بمادة شبيهة تزيد في الكمية دون ان تفقد الحليب تماسكه وزبدته، وكانت هذه الممارسات بسبب حرية توزيع الحليب في الأزقة من طرف جالبيه في أوَانٍ قصديرية، تحمل على

الدواب تارة، وأخرى على العاتق، وتارة على العربة، وتارة على الدراجة الهوائية، ويظهر أن المنافسة بين باعة الحليب المتجاورين تدفع بهم إلى نوع من إفساد سمعة الجار المنافس، فيعمدون إلى خلط الحليب بعد جلبه بمادة تسرع بالحليب إلى الفساد، ثم يعلنون بأن هذا الحليب فاسد فيردونه إلى صاحبه بواسطة طفل فيثق الرجل فيصب الحليب في الإناء الضخم فيفسده، ويصاب بسوء السمعة، وقد استخدمني هذا الحاج ذات مرة في هذه العملية محتالا علي بمختلف أنواع التعلات، وقد آلمني هذا التصرف، فأخبرت الوالدة بصنيعه، ولم يعد محل ثقة عندنا منذ ذلك اليوم.

مع أول تلميذتين (عصريتين) بالتعليم الحر

كان من حسن الجوار لنا بالقريعة، أن اكترت إحدى السيدات السوسيات فوقنا! طابقا من طوابق دار (علي أندريز) المقاوم والقهوجي آنف الذكر، فتعرفت لأول مرة على أول فتاتين عصريتين عن قرب، وهما ترددان محفوظاتهما وأناشيد (مدرسة للا عائشة) القريبة من درب اليهودي، وتحاولان أن تعرضا علي ما معهما من سور الحزب الأخيرمن القرآن الكريم، وكانتا تقولان نريد أن نعرض عليك باعتبارك تلميذا في الكُتَّابِ شيئا من (القرقان) بقافين بدل (القرآن) وكانتا على جانب من الذكاء والحيوية والنشاط، فاستأنست الوالدة بجوارهما، وكانت تصحبني أحيانا معهما إذا خرجتا إلى محل ناد أو حديقة قصد زيادة الوقار والثقة، فكان ذلك ربما بعثني على تشديد الملاحظة عليهما، وخاصة عند ما رأيت إحداهما ذات خرجة إلى حديقة (لامرطاج[1]) الشهيرة ببحيرتها وبجعاتها وأشجارها الباسقة وأحراجها! وهي تحادث

---

[1] إحدى الحديقتين الكبيرتين اللتين أنشأهما الجنرال اليوطي للفسحة والنزهة خارج البيضاء، وبها برك وطيور وأشجار باسقة، وكنا نحمل إليها من مدرسة الفلاح للتنزه والترويض في مناسبات متعددة، وكان مديرنا الفقيه

خلسة بين الاحراج أحد الشبان، أرى ذلك لأول مرة أسررتها في نفسي! حتى إذا سألتني الوالدة عن هذه الرحلة أخبرتها بجليتها مستنكرا وطالبا منها أن لا تبعثني مرة أخرى في صحبتهما خوف الظهور بمظهر التلميذ الغافل أو المتغافل! وربما كان ذلك سببا في ملاحظة الوالدة لمستوى ثقافة تلاميذ التعليم العصري الحر، فلما اشتدت أزمة الانتقال بين الكتاتيب في غير نجاح وتقدم في الحفظ، نقلني الوالد إلى مدرسة الفلاح الحرة (بدرب اليهودي)، وهي عبارة عن دار عادية ذات ثلاثة طوابق. وكنت قد سجلت بالأبتدائي الثاني بها نظرا لوجود مواد في الفرنسية بهذا القسم لا بد من الإلمام بها دون منحي مستوى أعلى.

الحريزي ذو الجلباب والطربوش يتعرى منهما ويلبس تبانا تبدو فخداه من أسفله اقتداء بالكشافة الوطنيين المتظاهرين بالتحرر من القديم.

١٠

استرجاع بعض ذكرياتي والوالدة مع السلطان محمد الخامس بالدار البيضاء والرباط وسطات

وأنا ابن عشر سنوات (في كلمة ألقيت فيما بعد بضريح الإمام السهيلي بمراكش بمناسبة ذكرى ثورة الملك والشعب مرتين) منذ عشر سنوات وذكرى التملي بطلعة السلطان محمد الخامس لأول مرة

أيها الجمهور المؤمن التالي الذاكر والقارئ للأحداث القريبة والبعيدة للعبرة وأخذ الدروس! تحل علينا كل عشرين من شهر أغسطس؛ ذكرى مؤثرة في خلفية ذاكرة جيلي وجيلكم ممن أدركته هذه الذكرى في مقتبل الشباب، وهي تحمل له من أنواع المفاخر وعاطر المناقب، ما يدفعه إلى استعادة مشاهدها المؤثرة والحاسمة في رسم تاريخ المغرب خلال القرن الماضي! وهكذا وقبيل عشرين غشت سنة 1953 وأنا تلميذ بأحد كتاتيب (قرية الأحباس) التي يضم شكلها الثلاثي كلا من المسجد اليوسفي، والد المرحوم المجاهد محمد الخامس، والمسجد الحديث، مهد الوطنية والوعي الديني، (مسجد محمد الخامس) والمطل على حديقة المكتبات الوطنية، وفي مقدمتها مكتبة الطالب للزعيم السياسي، والكاتب الشهير والمستشار: الأستاذ عبد الهادي بوطالب، وفي رأس الهرم القصر السلطاني المحمدي الكبير، والمتوسط لخريطة الدار البيضاء الحديثة، والسلطان رحمه الله يخرج إلينا ونحن صفوف في سيارة زرقاء مكشوفة ونظارتين سماويتي اللون، وجلباب قريب من نفس اللون، يحيينا بيديه الكريمتين مبتسما، ونحن نكاد نتطاير من الفرح والتصفيق والأناشيد، منهيا ذلك بصلاة الجمعة في مسجد والده المولى يوسف.

أما المشهد الثاني لهذا التلميذ في المدارس والكتاتيب هنالك فكان في قصره العامر بالرباط وقد أخذتني الوالدة رحمها الله في قطار الرباط وأنا أمتطي القطار ولأول

مرة! لزيارة إحدى قريبات (للا تعزا) جارتنا ولحضور صلاة الجمعة بالرباط هنالك، ولا تزال فرحتنا ونحن مصطفون نساء وأطفالا، وأناسي كثيرا، في انتظار خروج السلطان، تتأخر عنه العربة الذهبية اللامعة يسوقها جندي من عسكر السلطان بأربعة خيول مطهمة مكسوة بالحرير، والسلطان على فرس ليلي اللون، وكأنه رحمه الله يشير إلينا بما يعاني من مضايقات الحاكم الفرنسي، قبيل منفاه بقليل، وقد تعرض لسقطة من هذا الفرس الليلي الألوان فتشاءم منه واستبدله بالعربة ذهابا وإيابا رحمه الله ولا يزال صوته الرخيم في أذني وهو ينادي : (بلغتي بلغتي) أي هاتوا حذائي.

وإذا بنا نسمع النبأ وبعد ذلك الذي سقط على رءوس المغاربة جميعا كالصاعقة حيث اختار الفرنسيون وقتا صيفيا (من شهر غشت 1953، وهو عطلة) فيما بعد وفي الساعة الثالثة تقريبا في وقت القيلولة! ليرتكبوا جريمتهم التي كانت حاسمة في قيام المغاربة عن بكرة أبيهم، وفي مقدمتهم النخبة المدنية السلاوية والمراكشية والفاسية وتوابعها، بزعزعة الوضع الحمائي كله، ودفع الحامي الفرنسي إلى التفاوض، والمنتهي بعد مخاضات ومفاوضات ومحاولات! برجوع السلطان الشرعي واستمرار الملكية الجديدة في المغرب الجديد، من خلال امتداداتها التاريخية في أعماق اللاشعور المغربي قبل الإسلام وبعده في أكثر من عشرين قرنا إلى اليوم.

أيها الإخوة المكرمون المحتفلون! هنيئا لنا ولكم وللمغاربة جميعا، وللعالم العربي والإسلامي بالمحافظة على هذا اللون من الإخلاص للأجداد، والضرب العميق في أحشاء القرون والعصور بِأسْهُم من الوفاء والصمود، والتحدي عبر أزمات وأعاصير، ومحاولات من الشرق والغرب والجنوب! ليصير المغرب إلى غير ما عهد فيه من الاختيار التاريخي العميق لثوابت مقدسة مجمع عليها ولنموذج ملكي شوري شرفاوي محمدي متطور ومتجدر في القلوب، يجمع بين الرمزين المتفرقين في غيره: الرمز الديني إمارة المؤمنين، والرمز الدنيوي المدني الإداري الاجتهادي في شخص الملك الجامع لشؤون الدنيا

والدين مهما تفرقت الآراء والاجتهادات، وتزعزعت الجنبات والجوارات، محفوظا بحفظ الذاكرين والصالحين والمصلحين من أبنائه البررة، الذين يجمعون ولا يفرقون، ويحفظون العهود ولا يتنكرون، مهما انتشرت الأدخنة في الفضاءات من حولهم قريبا أو بعيدا، مدركين أنه وبغير هذا الالتحام والإجماع والسنة والجماعة معا، سيرجع الكل القهقرى، وسيدرك الحالمون مقدار الأخطار التي ستنالهم قبل غيرهم، ومن لم يشكر النعم التي ورثها ونماها أو استخف بها وتنكر لها وحاول هدمها وطمس معالمها، تعرض هو بنفسه لزوالها حيث لات ساعة مندم آنذاك، ولا ينفع القول (لو كنا حافظنا على إرثنا ونميناه لما وقع ما وقع) وهو لسان حال من حولنا اليوم، وقد أكلتهم الفتن، كقطع الليل المظلم ولا تزال، وقديما قيل: اللهم حوالينا ولا علينا، ونقول: (اللهم لا حوالينا ولا علينا).

وإن بلدا يقرأ كل خميس وجمعة سورة الكهف وسُوَراً أخرى محصنة من الفتنة، ضمن الحزب الجماعي الراتب (فيما يسمى بحزب الشيخ) قديما سيظل محفوظا بحفظ الله، ويضيف إليها من السلك الدورية التي حرص عليها ملوك هذه الدولة! حثا للطلبة على حفظ البلد كما يحفظها ليل نهار الجنود المعروفون والمجهولون، سيظل مهما امتدت به القرون في عهدة الله تعالى محبوبا مصونا، وهو ما نراه ونلمسه اليوم فيما يقوم به حفيد بطل الحرية والاستقلال، ونجل الحسن الثاني من مشاريع وأفكار خلاقة، ومنجزات عملاقة (محمد السادس) محفوفا بالتوفيق ومعززا بتصفيق شعبه عليه بالإجماع على أخلاقه ووفائه وتفانيه في سبيل طي المراحل طيا، وقطع المفاوز قطعا، وتحدى المخاطر تحدي الشجعان المفتوح عليهم والمنصورين بما قدموا من الأعمال المخلصة، رافعين أكف الضراعة والابتهال في الأخير في حمى هذا الرجل في نفيه ومنفاه بمراكش، وفي بلدته بالأندلس! (سهيل) بمختلف الوان العطاء العلمي

والتأليفي والإبداعي حتى صنع للورى توسلات مجربة من دعا بها أجيبت دعوته وأشهرها عينيته التي يحفظها خاصة وعامة الذاكرين والمادحين، وقراء الدلائل والمقرئين والملتمسين وغيرهم، كما كان يحفظها خواص الطلبة قديما وحديثا وعقلاء الإسلام في مختلف الأعصار وهو الإمام أبو القاسم السهيلي؛ أن يمطر شآبيب الرحمات على العاهلين المجاهدين والمنفيين العظيمين محمد الخامس رحمه الله، وجعله في أعلى عليين، والحسن الثاني رحمه الله، وجعله في حمى والده ومقامه بما بنى وأسس وجدد وطرس وتحدى وانغمس، وأن ينصر بنصره المؤزر أمير المؤمنين جلالة الملك محمدا السادس، وأن يحفظه بما حفظ به الذكر الحكيم، وأن يقر عينه بولي عهده الأمير الجليل المولى الحسن، وبصنوه الرشيد، المولى الرشيد، وبسائر أفراد أسرته الصغرى والكبرى في المغرب والعالم وبمحبيه والمعجبين بريادته العمرانية والتوحيدية والإبداعية وبتضحياته المتفانية، وتضحيات كل من وضع لَبِنَةً في الدفع بهذا البلد نحو الكرامة والحرية والعزة، وفي المقدمة من ناضل مع صاحب الذكرى بالغالي والنفيس من مقاومين وفدائيين ومناضلين، وأصر على أن يبقى البلد في عهدته التاريخية، مدفوعا بماضيه نحو مستقبل لا انقطاع فيه، إنه سميع مجيب.

(مراكش: ضريح الإمام السهيلي 2005)

وفي هذا الأفق الجديد من النظام التعليمي العصري الطابع والذي استطاعت الطبقة الوطنية من خريجي المعاهد الدينية كابن يوسف والقرويين والمدارس العتيقة بسوس ودكالة وغيرها، دلف المغاربة في انسجام مع مواده المقترحة من قِبل واضعي برامجه الموازية للتعليم الأهلي الغالب عليه المواد الفرنسية الطابع والأفق الحضاري، وإن لم تتوفر لهم الشروط الكاملة في إقامة مؤسسات وبنايات من مستوى المدارس الأهلية.

ولا أزال أذكر في ختام السنة الدراسية كيف انتقلنا إلى مدرسة أبي شعيب الأزموي في درب الكبير، لإقامة حفل ساهر في جنباتها الواسعة، ومرافقها الحديثة، وواجهاتها المنافسة للمدارس الأهلية الأخرى، كما لا أزال أذكر صعوبة قطع سكة الحديد، بين طريق بوشنتوف، ودرب اليهودي[1]، رغم وجود القطار القديم المشغل بالفحم الحجري، إلى جانب القطار الكهربائي المسمى ب (الماشينا) أو (طنجي فاس) باعتبار أسبقية قطار هتين المدينتين على غيرهما، وكون فاس عاصمة سابقة على الرباط جغرافيا وإداريا دون أن أنسى مشهدا صادما ذات صباح، ونحن نشاهد آثار دهس القطار لبقرة كانت ترعى وسط السكة حتى دهمها القطار، ووزع بعض أجزائها التي تخطفها بعض الفضوليين والفضوليات الباحثات عن الدم (المغدور) ولا يزال قلبها المتروك يعتلج ماثلا أمام عيني، وعمال القطار يزعون النساء من الاقتراب من لمس الدم المسفوح من قبل الراغبات في ممارسة بعض مراسم السحر و (التوكال) وما إلى ذلك، مما كانت النسوة الشاويات معروفات بتتبعه وممارسة طقوسه في مناسبات عديدة، وقد استطعن أحيانا أن يقنعن الوالدة رحمها الله بالالتجاء إلى الرقيا عند غضب

---

[1] بهذا الدرب المؤدي إلى ساحة المسجد المحمدي في حي الاحباس تقع مدرسة الفلاح واسم الدرب منسوب إلى المقاول مارتيني فيقال له أيضا درب مارتان وكان يسكن به يهودي يمتلك بنايات منه.

الوالد، مقترحات عليها طالبا سوسيا راقيا، وكان الطلبة السوسيون الراقون إلى اليوم لا تكسد لهم بضاعة، وربما اشتهر منهم نبغاء كبار، وقصدهم القاصي والداني، لكرمهم وسعة صدورهم، ومرافقهم وحوانيتهم، وسمتهم المميز الموحي بالورع والخشية وفي أوساطهم دجاجلة محتالون لا يلبثون أن يفتضحوا ويختفوا.

كما لم أنس مشهدا آخر أخرجنا فيه السيد مدير المدرسة، ونحن نلبس لباس الكشفية لأول مرة قصد ممارسة الرياضة بحديقة (لارميطاج) تارة وأخرى بشلالات (مدام كاسكاض) خارج الدار البيضاء في الحافلة بين المياه والأشجار والحقول ذات ربيع طيلة يوم كامل، وتسمى شلالات (عين حرودة) أيضا.

وقد ظهرت نتائج هذا اللون من التعليم فيما بعد، عند ما قضيت عطلة صيفية بالقرية التحقت فيها بالكتاب القديم، وأنا في صورة تلميذ عصري (بيضاوي) اللهجة والتصرفات، مما لفت نظر (المحاضر) إلي مركزين على هذا التغير غير المعهود عندهم، ومما جعل سيدي (عَلِي أُبَتِّ) شيخي الأول يثني على نباهتي وهو يخاطبني بالدارجة وأجيبه وأفسر بعض الكلمات، وأكتب بعض الرسائل، واظهر للمحاضر بعض الدفاتر المشتملة على محفوظات وأناشيد ومواد لم يعهدوها، مما سهل علي الدخول من جديد في سلك حفظ القرآن الكريم، والتقدم في قطع بعض الأشواط في ذلك خلال شهر ونصف لا غير، لاستكمال حفظ القرآن الكريم باقتراحات فقهاء القرية أمثال: سيدي (عبلا الأدوزي) وأخيه سي (إبراهيم) وسيدي (عَلِي) مما شجع الوالد على التفكير في إعادتي إلى الكتاب ولو اقتضى ذلك بحثا عن مدينة أخرى قريبة من الدار البيضاء.

من البيضاء إلى مدينة سطات لاستكمال حفظ القرآن الكريم

وجاء اقتراح الجهة هذه المرة من قبل أحد أصدقائه القدماء لما كان بباريس، واسمه (محمد مزين) ولا أزال أذكر أناقته ورقي لباسه ولهجته وتمييزه بسلوك ذوقي باريسي النشأة، وكانت له زوجة سوسية الأصول (للا الصغيرة) إلى جانب أختها (للا الكبيرة) بـ(سطات) تسكنان في دار صغيرة المساحة، قريبة من المركز والوادي، وطريق مراكش، ومعهما أحد أزواج للا الكبيرة السطاتي الشاوي الطابع يشتغل في شراء وبيع جلود الأكباش ينقلها عبر (الماشينا) من الدرجة الرابعة (كاتريام) إلى مراكش، ثم يرجع إلى سطات ريثما يستريح عند للا الكبيرة، فأجدها فرصة للابتعاد عن نظراتها ومراقبتها ليلا، وأنا أجد في أحضان أختها للا الصغيرة بعض الدفء والحنان في جو بارد جدا، ومعيشة يغلب عليها تقشف أهل سطات، وشحة ما يقدمون من طعام إلا في مناسبة (الشيخات) والأعراس، والحالة أن الشاوية ملغمة للكباش الصردية الشهيرة بجمال صورتها وفراهة أحجامها.

وكان أحد أصدقاء الوالد يدعوني إلى زيارته أثناء الأخمسة والجمعات، إلى مقهى له وسط المدينة قريب من ساحة حافلات الجهات ومراكش والبيضاء، يقترح علي قطعا مشوية من لحم البقر، ومعها أشياء تشبع القرم إلى اللحم القليل يقل طهيه عند أسرة (محمد مْزِّيْنْ) وبالاضافة إلى ما أتناوله من النزر اليسير من الأسفنج والشاي والزيت عند الطالب السوسي الواقع كُتابه بعيدا على أطراف سطات، بعد قطع مجموعة من حقول الكزبرة والعدس والحمص والجلبان والخرذل ونحوها، قريبا من

ملعب فريق سطات الأهلي لهذا العهد، وكان محاطا بالخشب والقصدير حماية له من الاقتحام وقت المباريات، مما صعب علينا نحن محاضر الكتاب يوم السبت والأحد! الفرجة الكاملة إلا بصعوبة، ولا أزال أذكر زوجة الطالب (سيدي الحسين) الرقيق الحواشي النشيط الحركات، غير مبال بقضايا الأطفال من جيرانه الفلاحين ومسكنتهم وهو يرسلني إلى زوجه، فأغشى داره فأجدها في تمام نشاطها تقدم لي بفرحة ما تيسر عندها من كأس شاي وأسفنج وخبز أعدته لزوجها، لا بسة على اللحم كما يقال (الدفينة) الرقيقة اللحمة والسدى تتحمل بها برد سطات القاسي أيام الشتاء، جزاها الله عني وعن أريحية زوجها الزاهد كل خير.

وكان عزائي أيضا في هذه الغربة بعض ما أمتع به النظر في الطريق من حقول ممتدة على وجه أرض شرق سطات وازدهار شقائق النعمان وقت الربيع تداعب خصلاتها رياح الشرق والغرب والتي تهب عليها من شاطئ (سيدي محمد بن رحال) المشهور، كما كان يلفت نظري وأنا أبعد النجعة في طريق مراكش هذا الوادي (وادي بوموسى) الذي يشق جانبا من مدينة سطات وذلك عندما كنت بها سنة 1951/ 1952/ والذي حمل حملة كاسحة على سطات فغمرها رغم جفافه المعهود غالب أيام السنة، فإذا قطعنا قنطرته بدت لنا ثكنة السجن المسماة ب (السجن الفلاحي العدير) حيث عمدت فرنسا إلى أرض مشرفة معزولة عن سطات، وإحاطتها بالأسوار والأسلاك والإنارة والحقول التي يشتغل فيها السجناء من الدرجة الخطيرة في ثياب خشينة مغبرة الألوان، ورءوس محلوقة! تارة يقطعون حجارة (الكاريان) في أشغال شاقة، وأخرى يمارسون حرث الأرض ورعايتها وحصادها، تحت مراقبة حراس شداد غلاظ لا يعصون المدير الفرنسي ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون به رغما عنهم!. وكان يقال لنا إنهم يكتفون بإناء قصديري فيه بعض اللحم والماء والعدس وخبزة حافية

يملأون بها بطونهم الجائعة، لا يزارون ولا يزورون! مما زاد في إشعاري بجفاف طبيعة هذه المنطقة غنيهم وفقيرهم على حد سواء، في منظر البؤس والتبؤس والاكتفاء بالفلاحة وبيع المحصول وتبذيره في بعض المناسبات المفرحة!

وكان من لحظات السعادة أحيانا أن تقترح علينا (الأخت الكبيرة) الخروج صيفا إلى ظاهر سطات لالتقاط بقايا السنابل وجمعها وحملها إلى البيت، قصد إعدادها للعجن وسد الرمق عند اشتداد البرودة والأمطار، فأجد في هذه العملية نشاطا وفرحة تغاير ما يتكرر عندي يوميا من عادة الخروج صباحا باكرا إلى الكتاب والرجوع عند المغرب إلى البيت الجاف الذي لا يشعرك ذووه إلا بما يشعرون به من انطواء على النفس وهم يكادون يتضاغون من الجوع ولا زوار ولا جارات ولا أصدقاء، والزوجان غائبان عن الأختين في الغالب وأحد الزوجين في البيضاء مع الوالد يلجأ إليه ليبيت في دفء المقهى تخلصا من الكراء، وهو ضئيل الحجم لا يحتاج إلا إلى حش كمفحص قطاة، والثاني طوال خشن عروبي المنظر شاوي اللهجة، معظم أيامه ولياليه في الأسواق ومراكش، وقد يبس منه الجلد، وتحول لونه إلى لون البرونز والنحاس، وزاد الطين بلة عادة التدخين التي يفضحه لأجلها سعاله الشديد ليلا، فيستدعي ذلك نفور للا الكبيرة منه، وربما أمرته بأن يتنحى عنها جانبا. رحم الله الجميع، وجزاهما عن هذا التلميذ الخوَّاف الخجول خيرا آمين.

ومما كان يخفف عني الوحشة زيارة الوالدة لنا، وقلما تتكرر، حيث تمتلئ الدار بالأفراح والطعام، وتحول الوالدة الجو بحديثها وحكايتها وثنائها على الأختين وزوجيهما، فيكون ذلك سببا في شعوري بشيء من الاغتباط وأنا أنام بين أحضانها، وأحضان للا الصغيرة، وأشعر بالدفء وأنام دون خوف من الجن الذي يقال بأنه يسكن هذه الدويرة لوجود كنز بها! فلذلك اشترتها الأسرة بثمن بخس، وربما طلب

مني زوج للا الكبيرة محاولة القراءة والعزيمة على المكان، فأعتذر له بمختلف أنواع الاعتذارات.

ولا أنسى محاولة خروج الأختين ذات ربيع بي في اتجاه (سيدي محمد بن رحال) وإلى (قبيلة أولاد سعيد) عند بعض أصدقاء الأسرة، وقد بعثت إليهما ببغلة وحمار امتطيناهما وسرنا طيلة النهار في حقول وشعاب وجداول وطرق، بعضها واضح المعالم، حتى وصلنا إلى دار هذه الأسرة المضيفة (ونوالتها) المصنوعة من القش المتقن التوضيب، وقد أَلَمَّ بنا الجوع، وانتظرنا على أحر من الجمر ماذا ستقدم لنا هذه السيدة الفلاحة من ألوان الطعام، ونحن نشم رائحة الكانون (والفرَّاح) المعد لانضاجه من الفخار وما به من خبز في طريقه إلى النضج، ونرى على وجه هذه السيدة من ألوان اللهب وأضواء الكانون، ما جعلنا ننسى الجوع إلى حين.

وهكذا بتنا ليلتنا داخل (النوالة) منحشرين إلى بعضنا في دفء اصطنعناه بأجسادها رغم برودة جو فبرائر واخضرار زرعه، وهبوب رياح البحر المحيط على (الدوار) بقوة! وفي الصباح فتحنا أعيننا على دخان (الكانون) والفرن الطيني الذي أوقدت أرضيته لإعداد الأخباز الكافية نهارا مع ما يصحبها من زبدة وسمن ومخيض، وعند الغداء وبعد رحلة خلال الحقول زرنا فيها أحد صلحاء القرية ذي القبة البيضاء والفناء الخاص ولعله أحد رجلين مشهورين في القبيلة هما سيدي علي مول الهبارية والثاني سيدي محمد البياض وتملينا بعبق جو حماه واسترحنا عند (دربوزه) الأخضر المريح ودعونا ودعي لنا، ووضعت الزائرات بعض (النقود) في (صندوق) السيد على العادة في تقديم الصدقات بين يدي الدعاء والنجوى.!

وجاء وقت الغداء في وسط الحقول وكان عبارة عن (قيصرية) من الفخار مليئة بالكسكس المعد بالأيدي، والمفتول جدا في شكل كرات صغيرة من الشعير، وقد

سقي ببعض السمن الحار، وقدمت إلينا مغارف من (الدوم) مستديرة الشكل تملأ بالكسكس وينصب منها اللبن المخيض المسقي به جنبات من القصعة الطينية الحمراء الألوان!، مما يسمونه في حالة تزويد الحصادين وغيرهم ب (سايكوك) كما تناولنا عند جولاتنا خلال الحقول الخضراء من نبتة (كرينبوش) من فصائل الجلبان المفروشة على الأرض بعض (خرائطها) المليئة الجانبين الخضراء الحلوة المذاق، تؤكل كما يؤكل الجلبان!، في مذاق جديد وأطعمة جديدة، ومنظر جديد، كله يدخل إلى أعماق الذاكرة لأول مرة في اللاشعور إلى اليوم، خضرته وخصوبته ونداوته وطراوة هوائه وبساطة فلاحيه وفلاحاته، وتفرق مواشيه ذات اليمين وذات الشمال، في رعي حر تحت الأشعة الدانية أحيانا، وأخرى تحت ظلال السحب الربيعية المبشرة بمزيد الصبيب من الأمطار الرطبة القريبة من المحيط عند شاطئ الولي الصالح (سيدي محمد بن رحال) أحد أبناء الشيخ الشهير بسيدي رحال البودالي، دفين (أَنَمَايْ) قدس سرهما.!

ولن أنس أبداً ما شعرت به ولأول مرة من حب للأخت للا الصغيرة، وهي غير ذات ولد أيضا ومن انفتاح على الطبيعة، وشعور بالأمومة، وأنا أتشبث بأحضانها، راكبا خلفها على بغلة وتيدة الخطو وهي تهدهدنا وتبعث في الطمأنينة والأمن، فاستسلمت للنوم حتى تشعر بي فتنبهني قائلة (سي محمد سي محمد! عَنْدَكْ شَدّْ فِيَّا مْزَيَانْ لَا طِيْحَكْ الْبغْلَة!).

ما الحب إلا للحبيب الأول

ولله ذر من قال:

كم منزل في الأرض يألفه الفتى　　　وحنـين‍ه أبدا لأول منــزل

ومع هذا العزاء شعرت بفراغ في هذه البلدة القروية البدوية الطبع (سطات) التي قيل عنها في غير هذا السياق الطفولي البرئ إنها وإنها وإنها! فقد دفعني الجفاف العاطفي والفراغ وقلّة الأصدقاء المخلصين، ونظرة التلاميذ الزملاء من رفقاء الكتاب إلى هذا الطفل السوسي الذي لم يستطع أن يتعرب بلهجة أهل سطات القريبة من لهجة البادية، وبقي على هدوئه وحبه للسلامة، وعدم دخوله في الخشونات والمقالب والمغامرات، ما جعلني أشعر بنفور شديد من هذا الجو كله، بمحاسنه ومساوئه، بما في ذلك خرجات الربيع إلى أرض في رعاية صديق الوالد صاحب المقهى آنف الذكر (محمد أوبوجمعة) وهي منخفض عند أحد فروع وادي (بو موسى) مليئة بالأشجار والخضر وبعض الفواكه، أقضي مع أسرته رابعة النهار، ثم أقطع الطريق مارا على غابة (وحريسة خيلِ لَارْمُوذْ) التي أسست بها فرنسا حديقة للخيول (الجيدة) للقاح! فكان الفلاحون والنخب الفلاحية يقصدونها بإناث الخيل (الْحِجْرَات)[1] قصد الضراب وإيجاد نسل هجين قوي جامع بين الخيول العربيةالبربرية، والخيول الفرنسية الأرووبية.

---

[1] الفرس الأنثى في العربية تسمى (حِجْراً) وتجمع جمع مؤنث قياسا على (حجرات) وتجمع على أحجار وحجور، كما يسمى ما ليس منها بعربي النسل بردونا، والحصان اسم للذكر لأنه يحصن ماءه إلا على كريمتة خاصة، أما الخيل فجماعة الأفراس، وأما الرمكة فالبردون تتخذ للنسل ج أرماك، والفرس واحد الخيل.

وحدثني الشيخ موسى رحمه الله أنه شد الرحال غير ما مرة إلى هذه الحريسة يسوق (الجلب) من سوس تارة، وإليه أخرى، مستعينا بخبرتة ومسؤوليته عن هذه الأنعام باعتباره من أعيان سوس وفلاحيها المتطورين مع الوقت! وقد اتخذت سطات بعد ذلك هذا الشعار في صورة منحوتة رخامية وسط المدينة، وإن اختفى الجزء الخاص بخصيي الفرس السطاتي تدريجيا من هذا التمثال الناطق في شكله وارتفاعه ورمزيته! وربما بإشارة ممن يهمه أمر الشأن العام للمدن المغربية وشعاراتها الجديدة اللائقة بمجتمع مسلم محافظ على التقاليد والعادات المعتدلة والمحتشمة، ونكاية بالمشرف على سطات إشرافا فعليا ووزيرا مرموقا ورئيسا في المهمات الصعبة آنذاك رحمه الله.



مدينة سطات كما خططتها السلطات الفرنسية بعد الاحتلال

١١

الإرث اللاشعوري المترسب في ذاكرتي عند مغادرتي البيضاء مرغما وارتساماتي عن بعض الأعلام وهم تباعا :

- أولا: محمد المختار السوسي :

وقد كان لي خلال هذه المسيرة من الطفولة بين قرية العوينة، وبين المدينة الكبرى الأولى، إرث تراكم عبر التنقلات بين الجهتين المتناقضتين والمتحاورتين بواسطة خمسة من الشخصيات البارزة في الدار البيضاء، وللإشارة فقد كنت في إحدى هذه الفترات إلى جوار أحد شيوخي فيما بعد محمد المختار السوسي الذي قضى من فترات تنقلاته بين مراكش وسوس والمنفى والرباط وفاس، فترة في الدار البيضاء، وقد جمعني وإياه زقاق واحد وسكنى بالدرب المسمي باسم أحد تجار الماشية من أصول جزائرية، وأحد أعيان البيضاء (محمد بلعالية) وهكذا عرف محمد المختار بعض الاستقرار بهذا الدرب، وشرع يلقي دروسا في مسجد قريب، وهو مسجد الحفارين، وأضاف إلى ذلك دروسا في المسجد المحمدي الكبير وغيره، وستأتي بعض التفصيلات عنه.

- ثانيا: محمد الحمداوي :

كما كان لي شرف الاتصال بالفقيه الوطني والسلفي محمد الحمداوي الآخذ عن شيخ السلفية التقليدية الأول آنذاك: الفقيه عبد الرحمن بن محمد النتيفي، وكان الحمداوي من المشرفين على مدرسة الفلاح التي سلخت فيها أزهى سنوات الطفولة، وكان صديقا للوالد القريبة مقهاه إلى مدرسة الفلاح، وكان لي في ذلك شرف حضور حفلات آخر السنة في مدرسة أبي شعيب الزموري، بالدرب الكبير، ولدى رفيق الفقيه الحمداوي في المهنة والتربية آنف الذكر وأحد تلامذة الشيخ النتيفي، وزميل الأستاذ المناضل، والوطني الشهير، ومدير مدرسة الأميرة للا عائشة بنت عاهل

المغرب محمد الخامس، وله صحبة مع أستاذنا محمد المختار السوسي وعاش معه في المنفى هو وإلى جانب هؤلاء الوطنيين المثقفين واللغويين البارزين ومؤسسي المدارس الحرة الثلاث: مدرسة الفلاح، ومدرسة أبي شعيب الزموري، ومدرسة الأميرة للاعائشة، في وسط المدينة الجديدة الممتدة خارج أسوار آنفا، وفي ثلاثة دروب أنشأتها الحماية للأهالي المغاربة على التوالي (درب اليهودي) أو درب مرتان (و درب بلعالية) و(درب الكبير) صحبة الفقيه الحريزي هذا وكان المشرف على جملة من كتاتيب الدار البيضاء، وبعض مدارسها الحرة على النمط السلفي الجديد.

- ثالثا: عبد الرحمن بن محمد النتيفي :

وها هو نموذج السلفية الوهابية الأولى الفقيه والخطيب والمؤلف أبو زيد الحاج عبد الرحمن النتيفي الجعفري كما صرح في كتيب بقلمه، يحتوي تفصيلات عن حياته وأعماله وطلبته وسيرته، نموذجا لمن سيأتي بعده من باعثي هذه التيارات السلفية، يثير بها مسائل خلافية من الموضوعات المحببة للسلفية ليملأ بها الجو، ويثير بها زوابع من الخلافات في شؤون العبادات خاصة وكما يعاد تكرارها اليوم! ونظرا لموقف الشيخ الحيادي من الوطنية والوطنيين كان الحاكم الفرنسي يزوده بمؤونة شهر من الدقيق والزيت والسكر ولباس الصيف والشتاء: السلهام والقميص والجلباب وغير ذلك (فيما ذكر الفقيه العلامة محمد أباعوص) رحمه الله.

ويقول ولد الشيخ عبد الرحمن النتيفي: وللفقيه النتيفي مايفوق سبعين مؤلفا، وقد طبع رحمه الله بعضها، ومن بينها: كتاب (الحكم المشهور في طهارة العطور، وطهورية الماء المخلوط، بالملح المسمى بالكافور) وكتاب (حل إبرام النقض في الرد على من طعن بالمحلول أو سنة القبض) وكتاب (الاستفاضة في أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يرى بعد وفاته يقظة) وكتاب (تنبيه الرجال في نفي القطب والغوث

والأبدال) وكتاب (لطف الله مع هبته في الرد على قاضي أمزاب وشنيعته) وكتاب (اللمعة في أن كل مكان تصح به الجمعة) وكتاب (الإلمام في رد ما ألحقه مبتدعة زيان من العار بالإمام) وكتاب (الذكر الملحوظ في نفي رؤية اللوح المحفوظ) وكتاب (الإرشاد والسداد في فضل ليلة القدر على ليلة الميلاد) وكتاب (توشيح تزيين الأرائك في إرسال النبي للملائك) وكتاب (القول الفائز في عدم التهليل وراء الجنائز) وكتاب (القول المعلوم في إباحة النظر في النجوم) وكتاب (كشف الخدر في ما وقع من الهرج في زكاة الفطر) وكتاب (التهاني في أجوبة الفقيه العثماني) وكتاب (السيف المسلول في الرد على من حكم بتضليل من ترك السيادة في صلاة الرسول) وكتاب (المستغفر في بقاء الجنة وفناء جهنم) وكتاب (المستغنم في رفع الجناح على المستخدم) وكتاب (الإعلام في الرد على من حقر بعض شعائر الإسلام) وكتاب (المختار عند الأعلام في الحكم على السيكرو[1] بالحرام) وكتاب (القول الصائب في جواز طلب الجماعة بعد الراتب) وكتاب (القول الجلي في الرد على من قال بتطور الولي) وكتاب (المسائل البديعة في البحث مع أهل الهيئة والطبيعة) وكتاب (الأبحاث البيضاء مع الشيخين عبده ورشيد رضا) وكتاب (حكم السنة والكتاب في وجوب هدم الزوايا والقباب) وكتاب (الدرة الوهاجة في نفي صحبة بني دغوغ ورجراجة وصنهاجة) وكتاب (شفاء الصدور في أن الشمس سائرة والأرض ساكنة لا تدور) كذا!!! ؟؟؟ وكتاب (الإرشاد والسداد في رخصة الإفطار للدراس والحصاد) وكتاب (العين والقذى في عين من رخص الإفطار ولو بقليل من الأذى) وكتاب (إظهار الحق والانتصار في البحث مع صاحب توجيه الأنظار لتوحيد المسلمين في الصوم والإفطار) وكتاب (الميزان العزيز في البحث مع أهل الديوان المذكور في كتاب الإبريز للشيخ الدباغ

---

[1] لعله الاسم المحرف للاسم العلمي للديكسترو ميتورفان للسعال وهو غير مسبب للادمان وليس مادة أفيونية وقد يسبب النعاس قليلا وهو ممنوع على متناولي أدوية الاكتئاب.

عبد العزيز) وكتاب (الفضل والمنة بالبعث في حديث لن يدخل أحدكم عمله الجنة) وكتاب (خير المتاع في بيان أخطاء فقيه بني السباع) وكتاب (كشف النقاب في الرد على من خصص أزواج النبي بآية الحجاب)! وكتاب (سيف النكال والزجر في الرد على من قال لكي لا تحرثوا في البحر) وكتاب (إرشاد الحيارى في تحريم زي النصارى) كذا ؟؟ كتاب (الإرشاد والتبيين في البحث مع شراح المرشد المعين) وكتاب (الأبحاث البينات فيما قاله عبده ورشيد رضا في تعدد الزوجات) وكتاب (رد طعن الطاعنين في سحر اليهود لسيد المرسلين) وكتاب (العارفون والأبرار يعبدون الله طمعا في الجنة وخوفا من النار) وكتاب (مناهج الرجال في الرد على الشيخ رحال) وكتاب (التبشير بالجنة لا يختص بالعشرة) وكتاب (الفهرسة التي تشتمل على أسانيده ومروياته وإجازة العلماء له) وكتاب (أوثق العرى في الأحكام المتعلقة بالشورى) وكتاب (تحفة الأماني في الرد على أصحاب التجاني) وكتاب (القول المؤيد في أن التيمم يرفع الحدث الرفع المقيد) وكتاب (إيقاض الهمم في أن عهود المشايخ لا تلزم) وكتاب (البراهين البينات في أن الأنساب ظنيات لا قطعيات) وكتاب (حكم الحق والكتاب في طعام أهل الكتاب) وكتاب (البراهين العلمية في ما في الصلاة المشيشية) وكتاب (أصفى الموارد في الرد على غلو المطربين في رسول الله وأهل الموالد) وكتاب (الزُّهْرَةُ في الرد على غلو البردة) وكتاب (الحجج العلمية في رد غلو الهمزية) وكتاب (أحسن ما تنظر إليه الأبصار وتصغى إليه الأسماع في نقد ما اشتمل عليه ممتع الأسماع في الجزولي وأصحابه والتباع) وكتاب (مطالع المسرات والدلائل البينات في البحث في دلائل الخيرات وشرحه مطالع المسرات)، وهكذا في إثارة الخلافات السلفية على السادة المخالفين لهم وتصيد مخالفاتهم الى اليوم وقديما قيل: إياك والحنبلية بحثا فإنها منهج عقيم ومرتع على صاحبه وخيم.

وكان الشيخ النتيفي يواكب طلابه ويشتغل بمؤلفاته ودروسه بالمسجد اليوسفي، ومواقفه السلفية الوهابية التي أشربها من رحلته إلى الحج، ومن بعض شيوخ السلفية المغاربة، مما جعل من الدار البيضاء مدينة بين ثلاثة أقطاب: أحدها قطب محمد المختار السلفي الصوفي المتفتح، وقطب عبد الرحمن بن محمد النتيفي السلفي الوهابي المتشدد، والمنتقد للمغاربة علماء وفقهاء وعامة بِجملة من مواقفه ورسائله في الموضاعات المعروفة عن السلفيين: حول القبض والسدل، وأمور حول الصلاة إلى أمور من المآخذ على الصوفية، وعلماء أهل السنة المغاربة، والاتهام بالتفريط في الصلوات والسنن المعروفة عند الوهابية والتي يدور حولها كل معتنق لهذا الانتماء المخالف لما عليه السلف والخلف من أهل المغرب إلى اليوم، وكأنهم وجدوا في هذا الكنز النتيفي الرائد ما به يشغلون العامة والخاصة برسائلهم ومؤلفاتهم المتشابهة مع هذا التيار الجارف الرائد السائر في نفس المنهج العقيم.

- **رابعا: الحاج عابد التاجر السوسي (1894) بتافراوت :**

وكان معه في هذا الاستقطاب الحاج عابد السوسي[1] وهو الطالب التاجر الذي رحل إلى الحجاز وأشرب هو أيضا حب الانتقاد على علماء المغرب ومدرريها تارة بالاتصال والإكرام، وأخرى بالإنكار والانخرام، وإن كان له الفضل في إنشاء المعهد العلمي بتارودانت فيما بعد مع المختار السوسي، رحمهما الله، وكان يحرص على زيارة الكتاتيب وأصحابها متفقدا وحريصا على هذا الاتجاه، وهو الذي لقن عددا من طلبة سوس أمثال الدكتور الحسن وجاج هذا الاتجاه باكرا فيما أخبرني به شخصيا وفيما أفادنيه الإمام الخطيب بمسجد إيمي نتانوت الحاج عمر اليوسفي والذي كان الحاج عابد يستريح عنده أثناء الطريق ومراقبة للأئمة من قريب كما صرح به

[1] انظر سيرته في مؤلفات جمعية علماء سوس وغيرها.

فيما بعد للإمام اليوسفي لما اطمأن اليه والحاج عابد من العصاميين من حفظة القرآن الكريم وهو فريد في السبق إلى أمور منها:

- أنه مفتوح عليه في التجارة فلا يضع يده في مناصفة حتى يفوز بها.

- وأنه أول من أشرب حب السلفية من شيخه الآنف الذكر عبد الرحمن النتيفي ولازمه وحاول تطبيق نزعته فيما يأتي ويذر ونشر ذلك في تنقلاته وتواصله مع الفقهاء وغيرهم.

- وأول من أنفق على العلامة محمد المختار وهو بفاس.

- أول سوسي بلغت ثروته المليار واحتفل بذلك سنة 1948.

- وأول سوسي نقب عن البترول وحفر آبارا استغلت فيما بعد مصدرا للمياه.

- ومن أوائل من قدم الأعمال الاجتماعية.

- وبسبب أنه أول سوسي يرأس الغرفة التجارية بالدار البيضاء سنة 1951 فقد اتهمته جهات وطنية بالعمالة لفرنسا حتى هم به بعض الفدائيين ونجا بامتناع الرصاصة من إصابته وقد هدد مرة أخرى وطلب منه مبلغ كبير فدية وسلم المبلغ الكبير ومع ذلك كله لم تخل مواقفه من تأييد وطلب برجوع محمد الخامس من المنفى في ندوة صحفية بباريس فنوه به الملك الحسن بعد ذلك نموذجا للوطنية وأوصى به خيرا.

- ويكفيه أنه ختم حياته بتدشين معهد محمد الخامس بتارودانت والذي كان سببا في حصولي على أول شهادة ابتدائية بعد الاستقلال مباشرة سنة 1956 وبها سجلت في السنة الثانية من جامعة ابن يوسف بعد مقابلة.

- **خامسا: الحاج الأحسن البعقيلي :**

وكان القطب الثالث والمناصر للتصوف أحد البعقيليين الذين لهم صلة بأصول الوالد والجد، والمسمى الحاج الأحسن البعقيلي، والذي سبق أن كان في بلاد زيان والشاوية وسطات، وأخذ عن علماء عصره بسوس والحوز وغيرهما، قبل استقراره بالدار البيضاء، وتأسيس الزاوية البعقيلية التجانية، والمطبعة التي كان يطبع بها مؤلفاته حول (السلوك والأخلاق والتفسير) ويرد على بعض علماء عصره من السلفية التقليدية، ويستقبل في زاويته من طلبة سوس وغيرها ويكرمهم ويوجههم نحو التعليم والتدريس، ويشرف بسبب ذلك على جملة من كتاتيب الدار البيضاء دون أن يتشوف إلى منابذة السياسة الجارية آنذك. (انظر ترجمته في معلمة المغرب بقلمي).

من ذكريات الوطنية وحب صاحب العرش بالدار البيضاء 1957 / 1959 مع أصداء عن أعلام الفكر والصلاح والعلم من علماء سوس والمسجد المحمدي الكبير، والزاوية البعقيلية التجانية بدرب غلف ونموذج الفقيه النتيقي السلفي والحاج الحسن البعقيلي الفقيه الصوفي ومدرسة الفلاح ومدرسة أبي شعيب الأزموري عند خمسة من الأعلام.



وزير الأوقاف العلامة سيدي محمد المختار السوسي أثناء تأديته للقسم عند تشكيل الحكومة الأولى بعد الاستقلال 1955/12/07م

١٢

وإقامة قصيرة بالدار البيضاء في ظرف سياسي حرج
مع محاولة جمع القرآن الكريم

وكان الرجوع من سطات إلى الدار البيضاء في أحضان الوالدة وصحبة الوالد، وأفراح المدينة الكبرى وأحزانها! بعد إن قرر الوالد أن رجوعي لاستكمال بعض ما حفظته خلال هذه السنوات من أحزاب وأجزاء بين كتاتيب الدار البيضاء الشحيحة الاهتمام بحفظ وتحفيظ كتاب الله للأطفال، وبين دوار العوينة العظيمة البركة والاهتمام وذلك بشيخها الفتاح للأذهان والعقول والذاكرة: سيدي علي آيت الهماني، وبين سطات المحسوبة على الشاوية في التساهل في جمع القرآن الكريم، رغم هذا المدرر السوسي الحازم والذي ألف من عادات أهل سطات! فترك التلاميذ وحبلهم على غاربهم رغم حزمه ويقظته، وكأن آباءهم وأمهاتهم غير حريصين على المزيد ؟؟!!

ولذلك قرر الوالد أنه وعلى أثر زيارة مفاجئة لسطات صادفت خروجي نافرا ومقررا الرجوع إلى الوالد في مغامرة طفولية على الأقدام! قيض الله لي فيها أحد شيوخ أولاد حريز، فنقلني بسيارته إلى مقهى الوالد الذي وجدناه غادر بدوره إلى سطات، وكأنما كنا على غير موعد في اليوم نفسه، وكأن قلب الوالدة حدثها بشيء من هذا الحدث! فما كان إلا أن فوجئت بآثار هذه المغادرة والتي لم يخفف من صدمتها إلا قيام محمد مزين زوج للا الصغيرة، بمهاتفة داره للإخبار بوجودي في عهدته! وسرعان ما حملني معه إلى سطات في اليوم الموالي لطمأنية الوالدة وإرجاع الروح إليها! حيث أضطررت هذه المرة للاعتذار بشكوى طفولية الغريزة وهي الزعم بعدم كفاية ما أتناوله من الطعام! وهي مجرد تعلة لإخفاء مشاعري المكتومة حول هذه المدينة وجوها

وناسها، وعن الأسرة الصغيرة التي كنت في عهدها، وعن الجفاف العاطفي الذي أشعر به من خلال هولاء القوم الذين تؤثر عليهم ولا شك برودة المدينة والطقس، وجفاف التصرفات والطبع واللباس، وبداوة موروثة وحذر وترقب للحرث والزرع تطول إلى أن يسخن الجو كله في الصيف، ودون وجود أماكن للترفيه مثل الدار البيضاء.

وهكذا كتب لي أن أتابع في الدار البيضاء بقية سنتي 1951 / 1952 / عند طالب كُتَّابٍ بحي بوشنتوف الحديث العمران، وقد حاول الفقيه لما وجدني ملما بما هو غير معتاد عند تلاميذ كتاتيب الدار البيضاء، أن يقطع بي بعض الأشواط بحفظ الأحزاب الثلاثين الأولى، وكانت الوالدة تبعث إليه من الهدايا والإكراميات والأربعائيات والأحديات والإفطار، ما جعله يُبدي من الاهتمام أكثر ما يبديه بالتلامذة الآخرين. وأنا بين درب بلعالية وبوشنتوف ودرب السلطان خلال اقتراب أزمة 1952/ 1953م.

وهكذا وجدت الأسرة هذه المرة تسكن بدرب (بلعالية) القريب من مقهى الوالد بدرب البلدية ومن درب بوشنتوف، حيث هذا الكتاب مرورا بقسارية الحفارين والسوق المركزي لدرب السلطان، والطريق المؤدي إلى بوشنتوف قبل أن ننتقل إلى درب بوشنتوف قريبا من هذا الكُتَّاب يتخلل ذلك كله خرجات لأول مرة صحبة الوالدة إلى عدة مناسبات حافلة منها:

أولا: الفرجة في سينما الأطلس وعرض شريط لظهور الإسلام مرة بالمغرب أسابيع وأشهرا، وكنت قبل هذه الفترة لا أتجاوز الفرجة على أفلام (الريش) أو (الويسترن) في كل من سينما الشاوية والباهية بكراج علال، ولكن يقظة الوعي الوطني المضاد للحماية الفرنسية جعل الوالدة والوالد يشرئبان إلى أنباء الوطنيين

ومحاولاتهم المطالبة بالاستقلال، وتأسيسهم المدارس الحرة، وإلى السينمات ذات العروض العربية، وكان من أوائلها (سينما المسرح الملكي بدرب إسبانيول) وسينما (الأطلس) بطريق مديونة قريبا من القصر السلطاني بالأحباس، وقد تجرأت هذه السنيما فعرضت أفلاما عربية عن مصر لمشاهير فنانينها آنذاك: عبد الوهاب وفريد الأطرش وأم كلثوم وتحيا كاريوكا وسامية جمال، ثم فاجأت الجميع بفلم تاريخي ضخم اسمه (ظهور الإسلام) لا أزال أذكر افتتاحه بظهور صورة وصوت الدكتور طه حسين، باعتباره صاحب القصة في كتابه (الوعد الحق) فانتشر الفلم في العالم العربي كله ووصل إلى المغرب، وعرض شهورا بسينما الأطلس على خلاف العادة، وعرف ازدحاما لم يمنع الوالدة رحمها الله من اقتحام قاعته بصحبتي وبه بدأت نشأة وعيي الوطني والإسلامي.

ثانيا: ثم تعرفت بعد ذلك على (سينما المامونية) باتجاه المدينة الجديدة الأوروبية الساكنة والعمران، وكانت تتميز بتقديم (سكيتشات ترفيهبية) يقدمها الفنانان: القدميري وبوشعيب البيضاوي فيجلب لها جمهورا كبيرا في إطار المنافسة، ومن هذه الجولات التي لا تنسى خروجي مع الوالدة لزيارة المتاجر المشهورة بساحة المدينة الجديدة الموازية لبرج الساعة القديم والمؤدي إلى الدار البيضاء الأولى الأم، وقد أقامت هذه الأروقة شركة (لافاييت) و(شركة مونبري) الفرنسيتان كأحد فروع المتاجر الفرنسية في الإيالات الفرنسية آنذاك، وقد امتلأت الذاكرة الطفولية بصور المعروضات الفرنسية المضاءة بمختلف الألوان والمعروضة للجمهور البيضاوي والأهالي الفرنسيين واليهود المغاربة القاطنين والسياح! غير بعيدة عن قلب المدينتين القديمة والجديدة واللتان انفتحتا على بعضهما بواسطة إحدى جهات سور المدينة القديمة (آنفا) بباب ضخم قديم، يجمع بين القديم خلفه، والجديد إزاءه.

ولكي تتم للزائر الجولة المسائية لا بد أن يلج من هذا الباب إلى درب كناوة[1] وجامع الشلوح[2] والبحيرة[3]، حيث دروب المدينة القديمة، وقد امتلأت بأنواع من السلع المجلوبة والمحلية ومن ضمنها دكاكين الذهب والثياب ومعارض الأواني والأطعمة والمشروبات والسمك الطري المعد للأكل مباشرة أو الاستبضاع إلى جامع الحمراء الذي كان يدرس به محمد بن علي البيضاوي وغيره من علماء البيضاء، وقد لفت نظري وجود مكتبة كاملة التجهيز عربية العروض على يمين الداخل وكتبها جميعا مسفرة تسفيرا إفرانجيا أراها على هذه الصورة لأول مرة ووسطها شيخ أبيض الوجه واللباس قد سبق وجوده ولا شك، بقية المكتبات الناشئة بدرب السلطان فيما بعد، والمتجهة إلى ساحة المسجد اليوسفي، والمسجد المحمدي فيما بعد، لينشأ بين الساحتين (حي المكتبات) المعروف اليوم.

---

[1] أحد أشهر دروب البيضاء العتيقة والمشهورة بالتجارة.

[2] أحد جامعين قديمين أنشئا معا قريبا من السور وبه كان يدرس الفقيه محمد الزويتن الفاسي.

[3] قرب جامع الشلوح وعرفت أيضا بفضائها الذي يعتبر متنفسا للسكان ومرفقا لتجار المواد الكبيرة الحجم ومعرضا للكتب القديمة.

وزيارة خاصة لأحد أخوالي محمد (ند بهايتي)
في الحي الأوروبي (بعين السبع)
وتصفح الجرائد وكتب الأطفال لأول مرة بالفرنسية

عرفت الدار البيضاء بحق، مدينة الصالحين مروضي ومستأنسي السباع والذئاب والضباع والأسود، وبأسماء رجالاتها كأبي الليوث ونسائها الصالحات الوليات وبأسماء أمكنتها كعين الذئاب، وعين السباع، وكانت أجمة وغابة تحيط بالمدينة القديمة (آنفا) فلما مهدت فرنسا المدينة الجديدة اختارت منطقة مشجرة تسمى إلى اليوم (عين السباع) فأسست بها حديقة الحيوان حديثة التجهيز والتنظيم والزيارات والحيوانات والطيور، وأصبحت تدريجيا مفتوحة على الأهالي المغاربة في أيام العطل الأسبوعية وغيرها، فكانت الوالدة تتشوف إلى زيارة هذه الحديقة! إلى أن أتيحت الفرصة لنا لزيارة بعض أخوالي صاحب معمل لإصلاح وبيع الأجهزة الكهربائية والراديو (أحمد ند بهايتي) بطريق مديونة الساكن بفيلا صاحب المعمل بحي (عين السباع) وقد بنيت على الطريقة الكاليفورنية الطراز والتي اختارها المهندس والجنرال اليوطي للنخب التجارية والاقتصادية والإدارية السكنى وهي ذات فسحات وطراز جامع بين العمران المغربي والفرنسي والأمريكي، لذلك كانت هذه الزيارة لهذين الطرازين: الحديقة والفيلا منقوشة في الذاكرة وما تزال.

وأذكر كيف انصرف نظري كلية عن استيعاب أنماط وأجزاء هذه الفيلا إلى مكان بعيد عن الصالون تماما به صناديق مملوءة بالكتب والمجلات والجرائد! بقيت فيه وقتا ليس باليسير أقلب الصفحات وأتملى بالصور والرسوم المعدة للاطفال

والأشكال الهندسية! ناسيا كل من حولي حتى نبهتني الوالدة إلى ضرورة المغادرة لزيارة حديقة (عين السباع) المليئة بما لم أعهده من أصناف وأشكال الطيور والحيوان والجداول المائية والصهاريج والأشجار والشبابك الحديدية والأقفاص! أشاهد لأول مرة من خلالها أصنافا وأنواعا لا عهد لي بها بسوس وغاباتها خاصة؛ وقد ساعد البارود والمفرقعات والأضواء الكهربائية وتسلط الإنسان على أنواع من الوحيش على انقراضها، وكاد ينقرض آنذاك بسوس، السبع والنمر والأسد الإفريقي المغربي الشامخ المنظر! دون أن ينس البط والإوز والأسماك من أحواض هذه الحديقة التي لا تزال في تمام نضارتها وأوج الاعتناء بحيواناتها إطعاما وغسلا وتنظيفا وتطبيبا ورعاية ثم أهملت بعد الاستقلال وشحت ميزانيتها ومداخليها حتى سمعنا أخيرا بإعادة الاعتبار لها وتجديدها كلية وقد كنت حسن الحظ فيما يساق لي من فرص الاطلاع على كل جديد من الكتب منذ أن أعارتني سيدة حسناء جارة أجزاء من سيرة سيف بن ذي يزن.

وحافلات كهربائية غير ملوثة تقطع الشوارع الرئيسية حمراء اللون طويلة الشكل متمايلية مع تموج الأسلاك والركاب

ومن أحسن المطايا التي تمتعت بها صحبة الوالدة ونحن ننتقل ما بين حي القليعة ودرب بوشنتوف ودرب بلعالية! إلى المدينة الجديدة الأوروبية والمدينة العتيقة تلك الحافلات الكهربائية الهادئة الصامتة البعيدة عن تلويث الجو! وقد اختارتها الإدارة العامة لهذه المدينة العالمية الطابع، بعيدا عن التلوث والدخان والإزعاج! ولا أزال أتذكر شعوري بجدة الركوب في هذه الحافلات، والناس ما بين وقوف وقعود، والقضبان الطويلة الأنيقة تمتد وتتقلص بحسب البعد والقرب من أسلاك الكهرباء الخاصة بالطاقة العالية الضغط وهي تبدو للرائي والمترقب كأنما يتماوج بها البحر ذات اليمين وذات الشمال! وقد أصبح هذا المنظر بعد ذلك في خبر كان؟ بسبب

الإهمال الحاصل بعد الاستقلال سنوات طالت قبل ظهور (الترامواي) الحديث ليحل محلها في هذا الشكل المخفف من التلويث والضوضاء نسبيا وكذا الحافلات الكهربائية المنفردة أخيرا.

وأعجوبة العمارة ذات السبعة طابقا بدرب (بنجدية) و(سبع شوانط) نقطة لالتقاء الطرق السبعة الجديدة

ونحن نغشى أحياء المدينة الجديدة في العطلات ترتمي إلى أنظارنا وقريبا من القصر السلطاني وحي بنجدية الجديد الطراز والسوق والمقاهي والمرافق والحدائق؛ معالم بداية الشروع في أطول عمارة بالمغرب سميت (دي سات ايتاج) وهي ترتفع أمام أبصار البيضاويين والبيضاويات في تصميم هندسي أرادت به الإدارة الفرنسية مضاهاة العواصم التجارية الكبرى في فن العمران، وإظهار القدرة على الإبداع والتحدي للبنية الهشة للأرض البيضاوية، رغم الحرب العالمية الثانية التي كلفت فرنسا غاليا! وابتدأ هذا المشروع سريعا سنة 1949/ وهي سنة حلولي والوالدة بالدار البيضاء، وبعد نهاية الحرب وفي شكلها المتفرد البعيد عن الالتصاق بالعمران، حتى تمت في وقت قياسي وسميت (بعمارة الحرية) من قبل المهندس (ليونارد موراندي) سنة 1950/ ولتكون بذلك أيضا الأولى من نوعها في إفريقيا، وقيل بأن ممن أسهم فيها التاجر السوسي الأول بالدار البيضاء الحاج عابد السوسي آنف الذكر! (إفادة من الحاج عمر اليوسفي صديق المساهم المذكور).



العمارة العجيبة المسماة (دي سات ايطاج) بدرب بنجدية

وزيارة أكبر ميناء في إفريقيا
تحدي به اليوطي ميناء المحمدية (فضالة)
في سباق ماراطوني

وكان من حسن حظ هذا التلميذ المتقلب الاستقرار بين سوس والشاوية وعاصمتها الكبرى الدار البيضاء وسطات؛ أن تتاح له زيارة أول ميناء بحري للسفن والقوارب والصيد والرافعات والقطارات بالدار البيضاء، يوم الأحد والمسموح فيه للجمهور آنذاك بالولوج إلى هذا الميناء الضخم الفريد في القارة الإفريقية والمغرب الجديد، والذي عوض إلى جانبه ميناء قديما من توسعة السلطان الطموح سيدي محمد بن عبد الله وذلك لاستقبال وشحن السفن الواقفة بعيدا وسط البحر بواسطة القوارب الصغيرة التي تفرغ أو تشحن المنتوجات في بوابة متوسطة الحجم لا تزال مائلة للعيان! وسميت (بمريسة) الدار البيضاء دفعا لأنظار الايبيريين الذين كانت تمثل لهم مصدر خطر وقرصنة فتعرضت للتخريب والغزو مرات عديدة. فإذا بالجنرال المعمر العبقري اليوطي! يقترح على الإدارة الفرنسية تحديا كبيرا في تحويل هذا الميناء الصغير إلى أكبر ميناء في إفريقيا كلها! في تنافس مع المسؤولين الفرنسين حول ثلاثة مواني: منها ميناء فضالة وميناء القنيطرة.

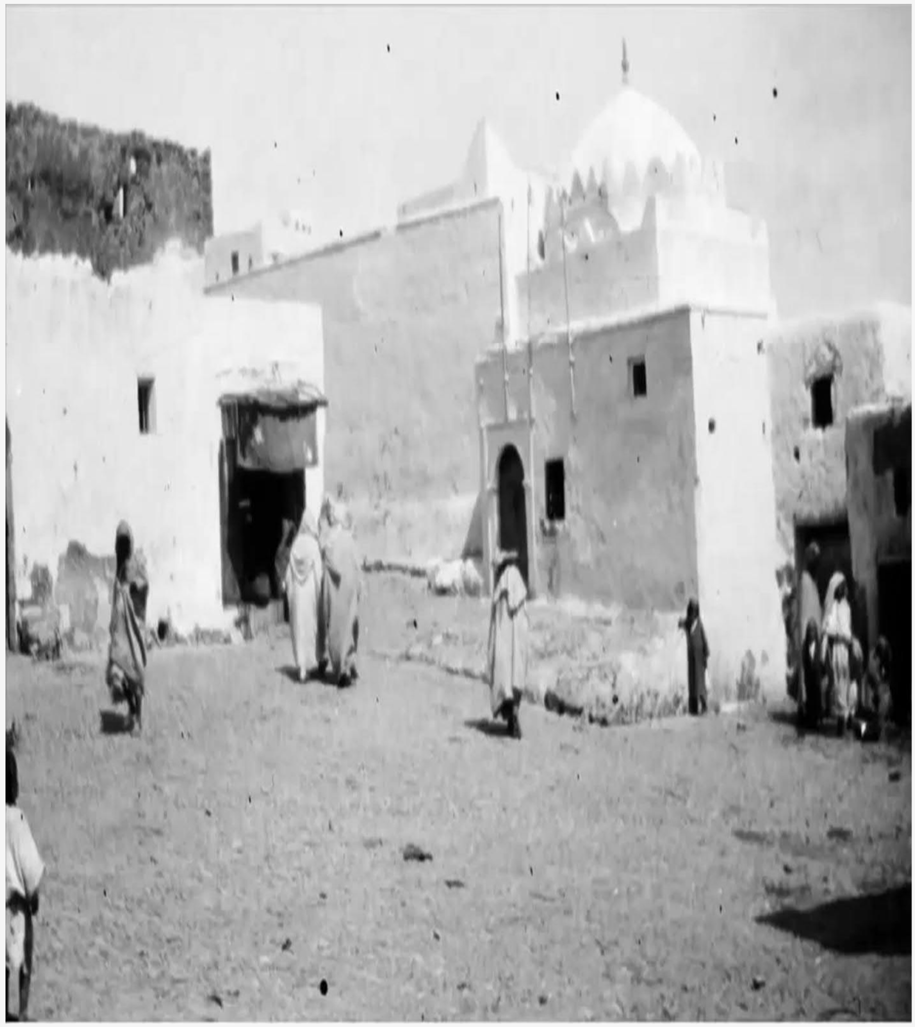
وقد استطاع اليوطي بفضل إرادته الحديدية وبعد نظره ورؤيته الاقتصادية والعسكرية أن يتحدى الأحداث وأن ينجز المحاولات الأولى التي اصطدمت بالمقاومة الشرسة للبيضاويين بمكان المدينة خاصة وأهل الشاوية عامة في ثورة لم تسكتها إلا أصوات القنابل والمدافع، سميت بثورة الشاوية (سنة 1907 وما بعدها) وكان من أسبابها عدم احترام بعض مقدسات الولي الصالح سيدي (بليوط) في محاولة لتمرير

خط السكة الحديدي أيضا، وهكذا عهد إلى المهندس (غاستون ديلور) وإلى شركة (شنايدر) وشركه (كومباني ماروكان) بالمشروع الذي ابتدأ سنة **1913/** وعقب الحماية مباشرة بسنة في هذا الميناء العملاق، والذي سيواجه صعوبات في الإنجاز، وعراقيل في تحدي الأمواج الضخمة التي جرفت كل ما ألقي فيها من حجارة ضخمة، وصخور سوداء قاسية من مقالع قريبة من المدينة ومن الحجر الجرانيت، وكان من فضل هذه المقابر أن كشفت لنا حفرياتها عن أقدم إنسان في افريقيا فيما قبل التاريخ إلى جانب إنسان الرباط في حضارة (السلكان) وإنسان (ايغود) في جبل إيغود قرب الشماعية وإنسان حضارات أخرى في الشمال، ولما أعجزت الحيل صاحب المشروع أمر ليوطي بصنع آلة ضخمة في شكل صندوق كبير القالب للأسمنت المسوى والثقيل الحجم لتصفيفه وتنضيده قبل أن يهدأ الموج وهو يسابق الزمن ويسابق معه الحاكم الفرنسي الذي شرع في ميناء المحمدية (فضالة).

لذلك وجدت نفسي أمام هذه المعلمة العمرانية، والنشأة الهرقلية الأذرع والرافعات والأرصفة والسفن والحبال والكلاليب الحديدية الضحمة الراسيات، وإلى جانبها عالم من مراكب الصيد القديمة والحديثة وصناديق وحاويات وسلع مركومة وقطارات مستعدة للشحن والتفريغ لأول مرة! ولا تزال روائح الزيوت والأسماك المختلفة والوقود المشغل في المحركات! في أنفي إلى اليوم من أثر هذا المشهد الغريب والمتحدي للموج والسفن والمراكب وبمختلف الآلات والمركبات والعمال! وأعظمها خطرا حركة الرافعات التي تتحرك في جميع الاتجاهات، وتكاد تلمس الرءوس التي تذهب وتجيء تحتها في أمان واطمئنان إلى قوة قائد هذه الرافعات، وقدرته على التحكم في كلاليبها الضخمة.!!! وهي تنتقل جيئة وذهابا بين السفن وبين الرصيف الطويل.

وزيارة خاطفة إلى أزمور ومولاي بوشعيب

وإن خيبت الآمال !



ضريح مولاي بوشعيب الرداد السارية يتوسط مدينة أزمور

كانت أمنية الوالدة ولا تزال زيارة أحد أعمامها سيدي إبراهيم السعيدي من (بني إفقيرن) بالبير الجديد، وهو الذي هاجر إليها باكرا بعد أن وقعت أحداث ب (إمْجَّاضْ نتزَلْمِي) وفتور في العلاقات بين أصهار الجد سيدي عبد الله الصعب المراس والذي اختار العوينة مثواه الأخير كما تقدم الإلمام إليه، وهكذا استقر عم الوالدة زمنا[1] ب (البير الجديد) قريبا من الدار البيضاء من جهة، ومن (أزمور[2]) من جهة أخرى، فقررت الوالدة استصحابي للبحث والتقصي عن بلدة سكناه عازمة على صلة الرحم من جهة وعلى إعادة العلاقات القديمة من جهة أخرى، وهكذا سافرت بي على حافلة متجهة إلى أزمور من فئة حافلات الأسواق التي تستعمل المقاعد الداخلية للركاب وتضيف إليها الإركاب أيضا على ظهر الحافلة في العراء والفضاء الطلق استغلالا للفرص والمناسبات، وشحنا للركاب كيف ما اتفق! وهم مشتاقون إلى مجرد ركوبها.

وهكذا أقلعت بنا هذه الحافلة من محطة (ﮔاراج علال) متجهة إلى طريق الجديدة عبر آزمور، ولما كانت الوالدة لا تدري بالضبط مكان العم سيدي إبراهيم، فقد قدرت البداية بمدينة آزمور القديمة! الحمراء الأسوار على الضفة اليسرى لوادي أم الربيع، حيث رأينا لأول مرة مجموعة من المنازل ذات الطوابق والنوافد ملتصقة بمدخل الوادي مباشرة، وهي مستقرة على قاعدة صلبة من الحجر الجيري منذ القديم، لا يصل إلى أعاليها الوادي بسبب هذا الانحدار الضارب في التربة أسفل الصخور! وكما ولجنا إلى أزمور وجدناها مدينة محصنة مسورة ذات بقايا أبواب وقلاع وأبراج للحماية على ثغر آزمور القديم الذي كان يتعرض للهجمات الايبيرية زمانا.

---

(1) أكثر من عشرين سنة فما فوق.

(2) مدينة عريقة أمازيغية الأصول متفردة بمرساها الاستراتجي الواقع على نهر أم الربيع وقبل نشوء ميناء الجديدة.

وسرعان ما ولجنا إلى حمى المدينة وصالحها المشهور في المغرب والمشرق (أبي شعيب الملقب بالسارية) صاحب المناقب والمواهب والمجاهدات والمستقر بثغر آزمور لمواجهة العدو البحري البرتغالي والإسباني من جهة وللدفاع عن المذهب المالكي والسنة ضدا على بدع الخوارج (البورغواطيين) الأقدمين بهذه المناطق من (تامسنا) القديمة! وكان أبو شعيب السارية أول الأمر في عصر الموحدين، قد اختار الاستقرار بعيداً عن العاصمة مراكش المضطربة بالمواجهات بين بقية المرابطين وأتباع الموحدين الجدد في اصطدام مذهبي وعقدي تخللته تصفيات ومحاكمات وتكفير وامتحانات للمشاهر من (العلماء والصوفية والزهاد) وكان أبو شعيب في بدايته معلما للصبيان واقفا متكئا على عصاه، لا يقعد حتى ينصرفوا! ثم زهد وتصدق بماله، وتوخى الحلال في الأكل والشراب، وكان أسمر اللون! مما جعل أحد الولاة لا يقبل شفاعته في جماعة من قومه حتى أصيب الوالي بوجع شديد قيل له فيه إنه بسبب ذلك! وكان مستجاب الدعوة في هذه النوازل، وقد تربى على يديه الكبار، أمثال (أبي يعزى إِلَى النور) وخدم هذا زوجة الشيخ في صورة أَمَة سوداء، وعند ما كشفت أمره أمرته بالانصراف، فبعثه أبو شعيب إلى قريته بالأطلس المتوسط (تاغيا) فكان من أموره كرامات ووقائع ثابتة الأسانيد، وكان غريب التصرفات والإنجازات وقضاء الحاجات.

ثم اشتهرت كرامات الشيخ أبي شعيب بعد وفاته، وإجابة الدعاء عند زيارته، وكان تعبده وجهاده ورباطه بآزمور قد اشتهر فأصبح النسوة خاصة والشبان الراغبون في الزواج يلجأن إليه في أمور من انقطاع الحمل، وطلب الولد والزواج والإنجاب، وظهرت إلى جانبه في الضفة اليمنى للوادي قصة (للا عائشة البحرية) التي قال كتاب المناقب عنها: إنها من أصل عراقي، وكانت قد تعرفت على الشيخ أبي شعيب هناك في رحلته! ثم تعلقت به تعلقا شديدا فلم يسعفها الأمر لاستصحابه إلى المغرب، وأخيرا اضطرت إلى السفر إليه، حتى إذا ما كادت تطل على الوادي، سمعت نبأ وفاته فبقيت

حيث هي تزورها النساء عامة والفتيات خاصة، حاملة بعض الآمال في فك عزلة العزوبة عنهن وفق طقس الاغتسال عند جدثها بالماء عددا من المرات (راجع دراسة الأستاذة ناجية الزهراوي في بحثها: معجم شهيرات المغرب)[1].

وهكذا انتهت مغامرة الوالدة في البحث عن عمها (سيدي إبراهيم أُومُلُودْ) وأسرته المهاجرة إلى ناحية آزمور! بالرجوع إلى الدار البيضاء مؤقتا لتحاول من جديد المزيد من استقصاء خبر العم، والقيام بصحبتي، وبإذن من الوالد لإعادة المحاولة، وكان من حسن حظنا الاهتداء هذه المرة إلى ناحية. (شْتُوكَة)[2] منطقة البير الجديد الفلاحية، والعثور على العم وأسرته وفي مقدمتها الفتى الأكبر سيدي محمد بن إبراهيم أُوملود والذي ملأ وقتي بالخروج إلى الحقول وقت الربيع، والوصول إلى شاطئ المحيط الأطلنطي عبر ركوب فرس السيد صاحب الأرض لأول مرة، وكان آنذاك من المعمرين الفرنسيين الملاك المشتغلين بالفلاحة، وبعد ذلك رجعنا إلى البيضاء وقد ارتاحت الوالدة، بهذا الاكتشاف واعتبرته يُمنا على الجميع، وصلة رحم انقطعت طيلة سنوات مراهقتها وزواجها، رحم الله الجميع وسبق أن وصفت في أبيات زيارة العم بعد رجوعه إلى بلدته من بني فقير وكيف جددت الوالدة الزيارة له لصلة الرحم واطلاعي على أصولي من جهة الوالد وبحث عن بقية أملاك الأسرة السعيدية هناك دون جدوى بسبب جفاف وفقر وخشونة البلد مما زهدها فيما بعد عن المحاولة.

---

[1] طبع بالمطبعة والوراقة الوطنية بمراكش من إخراج المجلس العلمي المحلي لمراكش. والآن تحت الطبع للمرة الثانية.

[2] شتوكة الدير هنا غير قبيلة شتوكة المتعددة المواقع، وأعظم عناصرها بسهل ماسة بسوس، وتعرب بهشتوكة.



ضريح لالة عايشة البحرية المتعلقة بمولاي بوشعيب قبل أن تجتاز الضفة اليمنى للوادي فتوفيت ودفنت هناك فيما تذكر الميثولوجيا المغربية

١٣

أحداث الدار البيضاء خريف 1952 إثر اغتيال الزعيم فرحات حشاد ورجوع الأسرة إلى العوينة خوفا من تطور الموقف الاصطدامي إلى ما لا تحمد عقباه!

وبينما نحن والوالد في أواخر عام 1952/ وشهر دجنبر منه في الدار البيضاء وأنا أتابع من بعيد وألقي السمع إلى الجمهور المحيط بالوالد بمقهى درب السلطان والساحة الكبرى وإلى القراء لجريدة العلم المغربية المسموح لها بالصدور آنذاك، وباللغة العربية، وهم يتهامسون خوفا من جواسيس الحماية الرابضين يوميا أمام مقهى الوالد وفي ثنايا هذه الساحة، إذا بالدار البيضاء في رابعة النهار تموج بالأناسي المسرعين إلى البيوت وأغلقت الدكاكين والمرافق العامة خوفا من تطور وقائع يوم الجمعة، وقد أعقبها إضراب النقابات يوم السبت احتجاجا على اغتيال الزعيم التونسي فرحات حشاد وتضامنا مع العمال التونسيين المتمردين بدورهم أعقبها نداء إلى كل العمال وشرائح الشعب المغربي لتعزيز هذا الموقف بإضراب ثالث ومظاهرة يوم الإثنين، وقد مر إضراب ما قبل يوم الإثنين بهدوء إلا أن حاكم المدينة (فليپ بونيفاص) قرر التحدي، ومواجهة الاحتجاجات والإغلاق والإضراب! غير أن الحي الصفيحي ذا الأربعين ألف ساكن، والقريب من الأحياء الصناعية للصخور السوداء والمسمى (كاريان سانطرال) وهو حي سكني للعمال وخاصة عمال معمل السكر شنوف وقد استفزته نداءات أعوان الباشا وترويعهم! فاحتشد جمع تعاظم في الساحة وأعقب ذلك إطلاق رجال الشرطة النار اتبعته بعد ذلك أوامر للاحتياطي (الگوم)[1] في وحدة مشاة كلفوا بالإعتقالات والتفتيش والمطاردات!؟

---

[1] راجع كتاب البير عياش: الحركة النقابية بالمغرب الجزء الثالث نحو الاستقلال، 1949 ـ 1956 الصفحات 7 / 17 / 156 تعريب جريدة (المناضل المغربي) وفرقة الگوم المغربية أخطر وأشرس عسكر عرفته الحرب العالمية، حرروا فرنسا وبعض جهاتها. ومعنى الگوم القوم والقبائل المغربية وقد دربته فرنسا.
وأخرج محمد الخامس ظهيرا بالخدمة العسكرية للدفاع ضد النازية فتحرك في كورسيكا ضد الجيش النازي.

وتطورات الأحداث بعد ذلك خلال ثلاثة أسابيع في شكل قتلى من الطرفين ومعتقلين ونقابيين من القادة وجنازات وحشود وحملات صحفية باللغة الفرنسية، فكيفت الأحداث وفق سياسة الحماية لإطفاء الانتفاضة وأعقب هذا كله أحداث ومقاومات كان من ضحاياها أحد الأطباء المتعاونين مع الحماية في الطابق العلوي للعمارة التي يحتل مقهى الوالد طابقها السفلي! فشعر الوالد بالخطر المحدق بهذه الساحة المناضلة الشعبية الأصول والوطنية الميول، فقرر الهجرة بنا إلى سوس، بعيدا عن الخطر المحدق به شخصيا. ومن ارتساماتي عن هذه الفترة جاءت هذه الأبيات بعد مرور نحو نصف قرن :

ذكريات طفل عند عين السباع والذئاب

هي المــرآة تعكــس بعــض مــا بي ... حفـــيلا بالطهـــارة والجديـــد
وَعَــتْ عيــني شواخصــها قــديما ... إذا أنـــا في الـــبراءة كالوليـــد
عرفــت العــالم المجهــول منهــا ... وأجناســا ومــن وطــن بعيــد
وسُــقت مــعي رغائــب راتعــات ... على إيقـــاع خطـــو كالنشـــيد
دنى مـــن كل شيء قـــد برتـــه ... يـــد الفنـــان في صـــنع فريـــد
تلقتهـــا عيـــون شاخصـــات ... إلى الدنيـــا بشـــهوة مســـتزيد
وهـــا أنـــاذا أعـــود اليـــوم عـــودا ... إلى عهد الطفولـة مـن جديـد
أعــود وفي الخطــى وهــن شــديد ... وضــعف في المناســم والوريــد
أفــتش في وجــوه النــاس شــيئا ... مضى ذكرى من الـزمن المديـد
وهـــا هي ذي المدينـــة في كســـاء ... تجـــدد بعـــد مـــا زمـــن شـــديد

فهـل أجـدنْ بهـا عهـدا قـديما   تــوارى في الزوايــا كالشـــريد
مغـــانٍ طالمــا أطلقـــت فيهـــا   أهازيجـا مـع الطـير الغريـد
وعانقــت الحضـــارة وهي بكــر   قـد انتظمـت على نسـق فريـد
وعشـــت الطهــر في أزكى شـــعور   فأضـــحى بعـــدها أغلى رصـــيد
فهـــا أنـــاذا أعــود وهــل يُـــرَجَّى   سوى الرئبـال ذي البصـــر الحديـد
أعـــود محمـــلا بجـــراح عهـــد   ثقيـــــل بــــالكلاكل والقيـــــود
وقد نَكِرَتْ عيـون النـاس مـني   ملامـح بعـدما عـيش رغيـد
أعود إليـك أمسـح مـن جـراحي   على وهـــج وذكـــرى مســـتعيد
لعــل مســـيس ضر قـــد عـــراني   يخــف بمــرتمى حضــن وجيـد
فأنـــت الأم قـــدما أرضـــعتني   أفاويقــا مـــن اللـــبن الســـعيد
دُعِيـــتُ اليـــك مـــن خـــل وفي   أخي كـــرم وبشـــــر مســـتزيد
وفي جنـــبي أهـــل الفضــــل كل   له مــاض مــن المجـد التليـد
يتـــوجهم عميـــد الـــكل قِـــدْما   وأســـتاذ التـــذوق والقصـــيد
وكوكبــة مــن أهـل الفكـر فـيهم   كفايـــة مســـتمد مســـتفيد
نبــارك عـــرس نجـل قـد تنـامى   فـــزف الى عـــروس بالنشـــيد
بـــه الحمـــراء والبيضـــا جميعـــا   تجاوبتـــا بتغريـــد مديـــد
فبــارك رب هــذا العــرس فينــا   وأشـــفع بالوليـــدة والوليـــد
وجــاز الكاظـــمي جـــزاء خـــير   على حســـن الضـــيافة بالمزيـد

البيضاء صيف 1999

وخمس سنوات خصبة فيما بعد
ما بين كُتّابِ العوينة ومدرسة سيدي محمد
الشيشاوي بقبيلة هشتوكة سوس،
وأحداث الفداء والمقاومة والاستقلال.

رجعنا جميعا صحبة الوالد إلى قرية العوينة وإلى الدار التي كان الوالد قد قرر وهو في باريس، وقبل الحرب العالمية بقليل أن يجدد بناءها تاركا إياها لكل من جدتي زينة نْدْ عمار رحمها الله ووالدتي حامل! فلما طال الغياب وانقطعت أخبار الوالد أثناء الحرب، وتوفيت جدتي زين ند عمر[1]، وانتقلت الوالدة إلى زوجة (خالي محمد ند عابد) لم تستطع جدتي من الأم، وخالتي رقية سعيد، أن تقوما بالمحافظة على الدار الواسعة الأرجاء، فانتقلتا إلى دارهما الأصلية قريبا، فاضطر (بابا سعيد نْدْ سِّي) صديق الوالد وممثل المغاربة من أهل القرية المهاجرين إلى فرنسا وبلجيكا آنذاك في تيزنيت، إلى أن يعهد بها إلى أحد صناع المحارث وما إليها ليقوم بتعميرها، وكنت في الصغر أذهب إليه وأنا واع بأنها دار الوالد أراقب صنيعه بانبهار كبير! وهو يقوم بنحت المحارث وخياطة الأحذية وما إليها، مراقبا حركة الأشفى والإبرة، وصنع السيور من الجلد وتوضيب جوانب المحراث وخياطة الدلاء والقرب الجلدية والأحذية وما إليها. متمنيا لو تتاح لي فرصة لتجربة هذه الأمور ودون أن أجرؤ على طلب ذلك من هذا الرجل الصلب القوي العضلات، الأسمر اللون الهادئ الطبع.

وكان عمي سليمان هذا يستلطفني لوادعتي، ويستأنس بحضوري مظهرا ألوانا من الترحيب والعرفان بجميل الوالد عند ما عهد إليه بالنيابة لتعمير هذه الدار الحديثة البناء والسقوف والمشتملة على غرفتين واسعتين علويتين للضيوف والنوم: احداهما أقدم من الأخرى، وكانت تامة البناء والسقوف بخلاف الأخرى، وكنت قد حضرت مع الوالدة، ونحن في الدار البيضاء أثناء عطلة صيف لإتمام سقوف إحداهما وهذه المرة ب (الكَايزا[2])

---

[1] توفيت جدتي من الوالد زين بنت بوجمعة ند عمر، كما في كناشة الفقيه العدل صهري سيدي عبلا الأدوزي الإثنين 24 شوال عام 1364 راجع ص 43 من الكناشة المخطوطة.

[2] أصلها في العربية فيما يظهر (الجائزة) وهي تجيز بين الجدار والجدار، متحملة بعد ذلك الأخشاب القصيرة الممتدة فوقها ضمانة من السقوط.

من الخشب المصنع المسوى، وخلاف العادة المتبعة القديمة بالاكتفاء بالقصب وأعمدة الأشجار، وخاصة شجرة (أرْگانْ) وشجرة (الزيتون) القويتين المتحملين لثقل الطابق العلوي من ذوي وذوات الأوزان الثقيلة.

ويظهر أن سوء تفاهم حصل بين الجدة والخالة والوالدة في التدخل والإسراع بالإنجاز، قد سبب في خطإ متعمد من قبل البناء والنجار (المعلم أحمد ألزا الإبرايمي) فسبب ذلك في إنحناء السقف وظهور عيب في عدم تحمل الرافعتين الأساسيتين للسقف لثقل التراب، وسمك السقف العلوي، وسرعان ما استغلت الوالدة هذا الخلاف عند هجرتنا من الدار البيضاء لتدفع بالجدة والخالة، وكانتا ترعيان الدار وتسكنان بها في هذه المدة، إلى الانتقال إلى دارهما القديمة ب (درب أحراراي) بآيت بنوح.

وقد ترك هذا الخلاف في نفسي أثرا لم ينس! بسبب تعلقي الشديد بكل من الجدة والخالة، وعدم قدرتي على إعادة المياه إلى مجاريها، وأنا أسمع من الأطراف التعليقات والأسباب التي جعلت الكل في حالة سوء تفاهم استسلم له الوالد المقتنع بوجهة نظر الوالدة طبعا! وكان مما يزيد من أشجاني إثارة الوالد للحديث في هذا الموضوع أثناء الأكل، مما يتسبب في التنغيص علي عند انفتاح شهية الأكل إلى طعام الوالدة اللذيذ النقي الشهي، ودون أن أستطيع إبداء الرأيي حياء وخجلا أو خوفا من ردود الفعل أو اتهاما لي بالميل إلى وجهة نظر الجدة، وإذ لم أقتنع بتلك الأسباب بعد، فقد كنت ألتزم الصمت ولا أعلق لأشعر الوالدين ببغضي ذلك، وهو ما جعلني فيما بعد أكره كراهة تحريم إثارة المشكلات أو الاقتراحات أو البرامج أو إثارة الأسئلة حول أمور تحتاج إلى اطلاع أو تأن عند الأكل! حتى قلت في ذلك مثل هذا الرجز:

ويكره السؤال عند الأكل عند الجميع قاله ذو عقل

وكنت أبادر الضيوف أشعارا بذلك بمثل قول القائل:

(إذا حطت الأرزاق انطوت الأوراق)

(وإذا وضعت الْموائد رفعت الفوائد)

وأطلب من الجميع على سبيل النكتة أن يخاطبوا الصحون التي تفنن المضيف في إعدادها وبأن يعلقوا على ما حولها من النعم شكرا له ولصاحب النعم بدلا من الانصراف إلى ما يشبه المماحكات أو المشاكسات أو (الفهامات) إو إثارة (الخلافات) أو نحو ذلك كالفتوى في المسائل العلمية أو الدينية التي تحتاج إلى مراجعة وتبصر وتأن ووقت خاص.

الختمة الأولى للقرآن الكريم
بعد رجوعنا مباشرة من الدار البيضاء

ويظهر أن ترددي إلى العوينة ولدى (كُتَّاب الجامع) بها في أشهر الصيف ومحاولة التقدم في حفظ القرآن الكريم بالدار البيضاء لدى أحد مكتبي درب بوشنتوف آنف الذكر جزاهما الله عني خيراً قد أثْمر السرعة في حفظ ما تبقى من أحزاب القرآن الكريم صعودا إلى البقرة. وهكذا وجدت في كناشة صهري العدل سيدي عبلا الأدوزي وقد أصر على تسجيل هذه الختمة المتميزة واللافتة للنظر على خلاف عادته في تسجيل أهم الأحداث، ولم يكن من بينها ختمات القرآن الكريم إلا ما كان من ختمة أبنائه خاصة، فذكر أحد أبنائه عبد الرحمان زميلي في الدراسة بسوس ومراكش، رحمه الله[1] نقلا عن كناشة والده أن والده أفردني عن أقراني آنذاك، فسجل ما يلي: (يوم الثلاثاء 22 شوال 1371 الموافق 15 يوليوز 1952). ختم محمد بن عبد الله بن مبارك البعقيلي السلكة الأولى عند سيدي علي أبت بالعوينة ختم الله لنا ولهما بالإيمان والإسلام والإحسان، ورزق لنا ولهما ولجميع المسلمين الحسنى وزيادة آمين.[2]

وقد كانت هذه الحفلة والختمة الأولى المميزة في حياتي وما أحاط بها من مظاهر الفرح الطلابي والعلمي وحضور وجوه القوم لدى الوالد، مهنئين وطاعمين وفي مقدمتهم كل من الحاج موسى بنطيفور شيخ القرية، وصهري سيدي عبلا الأدوزي فيما بعد وشيخي في الإقراء سيدي علي أبت الهماني؛ في مناسبات من الفرح تليق

---

[1] توفي رحمه الله عام 2014

[2] كناشة الفقيه العدل ص 1 من تلخيص ابنه ناقل الكناشة المخطوطة، عبد الرحمان رحمه الله.

بهذا الحدث الفريد في تسجيله من قبل الصهر بعد ذلك سنة 1953 ودفعني ذلك إلى قفزة نوعية في حفظ القرآن الكريم ورسمه وضبطه بتشجيع الفقيه سيدي (علي أبت) وزملاء الكُتاب وفي مقدمتهم رفيق المسيرة إلى اليوم سيدي (عبد الله أُعلي أبت) ومعه حفظ بعض المنظومات والأمهات العلمية أسفل اللوح وقد يصل بها سيدي علي أبت أحيانا إلى ألفية بن مالك.

وكان من توفيق الله لي في هذه السنة 1953 وأيام المغرب حبلى بالأحداث التي أعقبت أحداث الدار البيضاء، وخاصة حدث 20 غشت من هذه السنة، حيث قررت فرنسا نفي رمز الوطنية والمطالبة بالاستقلال محمد الخامس! إلى جزيرة كورسيكا ومدغشقر؛ أن عكفت على طي مراحل (ثلاث سلك) من القرآن الكريم حفظا ورسما وتحزيبا ووقفا وتحريرا بتشجيع الجميع، وحياطة الوالد والوالدة اللذين استقرا بالعوينة، واشتغل الوالد بالفلاحة وزراعة الحقول بالخضر وتسويق المنتوج إلى تيزنيت، وقامت الوالدة بمواكبته داخل الدار وخارجها في فصول الحرث والتنقية والقطف والحصاد والدراس وتزويدا للرجال الحاصدين بالأكل والشراب، وكنت أواكب كل ذلك حريصا على أن تتاح لي ولأول مرة وأنا فتى في طور بداية المراهقة، فرصة الحرث والتحطيب والحصاد والدراس وما إليها من ركوب الدواب والسقي عليها، وصعود المنحدرات بها، والذهاب بالحمار إلى الحقول والساقية وتيزنيت، تسويقا للخضر وبيعا لها وجلبا لبعض حاجيات الوالد والوالدة! مما لم أمارسه من قبل.

وكان يحدوني إلى هذه المنجزات تشجيع الوالدين والجدة والخالة والأقرباء من جهة، والعمات والخالات والأعمام والأخوال من جمعة أخرى واندماجي كلية في أوساط تلامذة كُتَّابِ المسجد الجامع في أمورهم الرسمية والحرة ومشاركتهم في إعداد الطعام والتحطيب وإيقاد نيران الليالي قصد استكمال حفظ الألواح ومشاركتهم

ألوانا من الألعاب والمحاولات ذات الطابع العنيف أحيانا، وخاصة الكُرَة المصنوعة من بقايا ثياب الصوف والكتان، وما يتخللها من عنف مقصود أتجنبه ما أمكن! بالإضافة إلى موسم المولد النبوي والعيدين والعواشر من شهر الربيع وقيام الليل في رمضان وتأطير حفلات المناسبات الأهلية تحزيبا للقرآن والأنصاص والمنظومات التي يحرص الشيخ (سيدي عَلِي) عَلَى كتابتها لي خلال تصحيح اللوح الصباحي، مع التبكير إلى المسجد ليلا وحفظ اللوح ومحوه وكتابته قبل شروق الشمس وحضور صلاة الفجر والصبح وحزب الصباح وما يعقبه من قراءة جماعية لمنظومة البردة والهمزية وخاصة عند اقتراب المولد، والاستماع إلى سرد البخاري من قِبل شيخي بين الظهرين في رمضان وحضور الشيخ الحاج موسى ليلة القدر.

ويتوج ذلك موسم الشيخ الأدوزي المؤسس لرحبة الأدوزيين، بعيدا عن القرية. ويفصل الوادي بين الجميع وضريحه، ذو قبة بيضاء، في حمى واسع مجصص ذي لون أبيض؛ وخلال الصيف، حيث تطلق إرادات الطلاب بعد أن يأذن للجميع حفيد الشيخ سيدي عبلا أمحماد الأدوزي، وبحضور أخويه سيدي إبراهيم، وسيدي أحماد، وبقية الأدوزيين العوينيين وغيرهم، وبعد ذبح الثور المعد من قِبل أهل العوينة يسوقه شرفاء تزروالت: مولاي أحمد ومولاي العربي ومعهم الوفد الرافع عقيرته بالدعاء وطلب الاستجابة قبل صلاة العصر بقليل، ولا تسأل عن ليالي الدراس والمبيت بالبيدر حراسة للمحصول، ومحاولة حمل أثقال التبن، وأكياس الشعير والقمح على ظهر الدواب، ومع خطورة عدم التوازن فوق متن الحمار، وما يتبع ذلك من أفراح جني المحاصيل الزراعية، وقطف ثمار التين الشوكي، وما يحيط بها من أشواك دقيقة ملتصقة بالأيدي والأذرع، لايتخلص منها إلا بمنقاش حديدي خاص. وقد يتخلل ذلك زيارات لمدينة تيزنيت، يستضيفنا فيها سيدي إبراهيم الأدوزي العدل قريبا من

(وادي تيزنيت) الفاصل بين تيزنيت القديمة ومشور السلطان وذلك بداره الواسعة الأرجاء الخالية من الساكنة، والوالد والوالدة يعدان الغداء وسيدي إبراهيم يهش ويبش لهذه الزيارة، واضعا الدار كلها رهن إشارة العائلة، في انشراح وسرور كبيرين، وأرى لأول مرة جريدة السعادة التي كانت ترسل إلى المسؤولين شهريا لصاحبها محمد شماعو رحمه الله. وقد نظمت هذه الماجريات في ديوان بعنوان (أحفاد شاكر بين المحراب والكتاب) آنفة الذكر. وقد ساعدتني هذه المهارات فيما بعد على القيام ببعض أمور الطبخ وتنظيف الخضر وغسل ثيابي وخياطتها أثناء طلب العلم بهشتوكة سوس قبل الاستقلال، وبمراكش طالبا بجامعة ابن يوسف بعد الاستقلال ودون عناء يذكر إلى اليوم، ولا أزال أكره اقتصار الطالب والتلميذ على مهارات التعلم دون أن يعرف من الحرفة والأشغال اليدوية ما يساعده على الجمع بين المهارات الفكرية واليدوية وأترحم على بعض الزعماء الذين كانوا يدفعون أساتذة الجامعات إلى النزول إلى الحقول لمشاركة الفلاحين أمورهم جمعا بين النظريات والممارسات العملية في آن، كما أنعي على معلمي الأطفال في المدارس المغربية غياب حصص تعليم الخطوط من مقرراتهم الأسبوعية إلى اليوم.

بداية تطور الأحداث بعد نفي محمد الخامس رحمه الله أواخر عام 1953 وما بعدها وأثر ذلك في جو القرية المشحون بالترقب والانتظار وشخصيات من القرية

كان من أثر أحداث المنفى يوم 20 غشت 1953 وتصعيد المناضلين (الوطنيين) لمطالبهم وما وقع من سجن طائفة من الزعماء السياسيين في هذه الفترة ونفي بعضهم، أن تطورت الأحداث بطريقة سريعة نحو النضال بأساليب أخرى، منها أسلوب الاغتيالات المنقول مباشرة من المقاومة الفرنسية للاحتلال الألماني خلال الحرب الأخيرة، وكنا في قرية (العوينة) خلال هذه السنة مع بقية الساكنة، بعيدين شيئا ما عن الأحداث التي لا تكاد تصل إلا بواسطة القنوات الفرنسية ولسان بعض جرائدها، ومجلات سارت في ركبها للغة العربية كمجلة (السعادة) التي كانت تصل إلى المسؤولين عن الشأن العام في أقصى سوس بواسطة البريد، فكنت أجد بعض أعدادها مطروحة بدار الفقيه العدل سيدي إبراهيم الأدوزي بتيزنيت آنف الذكر.

وكان من شجاعة الوالد رحمه الله، أن أحضر لأول مرة من الدار البيضاء إلى القرية جهاز (الراديو) للوالدة، كان يشغل آنذاك بالبطارية ذات الحجم الثقيل مما لا يوجد مثله في القرية إلا عند القليل من أمثال معلم الفرنسية مسيو ميلودي البجعدي وقلة من سكان العوينة المتصلين بتيزنيت ! والجميع مراقب من قبل الشيخ الحاج موسى مع غض الطرف عن القلة الوافدين من مدن بعيدة عرفت باستعمال هذا الجهاز كالوالد رحمه الله. وكان الشغل الشاغل مع ذلك للسكان ما لفت نظرهم في خطبة الجمع والأعياد من تحول الدعاء للسلطان محمد الخامس إلى السلطان الذي نصبته الحماية (محمد بن عرفة)! فكان شيخي (سيدي علي أُبَت) مضطرا إلى الدعاء

لهذا الأخير وهو الخطيب الوحيد بالقرية في الجمعات والأعياد، والشيخ الحاج موسى يحضر هذه المناسبات ويراقب موضوعات الخطب خوفا من تسرب روح المقاومة إلى أهل القرية بعد أن انفلتت قلة من نخبتها من هذه المخاوف والتحذيرات، وخاصة أمثال الوالد الحديث العهد بالقرية وخالي محمد ند عابد المهتم يوميا بالأحدث باعتباره بائع وصانع دراجات بتيزنيت ومتصلا بالمقاومين وبغيرهم بمراكش، وكذلك الأمر بالنسبة إلى (سي محمد أبيدار) المسؤول بتيزنيت عن بيع الصحف والدخان وبيع السجائر وباعتباره أحد قدماء الجنود المغاربة بفرنسا خلال الحرب والمعطوب من إحدى ساقيه، وهكذا كنت وأنا أحضر كغيري من تلامذة الكتاب الجامع الجمعات والأعياد وقراءة (التفريق)[1] قبل حضور الإمام الخطيب، أتحرج من سماع شيخي وهو ينصر السلطان الجديد بقوله (وانصر اللهم محمدا عرفهْ) وكأن شيخي الخطيب يتعمد حذف (ابن) مقتصرا على (عرفه) على سبيل التورية وعموم الخطاب الموحي بأنه يقصد السلطان الحق المعروف وهو محمد الخامس المنفي آنذاك وكان ذا معرفة بالبيان والكناية والمجاز من اثر تخرجه في مدرسة أدوز العلمية.

ومع هذا كان الوالد عند الرجوع من صلاة الجمعة والعيدين ينحي باللائمة على شيخي سيدي علي أبت بسبب هذا النصر غير المستاغ لدى الوطنيين والمفروض على سائر خطباء المملكة! وهكذا وفي هذا الجو المشحون بدأت أخبار المقاومة تصل إلى الطبقة الواعية الوطنية في القرية، وكانت الوالدة تسمعني ليلا وفي صحبة

---

[1] عبارة عن أجزاء للقرآن الكريم، تضم خمسة أحزاب، وتوضع في صندوقة وتحمل إلى الدور في المناسبات لتوزع على الطلبة قصد الإحاطة بتلاوة القرآن الكريم جماعة تفاريق موزعة على نحو اثني عشر تلميذا وطالبا في زمن قصير، وقد كنت معجبا بخط شيخي المكتوبة به هذه الأجزاء وتفننه في رسمها بالخط المغربي النسخ مع إدخال ألوان من الصمغ تمييزا بين أحزابها وأثمانها وأرباعها وما إلى ذلك من التسفير والخياطة حفاظا عليها من أيدي المحاضر التي لا تترك مساحة منها إلا تمسحت بها وقبلتها !

الوالد نشرات أخبار (إذاعة طنجة) التي كانت قد تقوت أجهزتها في منطقة حرة لا نفوذ للحماية على جهاز الإرسال فيها فيما يظهر، فكنا نلتقط أخبار المقاومة ونسمع نبأ بداية العمليات الفدائية هنا وهناك في المدن والبوادي، مما كان يرفع من معنويات النخبة المتعلمة والمنحازة ضدا على الحاج موسى مثل ابن أخيه محمد أولحاج وخالي امحمد ندفارس والحداد الحسين ندوهيم وسيدي الحسين ندسيدي العربي، وكانوا تحت بصر الحاج موسى ومراقبته ويعرف أنهم يتحدونه ولا يستطيع لهم عقابا وأنهم قلة لا يؤبه بهم والتي تظهر الحماية بمظهر العاجز المضطرب غير المتحكم في الشأن العام في المدن والقرى! وخلق هذا الجو المشحون مخاوف للطبقة الإدارية المغربية في أن تتطور الأمور إلى ما لا تحمد عقباه، وأن ينفلت الزمام من الحكام فيشهد المغرب فوضى لا قبل له بها.

وقد عاشت هذه الطبقة المتعاونة أحداثا جساما وقلاقل وثورات لم تهدأ في سوس إلا بعد الثلاثينات، ولا تزال الذاكرة تستحضر مخاطرها وضحاياها مما دفع ببعض المسؤولين إلى استنكار هذا اللون من المقاومة تجلى أحيانا في بعض تصرفات شيخ القرية الحاج موسى وهو ضيف عند الوالد، وقد أحضر الوالد للضيوف وفيهم الفقيه العدل سيدي عبلا الأدوزي! كؤوسا لا أزال أتذكر شكلها وقد رسم عليها بالخطوط البيضاء ما يمثل مسجد محمد الخامس بالدار البيضاء! فأثارت الصورة تعليقا للشيخ لم يعجب الوالد عند ما علق قائلا: (لا يشتري هذه الكؤوس إلا من كان في قلبه محبة صاحب هذا المسجد!) وبقي الوالد رحمه الله يكره هذا التعليق مستغربا ومستنكرا، والشيخ يقصد إشعارنا بتأزم الموقف عند الإداريين والشيوخ والنخب التي لا تزال تطمئن إلى أن وجود فرنسا ضروري للاستقرار، ولما يمض على ذلك في سوس أكثر من عقدين من السنوات!!

بعض الشخوص من صلبة (بعضار) وأعلام القرية رجالا ونساء والذين تركوا ارتسامات في نفسي خلال هذه الفترة وفسيفساء بعض ألفاظ اللهجات والأسماء

وإليكم بعض هذه الفسيفساء التي تمت إلى الحقول الدلالية لدوار العوينة بصلة ولذاكرتي اليوم خاصة وتشق الألقاب عن أصول قبلية أمازيغية وعربية وحسانية :

سيدي محمد إسيملالن/ سيدي محمد أعمر ندهوز/ سيدي أحمد ند سيدي العربي/ خالي الحسين مُمُّ/ خالي امحمد ند فارس، وأخوه الحسين/ سيدي موح أتزروالت وزوجته للا فاطمة/ عمي أحمد الحسن أبعقيل / خالي العربي ند شاين/ فاطمة الحاج/ يمنا ندوگناو/ المعلم عياد أبحري/ المعلم أحمد الزا أبحري/ بنهموش/ كوران/ العربي نكوران/ رقية تسوقيت/ العربي بوميا برم/ الراجل سيدي محمد الرگيبي/ عبلا ند عبلا/ حواز/ محمد أُعبلا ند عبلا/ محمد أوعمارا/ اليزيد ند وغرغور/ محماد اليزيد/ اليزيد ندهمو الحسين/ محمد أُبْرَاهيم أُمُولود/ إبراهيم أفاضل/ تاشهمت/ تابحت/ الحسين وبيح/ سي أحمد أُلحسين/ العربي ند جامع/ مبارك ندوشن/ العربي ند بلا/ الحسين ندو گناو/ الحسين ندو بلال/ أضرضور ندو بلال/ سيدي إبراهيم أبنغال/ أمجوض وأُمغار أيزلا/ قرص عْنتَّا/ الحسين ند واهيم/ العربي ند وهيم/ سي موح الحسن/ سي مبارك ند محماد/ سي إبراهيم أماترز/ هبان (جوهان إست)/ الحسن أبوكاض/ سي مبارك الحسن/ سي عابد أضرضور/ عمتي فاطمة به ابعقيل/ الحسين أمبارك ند وافقير مبارك/ شَاكَا الرَّامي/ أضرضور نعاليا/ بنسليمان/ يَمْنا بلال/ الحسين أُمحمد/ عبلا ند عبلا/ الحويسن/ سي أحمد أبيضار/ عيشا نْدُوبِيدَار/ إِبَّا عيشا مي انشكلين/ إبا رقية ند الرامي/ عمر أوعبون/ أضرضور أوعبون/ أسلگي/ إد بيروك/إد لخليفت/ عابد ند

لخليفت/ مبارك ند لخليفت/ اليزيد ند احسون/ سي بلخير/ أحماد أُبلخير/ إدبلاوي/ أحمد بلاوي/ إدأبلقاس جيران الجدة/ إدأبرابو/ إبراهيم نبيروك/ الحسن ند بيروك/ سعيد ند سي/ أفقير أحمد ند سي/ بوتگايوت/ مبارك ندهموش/ لمنيس/ أعبد رحم/ الحسين ند عبدرحم/ زين علي/ محمد أعبلا ولدها/ سيدي أحمد أُسعيد/ سيدي العربي/ إبراهيم نْدَّهيا/مباركة ندلعياش/ بولخروض/ محمد نبولخروض/ بقي/ إدوعطار/ إدأضرضور/ مبارك ند أضرضور/ تاگمارت ند لقايد/ تالقبطانت/ تانست/ أگجگال/ تاگجگالت/ إفري ملولن/ سيدي سعيد/ تكوين/ إگي نترگا/ أگسار نبلخروض/ ترگانن نسيدي عبلا/ إگريّسان/ الدير/ أگادير إزدار/ أبحري/ تيط العين/ تگمي العين/ فياع/ حد الصايم/ البريح/ محمد أوموش أبراهيم مماد/ المعلم مبارك بونقرط/ لاوبار ند سيدي عبلا/ سيدي عبلا/ فاطمة علي والدة زين عبلا آيت بنوح/ إگرار ند جامع/ إنرارن ند جامع/ سيدي العربي/ سيدي الولي/ سيدي إبراهيم أُمنصور/ سيدي بولفضائل/ إد هملا/ آيت جرار/ بونعمان/ المعدِّيت/ إيسگراد/ القسبت/ إشنقبي نْ ترگا/ تاسيفت/ أسيف أودودو/ تافضنا/ أنْطَّار/ أنْرار/ تِرْشْتْ/ بن مَّايس/ إغبولا/ سي الحسين ند المحفوظ ندهموش/ مولاي أحمد بربق/ لارجام/ إدْهَملّا/ بوزرز/ إد بها/ إگرار نسيدي عبد الرحمان/ محمد أزماني أُبهِ/ إد طيفور/ آيت ودوز/ الفقرا نِدَ أَوْلْتِيتْ/ تمگلجت/ محمد أراضي/ الخ ...

١٤

بعض الزملاء المميزون في الحضار:

سِّي مُحَمَّادْ أُبِهِ أَزْمَانِي : أدركت هذا الفتى القصير القامة المتواضع الخطى الرقيق النظرات من قبيلة (آيت همان) منشأ أسرة الطالب سيدي علي أبت الأول، وقد عكف ليله ونهاره على اللوح يعيد ويبدئ في الحفظ، وترجيز بعض أبيات الرسم والضبط والتي تكتب تحت اللوح للطلاب المتقدمين في كمية الحفظ قد اتخذ له غرفة يَحْتَجِن ويخبئ فيها أبناء سيدي أحمد أُموسى الهماني التيزنيت ي التاجر المشهور بمشور مدينة تيزنيت، والفقير التجاني والحافظ للقرآن الكريم، وهما عبد الله أموسى، ومحمد أموسى، وسبقهما أخوهما المتوفى باكراً إبراهيم أُموسى، والذي أثبت الصهر سيدي عبلا وفاته بالعوينة وذلك في مرض لم يهمله رغم بنيته القوية، وجمال تكوينه، وحسن فتوته، وكأن عينا أصابته فاستسلم قبل أن يدرك الأمل سنة 1366 هـ لدى والده بتيزنيت سي أحمد أُموسى الهماني رحم الله الوالد وما ولد (الكناشة ص 56) وكان من شيطناته أنه لما تعرض لعقوبة أحد عرفاء الكُتاب (سي أحمد أتفراوت) عمد إلى قفل أخربيش فكسر ثناياه دفعة وخرج متحديا فاتبعه العريف سي أحمد المذكور إلى سطح المسجد فلم يشعر إلا وقد سقط سقطة أبدت شيئا من عورته وانفلت المرحوم إبراهيم أموسى هاربا إلى السطح مستضحكا عليه بقية المحاضر، ومِما انفرد به (سي محمد الهماني أزماني) هذا غلبة النوم عليه، فكان الزملاء يتعابثون به أثناء النوم، وهو مستسلم كالميت لا يكاد يحس بمن حوله، وكان من خبره بعد ذلك اختياره لحسن سلوكه من قبل الصهر المرحوم محمد بن عبد الله الأدوزي للسفر معه إلى مدرسة آيت مزال قصد التحصيل العلمي[1] ثم انتقل بعد ذلك إلى مدرسة سيدي محمد

---

[1] استصحب سيدي محمد أعبلا الأدوزي ثلة من تلامذة العوينة منهم محمد أُبِهِ، وسي الحسين أُعبدرحم، ومحمد أبت، ومولاي أحمد الأدوزي صهري فيما بعد وسيدي احمد اعثمان وغيرهم.

الشوشاوي لاستكمال الأمهات دون تقدم كبير، وكان حسن الإيواء لأبناء عمه هؤلاء: عبد الله ومحمد، وكان حسن الإعداد للطبخ والتنظيف، وإقامة الشاي، وكان ربما أمر احدهما باستدعايئ قائلا (نادوا أُلْعِوِينَة) ليتغدى معنا دون سائر الطلاب! وكان قد كتب أبياتا أسفل اللوح يرددها كل صباح مسمعا إياها لي ولمن حوله من الطلاب وهي:

كبر على العلـــم يا خليلـــي ومـــل إلى الجهل ميل هائـــم

وعش حمارا تعش سعيـــدا فالسعد في طَالَـع البهائـــم

وقد أشفق عليه الزمان فتاجر مدة طويلة في مدينة إنزْكَّانْ، وتزوج ابنة نسيبه أخت عبد الله ومحمد، وعاش في كنفها طويلا محفوظا مرعيا وولد له معها، وكان أحيانا يصاب بخسارة مالية، من إثر زهده في التجارة، والقيام بصرف الأرباح على الولائم والطلاب، وكان يحب هذا الجو القويم ويأنس به، وكان أحيانا ينفي نفسه من البلدة ويصعد إلى إحدى المدارس العتيقة بجبل كيك بزاوية مولاي إبراهيم فتحتار زوجته رحمها الله وتبحث عنه، وهي البحاثة الدراكة وتعثر عليه ثم تستقدمه ليعيش إلى جانبها مرعيا محفوظا إلى حين وفاته رحمه الله منذ سنوات، وربما كان لقبه هذا (أزماني) دالا على شدة التصاقه بالقديم، وعدم قدرته على التطور، وإدراك العلوم الجديدة عليه خلال (1369/ 1951) بمدرسة آيت مزال المسماة (مدرسة أُوَاسِيفْ) ومعه سي العربي برم بوميا آنف الذكر، فتوقف إدراكه عند عمر معين ومال إلى العيش في أجواء الطفولة والشباب الأولى خلال الكُتاب والمدرسة العتيقة، وأجواء مواسم طلاب سوس السنوية بتيزنيت (وتاعلات) وغيرهما.

وكان حريصا على إحياء ذكرى شيخه المحبوب لديه وبلديه القديم، سيدي على أُبَتّْ، فربما وجد من تلامذة المرحوم نوعا من الاستغراب آنذاك، فندم على هذه

الذمة المضيعة وهذا العهد غير المحفوظ للشيوخ والتي ضيع فيها الخلف كثيرا من تقاليد السلف وذلك من أثر الحداثة والاستقلال من جهة، ومن أثر هجوم الأفكار السلفية على التقاليد المدرسية العتيقة والكتاب القديم. وتلامذة آخرون تعرضوا لعقوبة حفظ الألواح.

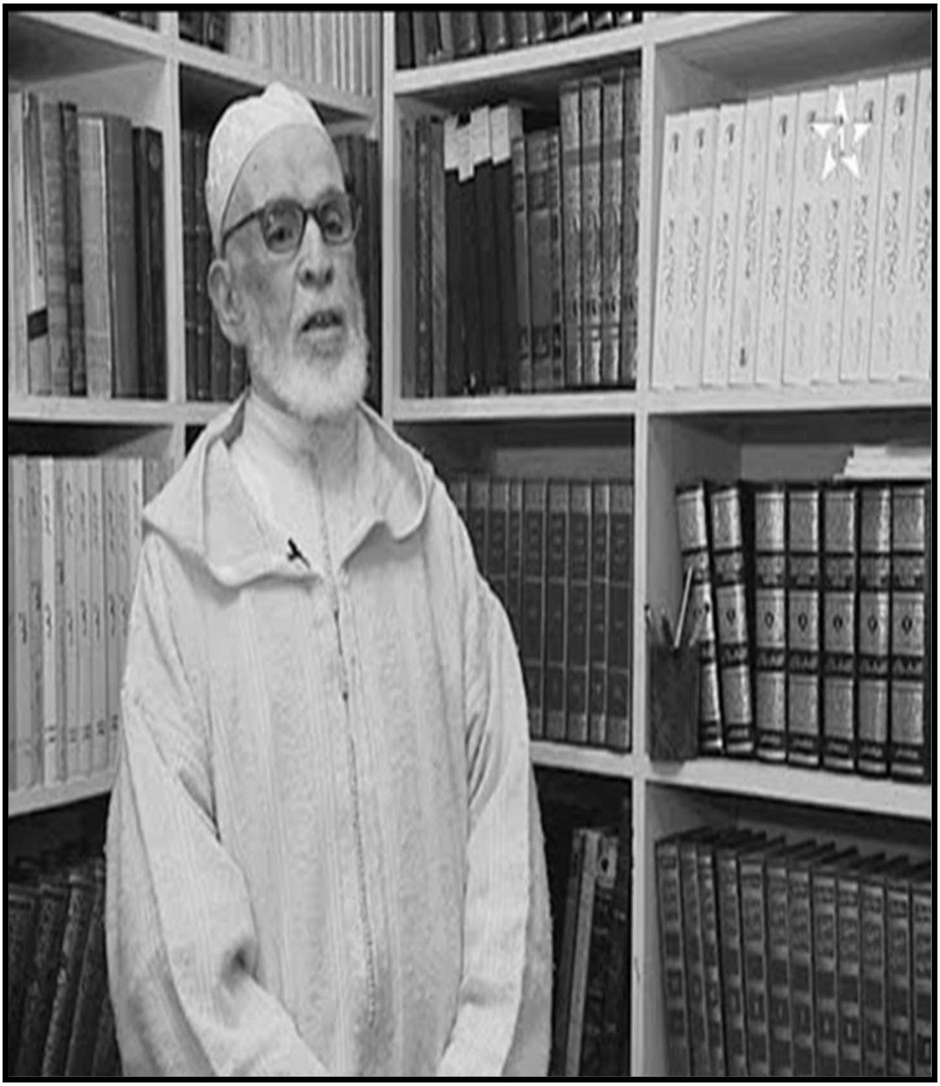
ومن لا تزال صورته في الذاكرة المرحوم عمر نْدَّهُوزْ الذي كان جارا للوالدة، وكان والده من أسرة ورثت العلم والقراءة من آيت همان، واسمه أيضا سيدي عمر واسم والده أيضا سيدي عمر ووالده هذا تلميذ الشيخ سيدي مسعود الطالبي وسيدي محمد العربي الأدوزي وكان رجلا بكاء شديد الخوف مسكينا لا يتكلم إلا فيما يعنيه وقد تزوج بقرية العوينة وولد له هناك وأصله من (تمجاض) بآيت همان من قرى الأخصاص وتوفي يوم عيد الأضحى سنة (1343 هـ / 1924م) وأدركت نجله سيدي عمر شيخا ضعيف البنية يأخذ بتلابيب ابنه عمر ليسلمه لسيدي علي أبت قصد التشديد عليه في حفظ القرآن الكريم وإن لم يكتب له حظ منه، وهكذا كان زميلي عمر أعمر ندسيدي عمر غير مبال رغم حرص والده على تنشئته ليصبح وارثا لهذه التقاليد دونما نجاح، وربما كانت بنيته الضعيفة واصفرار لونه من نقص في الكالسيوم أو من وراثة قد بطأت به وعاقته عن التمكن من حفظ القرآن الكريم، فربما زاغ عن الحضور فشكي به إلى والده الذي كان يصر على جره جرا تحت التهديد إلى الكُتاب ليتعرض أمام الجميع إلى إزالة قميصه وتمتيعه بجلدات عديدة من سيدي علي مع إلحاح والده وهو يهدده بإرساله إلى مدينة بُورْدُو الفرنسية إذا لم يتمكن من الحفظ، وكان أهل سوس يبعثون إلى حفر المعادن بها تحت الأرض، فلا يزيد ذلك عمرا هذا صديقي في الخرجات مع خالي ممادي العربي وخالي إبراهيم ندهيا، إلا زوغانا وتراخيا لم ينقذه من ذلك إلا وفاة والده ومصاهرته مع (المعلم لومسترو) للغة الفرنسية

(مْسْيُو ملود البجعدي)، وكذلك اشتغاله بفتح دكان في دارهم للتجارة ذات العائد القليل.

وكان الزميل العزيز (إبراهيم أفاضل) ممن نال بعض ذلك من نشاطه وجرأته على بعض ديوك القرية من إيحاء بعض الكبار من الطلبة وتقديم خدمات العجن والانضاج وغيرها إلى الزميل عبد الله ابواتي واستصحابه بعد ذلك إلى ابن يوسف بمراكش حيث اجتهد قبل أن يجتاز مباراة المعلمين ليعين زمانا في إقليم ورززات ورعى إخوته وقام بتزويج بعضهم واحضاره إلى مراكش قصد توجيهه إلى ما يصلحه. فربما شكي به إلى سيدي علي فناله بسبب ذلك وبسبب حبسة كانت في لسانه من بعض العقاب المعتاد شفاه الله ، وكان والده التاجر سي فاضل ووالدته وأخته وزوجه ممن عاشرناهم بمراكش ولا يزلن، رحم الله من توفي منهم وشفى الباقيات من أخواته، وقد استدرك بمراكش ما فاته بجامع ابن يوسف وتقدم لمباراة المعلمين فعين في ورزازات لسنوات معلما مجدا محبوبا ولم يتمكن من الانتقال إلى مراكش إلا بعد عمر طويل ثم تزوج وأنجب وتقاعد أخيرا وتوفي بأَخَرَةٍ منذ عام.



فقيه مدرسة سيدي محند الشيشاوي الأول محمد بن احمد العتيق الالغي قبل الاستقلال



الفقيه الحسن العبادي أحد أساتذتي بمدرسة سيدي محند الشيشاوي

١٥

فإلى طلب العلم بمدرسة سيدي محمد الشيشاوي:

وهي ثلاث سنوات في ظروف من المخاض السياسي والعلمي قبل الاستقلال بمدرسة سيدي محمد الشيشاوي طالبا ومعيدا وخطيبا وطنيا متدربا ومنشدا للشعر الوطني بين يدي وزير التاج المختار السوسي في ظرف ثلاث سنوات من التكوين السياسي والعلمي قبل الاستقلال

﴿1954 – 1956﴾

كان من حسن حظوظي عند الله وعند الناس، وخاصة عند الوالدة والوالد، وشيخي في الإقراء سيدي علي أُبَتٌّ والفقيه العدل سيدي عبلا الأدوزي، وأبناء سيدي عبلا: المولى أحمد والمولى عبد الرحمان، وأخيهما الشهيد سيدي إبراهيم! أن بعث سيدي عبلا قبل هذه الفترة بقليل، أبناءه الثلاثة المشار إليهم إلى مدرسة عتيقة قريبة من تيزنيت والعوينة، اشتهرت منذ حل بها أحد أصهار العلامة محمد المختار وهو العلامة محمد العتيق، بالتجديد في المنهج والتفنن في العلوم، وذلك منذ سنة **1947**م بعد حلوله بها مبعوثا من سيدي محمد المختار إلى قبيلة هشتوكة (آيت بكو) والتي اشتهرت بالوطنية والتفتح والحداثة والعلم والإقراء من بين المدارس العتيقة بها وحولها.

وكانت المنطقة ما بين تيزنيت والعوينة وأگلو والساحل وآيت برابيم وآيت جرار وشتوكة، قد ازدهرت بها المدارس العتيقة في هذه الفترة إقراء أو علوما أو جمعا بين المستويين أحيانا، بالإضافة إلى مدارس ماسة العتيقة العمران والأحداث والتاريخ، وما أحاط بهذه السهول من جبال آيت بعمران وآيت همان ولاخصاص وآيت الرخا وجبال وَلْتِيتَة الشاملة لمدارس عديدة للقبائل الثلاث: (إِدَأَوْسَمْلَالْ. وَإِدَأَوْبعْقِيلْ، وَإِدَ أَرْسْمُوكْ) مما ألف فيه العلامة محمد المختار بعد ذلك كتابين أحدهما (سوس العالمة) والثاني (المدارس العلمية العتيقة) ثم توالت المؤلفات في تاريخ هذه المدارس بعد ذلك.



مدرسة سيدي وگاگ أقدم مدرسة ورباط في المغرب

أسماء أعلام من علماء الدائرة الكبرى لسهول تيزنيت
وما حولها من جبال أثروا في الذاكرة
وكذلك من كان قبلهم من علماء سوس

كنت وأنا أدرج بالقرية العوينة لا يزال يترامى إلى سمعي أسماء أعلام في (العلم) من داخل القرية وخارجها وكان من بينهم من كنت أستمتع برؤيته وهو يزور شيخي سيدي علي أُبت ممن يشار إليهم أمثال.

أولا: سيدي (محمد إيسملالن) الرجل العاكف الزاهد المنزوي بداره، والمعمر وصاحب خزانة علمية أسمع عنها قبل أن أطلع على بعضها بواسطة زوجته المرحومة عند ما وَضَعَتْ، وهي تسمع بتقدمي في العلوم؛ رهن إشاراتي مراجع ومصادر اخترتها قصد التبرك والإطلاع قبل استردادها، وكانت شديدة الحرص عليها، وكان سبق له أن تخرج من مدرسة بيعنفيرن فعكف بها سنوات طالت حتى فكر في زيارة والديه بعد أن ابيض فوْدَاه فلم يتعرفا عليه إلا بصعوبة.

ثانيا: كما كنت أتأمل من كتب العلم وأمهاته لدى الطالب سيدي محمد الركيبي الرَّاجْلْ مراجع ومصادر اشتراها من الرباط، وكان يظهرها تارة ويخفيها أخرى، وربما أعار منها لي لأيام ما جعلني أعكف ليالي تحت ضوء الشمعة مخفيا هذا الضوء لئلا أوقظ الوالد والوالدة، وقد اعتادا النوم بعد العشاء مباشرة! وجل هذه المراجع والمصادر كانت في النحو والصرف والأدب والفقه والقصيد وشروح البردة والهمزية.

ثالثا: وكان سبق لي بالدار البيضاء، التملي بالكتب: من خلال الوقوف طويلا على وجهات المكتبات بدرب البلدية وقرية الأحباس، وكانت دارا مشهورة كبرى في ملاصقة لمقهى الوالد هناك، كما كنت أعكف على قصص الأنبياء والصالحين والصالحات وكتب الوعظ والأخبار، كبدائع الزهور، وكتاب الرحمة، ودقائق الأخبار، قراءة وتمليا وافتخارا بامتلاكها.

رابعا: وكانت سيدة سوسية جميلة الشمائل والأخلاق، زوجا لأحد الشباب من تونس، قد جاورتني بدرب بوشنتوف، أثناء دراستي بالمدرسة الحرة مدرسة (الفلاح) بدرب اليهودي قد أهدت لي على سبيل الإعارة وقد رأتني مهتما بما عندها من مخبوءات أجزاء من كتاب سيرة (سيف ذي يزن) فكنت أتشرب من هذه السيرة شعرا ونثرا، ما جعلني أتقدم بسرعة في القراءة والإطلاع جزاها الله خيرا، ولا تزال صورتها الرشيقة وملامح وجهها الذكية، وشخصيتها المرحة عالقة في الذاكرة، وهي تزيرني بيت زيجتها وتحاول أن تتقدم بي في هذا الاتجاه، دون أن يخفى عنها إعجابي بشخصيتها مثقفة ذكية ووطنية وزوجا لأحد شباب تونس آنذاك.

خامسا: كما كان يترامى إلى سمعي وأنا بالبيضاء أسماء أعلام منهم الحاج الأحسن البعقيلي، والفقيه النتيفي، ومحمد المختار السوسي بكل من درب البلدية ودرب غلف والمسجد المحمدي وأسماء علماء قرية العوينة تصل إلى سمعي وتقرع شعوري وخاصة أسماء أمثال.

سادسا: الفقير سيدي عمر ندهوز[1] الهماني، وكان ابنه محمد أعمار، وحفيده عمر جارين لي وهما يملكان بعض كتب هذا الفقيه الفقير والكاتب العدل.

---

(1) توفي سنة 1343 بالعوينة.

سابعا: كما كان اسم صهري فيما بعد العلامة عبد الله الأدوزي يملأ السمع والبصر، وكانت وثائقه العدلية هو وأخوه سيدي إبرهيم الأدوزي تحت بصري وسمعي يقدمها الوالد لي قصد الاطلاع على تركات الأسرة بتفصيل، فكنت شديد الإعجاب بخطوطهما الفاسية الرسمية الجميلة، وكان الصهر سيدي عبد الله الأدوزي كاتبا لدى أحد أبناء الشيخ الثائر الكبير ماء العينين (الشيخ النعمة) ومتصلا بالأسرة بتيزنيت وغيرها، فكان يحرر له ويكتب، ويأخذ منه ويعطي، وكان قد درس مع القاضي العلامة احمد أعمو ببعض مدارس سوس فرشحه لتولي العدالة بالعوينة ومحيطها، ولا أنسى شخصية نجله سيدي محمد الأدوزي القروييني التكوين، والحديث التخريج بفاس، وهو يمثل العلماء الشباب بلباسه وسلوكه وهالته التي انتشرت أشعتها بين الطلاب والقراء، وهو يزور شيخي مرارا صحبة والده والشيخ موسى، أو يزور الوالد والوالدة باعتبارها ربيبة هذه الأسرة في صغرها، وزميلة لبنات سيدي عبلا وخاصة كبراهن للافاطمة، وكانت تصحب الوالدة وهما مراهقتان قبل الزواج وبعده، وربما أخذتها الوالدة إلى دارها الأولى أو الثانية لاطلاعها على هدايا زوجها خالي (محماد ند عابد نْدْ رَّايْس) ومنها الآلة الجديدة على أهل القرية جميعا (آلة الغناء) كما كانت تسمى أو (أگرامفون) للاستماع إلى أشهر مطرب العصر: الحاج بلعيد السوسي الشهير.

ثامنا: وكانت مدرسة سيدي بوعبدلي وشيخها الأدوزي سيدي إبراهيم أُعَبد العزيز شيخ الأسرة الأدوزية العوينية وقريبها وشيخ سيدي علي أُبَتّْ تصل أصداؤها! قريبا بنحو عشرين كلومترا، وموسمها الشهير التجاري الفلاحي والعلمي، مناسبة لاشرئباب الطلاب إلى زيارة هذه المدرسة ذات الخزانة الأدوزية الغنية بالمصادر والمراجع، وكان بالموسم ساحة مخصصة للكتاب نسخا وشراء وبيعا ما شجع الطلبة والفقهاء على زيارتها ويقال بأن أحد الفقهاء ضاعت منه مخطوطة عزيزة عليه فبينما

هو يستعرض الكتب في الموسم إذا به تقع عيناه عليها فأسرع في أخذها قائلا الحمد لله هذه بضاعتنا ردت إلينا وتوعد البائع إن هو أبدى اعتراضا بالفضيحة، وكان الشيخ من أعلام علماء سوس قبل الاستقلال وبعده، ومن الوفد العلمي الأول الذين وفدوا على محمد الخامس بعد رجوعه من المنفى سنة 1955 وزار بعد ذلك مراكش هو وبقية الوفد، وزار كلية ابن يوسف وعلماءها، والرجال السبعة واستضيف هناك.

تاسعا: كما كانت الأسرة المسعودية المعدرية البونعمانية قريبة من القرية نحو 15 كلم. واشتهرت المدرسة البونعمانية بها بشيء من العلوم والتصوف الدرقاوي الأصيل، باعتبار جد الأسرة ممن أسس هذه الطريقة بسوس، كما كانت خزانتها بالمعدر وبونعمان ذات صيت، وهي ممن صاهر الأسرة الأدوزية العونية إلى اليوم[1]، وكان زميلي أحمد الطالبي بمراكش والكلية كان قد استضافنا وعرفنا بخزانة آبائه والتي يعكف اليوم عليها كما أخبرني بذلك وكذلك أخوه يحيى الأستاذ المحاضر والمحقق الرحالة ولا تزال المدرسة البونعمانية عامرة بإدارة الفقيه سعيد التوفيق رعاه الله.

عاشرا: (أما مدرسة أكُلُو) القديمة الصيت، فكانت قد تأخرت بها الظروف، فاشتهرت بالإقراء، إلى أن نهض بها قبل الاستقلال العلامة الرحلة الفقيه سيدي أحمد الزيتوني خريج الزيتونة وعالم الطريقة التجانية التونسية والمجتهد في إحياء هذه المدرسة وإرجاع الصيت العلمي إلى أحضانها كما رأيت ذلك وأنا بالمدرسة الشيشاوية في إحدى الزيارات المتبادلة بين المدرسة في شخص الطالب الجلوي الإدرقي سي ناصر القاضي رحمه الله، وهناك عنده بأكلو، زارنا لأول مرة الفقيه الطالب بِابْنِ يوسف (الحسن وگاگ) في إحدى العطل الصيفية، ولم يتحول بعد إلى مخاصم لخاله الزيتوني في الاعتقاد والموقف من التصوف.

---

[1] حول ترجمة الوالد المؤسس سيدي مسعود وولده محمد بن مسعود راجع روضة الأفنان ص 204/ 210 .

أحد عشر: وكنت لا أزال إذا زرت تيزنيت أمر على مكتبة (سي بوجمعة الرسموكي) الوحيدة آنذاك بسوق سي بلعيد، وقد اجتمع لديه الطلاب والعلماء، وكان يجلب أمهات كتب الدراسة من مراكش والدار البيضاء عند أمثال القادري وسي الحسن التازروالتي، وكان صاحب مكتبة مشهورة بحي المواسين يقصده الكتبيون السوسيون كما حدثني المرحوم سي بوجمعة أرسموك الذي تخرج على سيدي علي ألطاهر الرسموكي. وكانت مكتبة التزروالتي قد عرفت بمؤسسها هذا وهو الكاتب البديع الخط وكان في ديوان أحد القواد الكبار للجبل الأطلس القائد الكنتافي، وقد كتب إليه شاعر الحمراء محمد بن إبراهيم وقد طلب منه من قبل استنساخ قصيدة الرسموكي الشهيرة الممزوجة بالأمازيغية فتباطأ التازروالتي فكتب إليه أبياتا على نفس النمط وقال فيها :

يا أيها الـخل الأديب الأَنْـــوَهُ   هل نسخت قصائدي (نْغْدْ أُوهُو)
إن نُسخت وليس ذاك بالمحال   فـــذاك أو فإنه (إسُـــولْ الحَالْ)
أرجـوه خـطـا مثل ذُرّ السلك   كخـط إبـن مقلـــة (إفولكي) [1]

وكان سيدي علي ألطاهر قد اعتاد الجلوس عند سي بوجمعة الرسموكي فكنا نسلم عليه ونتعرف عليه أثناء الأخمسة والمناسبات، وموسم سيدي عبد الرحمان ويلفت نظرنا بسمته وشهرته ونكتته اللاذعة.

اثنا عشر: كما كان الفقيه القروييني التخرج سيدي محمدالأدوزي[2] قد نهض بمجموعة من كبار زملائنا بالكتاب، فأخذهم إلى مدرسة آيت مزال المسماة

---

[1] كما أوردها الدكتور أحمد شوقي بينبين في تحقيقه لديوان شاعر الحمراء صفحة 474 ط الأولى مطبعة النجاح الدار البيضاء 2000 م 1421 هـ منشورات الخزانة الحسنية.

[2] ترجمته عند أحمد متفكر في كتابه: علماء جامعة ابن يوسف أول ترجمة في الكتاب (حرر ترجمته محمد البايك).

بمدرسة أسيف، واجتهد بهم في الإلمام بأمهات العلوم، لولا أن المراقب المحلي شك في إخلاصه لفرنسا فأمر شيخ القبيلة بالاستغناء عنه، فرجع طلابه وتفرقوا في مدارس أخرى، ومنهم من لقيته فيما بعد، عند ما وصلت إلى مدرسة سيدي محند الشيشاوي، وخاصة أبناء سيدي عبلا: مولاي أحمد وسيدي عبد الرحمان، وسيدي إبراهيم: شهيد العلم بمراكش وبمدرسة ابن يوسف خاصة في حادث وقع له فدفن بمقبرة الشهداء بباب الرب (مقبرة الإمام السهيلي) في يوم مشهود حضرناه طلابا وأساتذة وأصدقاء وقرابة.

ثلاثة عشر: قطب تيزنيت وعالمها والمدرس بجامعها وقاضيها العلامة الشهير في أسرة (اد اعمو) المتخرج في مدارس سوس وخارج سوس بفاس وكان قبله في القضاء والتدريس القاضي احمد المصلوت وأدركت سيدي احمد أعمو على ذلك قبيل الاستقلال وقرأت في الجامع الكبير بالعوينة مع نجله المتخرج في كلية الحقوق ورئيس المجلس البلدي بتيزنيت منتخبا لعدة دورات وواضعا لمشاريع تنموية للمدينة الأستاذ عبد اللطيف أعمو كما رشح للبرلمان عدة مرات ومكتبه بأكادير غاص بالمحامين المتدربين وأخرج ألبوما ضخما عن تيزنيت معززا بالخرائط والصور والاحصاءات مع نبذة تاريخية عن المدينة منذ تاسيسها، وهو الذي أرسل لي نبذة عن والده وأوعز إلى نسيبه القاضي الأخصاصي بأن يبعث لي بصورة فوتوغرافية عن والده أعمو رحمه الله.



سيدي أحمد أوعمو فقيه مدرسة الجامع الكبير قاضي وناظر تيزنيت قبل الاستقلال وبعده وخريج القرويين ومدارس سوس العتيقة أخذت عنه في الجامع المذكور أعلاه

تميز مدرسة سيدي محند الشيشاوي خلال هذه الفترة واستقطابها للشباب والفقهاء الزائرين

كان من بين حسنات الأسرة (الإيدرية الهشتوكية وعميدها آنذاك والد الزعيم المناضل محمد بن سعيد آيت إيدر) أن أضافت إلى التجارة والضيافة والرفادة إيفاد أحد أبنائها محمد ايت يدر إلى مراكش لدى سيدي محمد المختار بمدرسة الرميلة في هذه الفترة، فكان أن تعرف العلامة سيدي محمد المختار بواسطته على الناحية، وكان من نتائج هذا التواصل اقتراح المختار أحد أنجب طلابه وقريبه وصهر أخيه الخليفة فيما بعد سيدي (محمد العتيق) فقيها لمدرسة سيدي (محند الشيشاوي) هذه (بآيت بنكو) قريبا من (دار آيت يدر) المشهورة بالمكانة التجارية، وحسن الاستقبال، وحفر الطريق الساحلي بين تيزنيت وأگادير قديما مما أتاح لها الاطلاع على تطور الأحوال السياسية وظهور الوعي الوطني بالعواصم الكبرى. وقد كان سبق لمحمد أيت إدَّر الدراسة قبل ذلك بمدارس بونعمان وسيدي بوعبدلي قبل الالتحاق بمراكش التي أشرب فيها الوطنية على يد شيخنا محمد المختار وتطور نضاله مع الأحزاب التقدمية وأعضاء المقاومة وجيش التحرير في صحراء المغرب بعد ذلك وكتب كتبا عن ذلك ثم ختم حياته بكتاب سماه (هكذا تكلم بنسعيد).



الفقيه ابراهيم الإلغي أحد أساتذتي في المدرسة من قرية (دُّوگَادِيرْ) بلدة أستاذي محمد العتيق الالغي ومعيدا عنده خلال بعض عطل المدارس بسوس





منزل الفقيه بهشتوكة



جناح من خزانة الفقيه

حلول الفقيه العتيق بالمدرسة الشيشاوية 1947 واستقراره بها طويلا رغم تنقله فيما بعد بين المدارس العتيقة والوظائف المتعددة

وباقتراح من سيدي عبلا الأدوزي سافرت صحبة الوالد في ربيع سنة 1954 من تيزنيت إلى (قهوة سي عابد) النقطة التي تقف عندها الحافلات المتجهة إلى أگادير لنزول المسافر من تيزنيت وماسة وبلفاع، وهي عبارة عن دكان، ومحطة بنزين، ومقهى صغير في موازاة قرية (تيمنصور) المتجهة إلى المدرسة مباشرة عبر المرور بدار (آيت إيدر) الشهيرة على يسار المار، وكان الطالب (الصابر الحافظ) قد صادفنا وهو على بغلة الفقيه العتيق، فحملني على البغلة والوالد وتوجه بنا وسط (بحائر) الهشتوكيين، ومعظمها يسقى بالدواب والجرار آنذاك من الآبار القريبة النزع في سقي الخضر والبقول وأشجار التين والبرتقال وخاصة اللفت والجزر والطماطم واليقطين والفلفل الرومي الكبير الحجم نسبيا للتصدير الداخلي والخارجي نظرا لسهول هشتوكة آنذاك المسقية بالآبار والرملية التربة والقريبة من أسواق التصدير عبر ميناء أگادير في زمن باكر عن الربيع المعتاد .

ولما بدت لنا مدرسة شيشاوة بعد العصر في سهل واسع محاط بالبحائر والحقول المحروثة وشجر التين الشوكي الضخم الملتف حول السور الخارجي للمدرسة حماية لها من الحيوان واللصوص والزوار باعتبارها حمى علميا وتبركيا بسبب وجود ضريح الفقيه سيدي محند الشيشاوي الذي تنسب إليه المدرسة، وهو في قبة مستقلة عن المدرسة، وربما أقيم به قديما موسم ديني ضعف زواره في هذه الفترة بعد انتشار الوعي السلفي بهذه المناطق السوسية مبكرا، ومع ذلك حافظ على إقامته الفقيه العتيق باذلا ماله في سبيل استمرار هذا الموسم، وبإزاءه (خلية نحل) خضراء محاطة بشجر التين الشوكي

خصصت لتكون جبحا للنحل وخلايا دائمة الأزيز، وخاصة في فصل الربيع، ويعود جناها للفقيه المشارط سيدي محمد العتيق في هذه الفترة.

وهكذا ولجنا نحن الثلاثة، إلى حمى المدرسة قبل أن يبعث بنا الفقيه إلى منزله المحاط بالأشجار، والحديث العهد بالعمران، والشبيه (بِفيلًّا) وسط ضيعة واسعة محروثة ومشجرة متميزة الصنع، كان صهر الفقيه محمد الخليفة شقيق عمه محمد المختار السوسي، قد ساعده على إقامتها لإحدى ربيباته بتيزنيت فصارت عقيلة له وولدت له أثناء هذه الفترة صبيا ذكرا سماه (عبد الغفور) وأخوين بعد ذلك وكان يحضر عبد الغفور أحيانا معه إلى (المجلس) بالمدرسة تقريبا له من هذا الجو العلمي للاستيناس والتماسا بدعوات الطلاب له بالفتح المبين.

وهكذا وجدنا الفقيه (سيدي محمد العتيق) في استقبالنا، وهو يعرف عن الوالد وعن الأسرة الأدوزية، وعن الوالدة المنتمية إلى أحفاد (سيدي عْبلا أُوْسْعِيدْ) جد الأسر الإيليغية وما أحاط بها. فكان استقباله لنا بناء على هذه السابقة، وعلى وجود ثلاثة من أبناء الأدوزيين لديه، ولم أبق عند الطالب الصابر الحافظ الهشتوكي الأصول والدراسة وَالدُّكَّانِ بالمدرسة، إلا ليلة في غرفته العلوية، حتى اقترح علي غرفة سفلية تحت الدرج قريبة من المجلس والباب الخارجي ومن غرفة هذا الطالب وكانت ذات نافذة خارجية صغيرة ومظلمة بعض الشيء، ففرحت بهذا المسكن الذي أجله لأول مرة في حياتي، وأتخذه غرفة للعيش والمطالعة والنوم والاستقبال، قريبا من المسجد والمجلس والخزانة والسطح العلوي للمدرسة، وكذا من الباب الخارج من البئر الخاصة بالسقيا ومن الفضاء الممتد على يمين وأمام ويسار الخارج من المدرسة لا يحده جبل ولا معلم كبير في موقع متراص بالحقول والبساتين والآبار وأشجار التين بنوعيه وبطرق رملية بعضها يؤدي إلى الطريق العام الرئيس آنف الذكر، وبعضها إلى خميس (آيت عميرة) وآخر إلى مدرسة (أُخْرِيبْ) قريبا من سوق (أحد بلفاع).

لكل داخل دهشة وبداية متن الأجرومية لدى الفقيه العتيق

وهكذا وبعد استقراري بهذه الغرفة بقليل تقدم للسلام عليَّ كلٌّ من الأدوزيين: أحمد أعبلا، وأخوه عبد الرحمان، وأخوهما إبراهيم، وكل من أبناء وقرابة سي أحمد أموسى الهماني التاجر الكبيربمشور تيزنيت: (محمد أُبِهِ) آنف الذكر، وعبد الله أُموسى، وأخوه محمد أُموسى، وهم يسكنون في غرفة داخل المدرسة نائية شيئا ما، أما (العوينيون) فقد اختار لهم الفقيه حانوتا كبيرا قريبا من المجلس وبعيدا عن غرفتي ببضع خطوات، وكنت قد أحضرت بعض ما تيسر من الفراش والزاد وسرعان ما استكملت بواقيه بإحدى دكاكين الناحية القريبة من المدرسة. وخاصة الشمع والوقيد وغاز انضاج الأكل بواسطة وابور الغاز الذي استصحبته من تيزنيت وأواني الطبخ وإعداد الشاي، في تجربة أول طالب يعد طعامه وشرابه، مثل بقية طلاب المدرسة الخبراء في هذا الباب.!

وبقدر ما كنت أهمل الاعتناء بإعداد اللباس والأكل في هذه الفترة من إقامتي الأولى، بقدر ما كنت أنال عطف الطلبة الأقدمين، فيبادرون إلى دعوتي للأكل أو الشراب رفعا للحرج، دون أن أستطيع رد التحية بمثلها أو بأحسن منها لقلة الخبرة لا لقلة ذات اليد، وقد كان الوالد في هذه الفترة والوالدة غير مقصرين في تزويدي ببعض الزاد بواسطة (سي عابد) صاحب الدكان الآنف الذكر، باعتباره أسهل واسطة لتلقي الحوالات المالية بواسطة الحافلة وتسليمها إلى الطلاب بعد إشعارهم بذلك.

أما قصتي مع أول درس بالمدرسة في (المجلس[1]) وافتتاح الفقيه العتيق لي هذا الدرس من الأجرومية كما هو معتاد، فلم أعد أتذكر من ذلك إلا قاعة المجلس

---

[1] (المجلس) مصطلح عربي خاص الدلالة في سوس بمجلس الفقيه داخل المدرسة للتدريس خاصة.

وخزانته الأنيقة المليئة بالمجلدات والتي كان الفقيه قد قرر فتحها للطلاب ليأخذوا منها المصادر أثناء التدريس، وليستأنسوا بما تضمنته من كتب متنوعة تشمل التراث اللغوي والنحوي والفقهي والأدبي، وتتنوع من المستويات الدنيا إلى المستويات الوسطى والعليا، كما لا يزال عالقا بالذاكرة تقارير الإملاءات على متن الأجرومية وبعضها من خط شيخي سيدي محمد العتيق وبخطه الأنيق الرشيق زيادة في الاهتمام بهذا الطالب الجديد والأفريد المرجو كما يقال، وبناء على ظهور ملامح الذكاء والإلمعية في القادمين من العوينة وتيزنيت وإدراكهم السريع وفتوتهم المتقدة، ونشاطهم الزائد! وقد عكفت بعد هذا الافتتاح المبارك على هذه اللوحة الأولى في الأجرومية، وأنا أعيد متنها وتقاريرها الغزيرة الفوائد شعرا ونثرا وإعرابا وصرفا، وكأنما كان الفقيه السوسي في منهجه القديم الجديد، يتوخى أن تكون بداية الدرس النحوي عنوانا على نهايته، فكان يحرص على تثقيل المتن النحوي بالفوائد والتعليقات والاستدراكات، تاركا للطالب حق الاجتهاد في الفهم والحفظ والإعادة والتكرار دون إسراع، حتى يتشرب من ذلك ما يكون له زادا فيما بعد في الإعراب والتمارين الإعرابية المعتمدة على الأدلة المنظومة من عدة متون محفوظة ومستشهد بها عند كل كلمة أو حرف أو جملة.

أما الحزب المسائي فكان الفقيه يحرص على حضوره أحيانا وعلى افتتاح الأيات الأولى من بداية الحزب بالإعراب الجماعي الكامل المفصل للآيات المقترحة بطريقة اعتاد السوسيون على اتباعها في استقراء الجوانب الصرفية والصوتية والأسلوبية إعرابا واستدلالا بالمنظوم والمنثور والأشعار وما إليها! في مزج بين الأمازيغية والعربية يساعد على اندماج الطالب السوسي تدريجيا في تذوق العربية نطقا وتحليلا وفهما ومعجما وسردا، ويسمى هذا التمرين إذا كتب على اللوح (أَسْطَّارْ أُوْفْلَّا) ويراد به السطر الأول، ويكون مشحونا بأنواع القراءات والرموز التي تشير إليها مع النصوص الشعرية المسوقة في الموضوع في حالة إعراب الحزب.

ويمثل كتاب أحد زملاء الفقيه الزائرين للمدرسة الشيشاوية من قرية (إلغ) والمسمى بالدرة الإلغية[1] نموذجا لهذا الصنيع الدقيق الرقيق، وهو من مدرسي النحو والصرف والحساب والتوقيت واللغة والأدب، منذ تخرج بالمدارس العتيقة بجبال وَلْتِيتَة وتدريسه بها، وقد استثمر الفقيه بلديه محمد العتيق زيارته له في إنابته عنه لتدريس الطلبة وإعادة بعض المتون عليهم بأسلوبه ولهجته الأمازيغية الخاصة! حتى يدركوا من ذلك الفروق بين المشايخ ويلموا بمختلف أساليبهم التربوية أثرا من انفتاحه على الجو الأدبي المراكشي، وعلى مناهج المختار بمدرسة الرميلة، وكان العتيق طالبا بها مميزا وبشهادة العلامة المختار الذي يقول عنه: هذا أحد علماء إلغ الجدد الذين أحسنوا الأخذ. ثم برزت شهرتهم في ميدان المعارف ثم انتصبوا لتعليم الطلاب، فامتد بهم حبل (إلغ) في هذا الميدان، وهل الإلغي الحقيقي إلا من تعلم تعلما مكينا. ثم علم تعليما متينا؟؟

لَا ذَرَّ ذرُّكَ يَـا إِلْغِـيُّ إِن جَنفَــتْ رِجْلَاكَ عن سيرة عن إِلْغِ قد عُرِفَتْ
فَمَا الرِّيَاضُ سِوَى عَرْف الزُّهُور مَتَى هَبَّ النَّسِيمُ عَلَى أَكْمَـامِهَا عَـرَفَتْ[2]

(1) سيدي صالح الصالحي (الدرة الإلغية في شرح ونظم الأجرومية) دار النجاح الجديدة الدار البيضاء.
(2) المعسول 2/ 370 وعرفت بمعنى أطلقت رائحتها وعرفها.

الفقيه يعهد بي إلى أحد المعيدين من ناحية (الساحل) المجاورة لقرية العوينة لقراءة جمل (المجرادي) عليه وإعادتها على أخ الفقيه سي الحسين العتيق

ربَّما شعر الفقيه بخجلي الشديد من تكليفه باستيناف بعض المتون السهلة الضرورية لي وما يجده في ذلك من تضييع وقته في البدايات، فعهد بي إلى طالبين من الساحل القبيلة القريبة من العوينة، وهو يشعر بحسن استعدادهما لذلك، وتقربهما من هذا المراهق الخجول والجار الجنب، فشرعا يشرحان لي (لامية المجرادي) في الجمل التي لها محل والتي لا محل لها مع ما يلزم من تقريرات على اللوح، فأسرعا بي إلى استكمال هذه المنظومة من البحر الطويل، في زمن قصير وفيها:

حمدت إلهي ثم صليت أولا   على سيد الرسل الكرام ذوي العلا

وهي لأبي عبد الله محمد بن محمد السلاوي المجرادي المتوفي 778 هـ وقد شرحها علي بن أحمد الرسموكي المتوفي 1049 هـ بشرح سماه (مبرز القواعد الإعرابية من القصيدة المجرادية)[1] وكان كل من الفقيه سي الحسين العتيق شقيق الأستاذ، قد بدأ في التعليق عليها معي في أحد أركان المدرسة، وأعاد تقريراتها علي كُلّ من سيدي عبد الله المؤذن الساحلي وبلديه أحمد الساحلي، فاكتمل لذلك لي استيعابها وفهم متنها من البحر الطويل الذي ركبته في متن لغوي شهير لأول مرة بهذه المدرسة.

---

[1] أول ما طبعت بفاس ضمن مجموع سنة 1317/ ثم طبعت مع شرحها المذكور بعد ذلك، وقبل أن يستنسخها الطلاب بخط اليد، ويعلقوا على أبياتها من خلال ما تلقوه عن الشيوخ في اللوح.

وسرعان ما اقترح علي الفقيه الشروع في لامية أخرى أصعب ركوبا، من البحر البسيط هي (لامية الأفعال) في التصريف وما إليه بشرح الجلال السيوطي آنذاك، وتعليقات الفقيه من خلال مخطوطة أحد رواد المدرسة سيدي الحسن الهشتوكي العبادي، فكان لِحُسن تصرفه وتأتي صنيعه وبشره وتودده للطلبة خير مساعد على اقتحام هذه اللامية الصرفية المليئة بالأفعال السماعية الغريبة اللغة في مثل قول ابن مالك فيها:

وجهان فيه من (احسِبْ) مَعْ (وَغِرْتَ) (وحِر

تَ) (أنْعِمْ) (بَئِسَتْ) (يَئِسَتْ) (أوْلِهْ) (يَبِسْ) وَهِلَا

وأفْـــرِدِ الكسْـرَ فِـيمَـــا مِنْ (وَرِثْ) وَ (وَلِيْ)

(وَرِمْ) (وَرِعْـتَ) (وَمِـقْتَ) مَعْ (وَفِـقْتَ) حُلا

وكان من بركات هذا الزميل فيما بعد في جامعة القروين أستاذا ونائبا للعميد بكلية الشريعة ثم رئيسا للمجلس العلمي فترة وعضوا بالمجلس العلمي الأعلى اليوم، أعظم الأثر في التصاق هذه المنظومة وشروحها في ذاكرة هذا الفتى الحديث العهد بغريب اللغة وتصاريف أفعالها القياسية والسماعية والشاذة.

ولكي يكتمل التطبيق النحوي واللغوي لما تحصل في هذه المتون الثلاثة: (الأجرومية، والجمل، واللامية) كان المعيد سيدي عبد الله المؤذن يأذن لي خلال الأخمسة بسرد كتاب (المستطرف من كل فن مستظرف) عليه مع استعمال المعجم، وخاصة (المصباح المنير) لحل بعض ألفاظ اللغة، وضبط بعض تصاريف أفعالها، وهو أسلوب يظهر أن المدرسة الإلغية والرميلية تعمدت استعماله مع الناشئة حتى تطوع ألسنتهم بالإعراب والصرف الصحيح، وهم ينتقلون بين حكايات وآداب وأشعار

وأحاديث هذه الموسوعة التي ملأها مؤلفها الأبشيهي بالمستطرف العجيب من كل فن، كما يشير بذلك العنوان!، فكان ذلك بالنسبة لي قفزة نوعية إلى الآداب والأساليب العربية الفصحى نثرا ونظما ووزنا وأبحرا وعنوان الكتاب (المستطرف في كل فن مستطرف)، طبع مرات بعضها محقق تحقيقا لا بأس به[1].

ولم أشعر إلا وقد اقتحم بي الأستاذ العتيق مستوى أعلى من العربية واللغة عند ما شرع يدرس لنا ألفية ابن مالك بشروحها، وخاصة شرح (أيسر المسالك) للأدوزي المخطوط لديه، مع اعتكافنا على نَسْخِ شرح السيوطي المختصر على الألفية والتعليق عليه سواء على اللوح أو من خلال النسخة الخاصة بالطالب والمسمى ب (تنوير الحوالك شرح ألفية ابن مالك) والتي يجتهد الواحد منا في تلوينها بالألوان المعدة خصيصا منه لهذه المهمة، وخاصة الأحمر والأخضر والأسود، وذلك في دُوِّيٍ (جمع دواة) مستقلة خاصة بكل لون، يحرص الواحد منا على اقتنائها من السوق الأسبوعي (خميس آيت عميرة) القريب من المدرسة بما يقل عن ثمانية كلم وما يلزمها من حجر وصباغة وليقات من الصوف، ويقوم الطالب بإعادة إذابتها في فرح ونشاط زائدين، وكأنه كيميائي مبتدئ في هذه الصناعة!!.

ولكي لا نشعر بجفاف الدراسة لألفية ابن مالك بالاعتماد على خطوط اليد على اللوح أو في مختصر السيوطي، حرصنا على اقتناء شرحيها المختصرين والوسطيين من جهة، وما عليهما من تعليقات وتقرير مطبوع وهما: شرح المكودي[2] على الألفية، وهو شرح مطبوع مشهور بالمشرق والمغرب لسهولة عبارته وتقسماته وإعرابه، وكذلك

---

(1) توفي الابشيهي نحو 850 هـ وطبع المستطرف قديما في بولاق 1272 ومنها مطبعة محمد مصطفى 1350 هـ واليمنية 1308 وغيرها واختصره ايبورك السملالي في زبدة المستطرف مخطوط وغيره.

(2) أبو زيد عبد الرحمن المكودي الفاسي توفي (807هـ) نسبة إلى قبيلة بني مكُّود إحدى قبائل هوارة، ومستقرهم بين فاس وتازة، درس كتاب سيبويه بمدرسة العطارين، ثم شرح الألفية شرحا مبسطا مباركا، وفي قبيلة مكود نحفظ من الشعر قوله : نحن بنو مكود ... أهل التقى والجود ... نكر في الأعادي ... ككرة الأسود..

شرح ابن حمدون عليه، أو تعليقات ابن حمدون عليه على الأصح، وقد طبعت باكرا حاشية ابن حمدون[1] على شرح المكودي عدة مرات، وهي من أهم الحواشي توضيحا لمختصره، وكشفا عن رموزه وإشاراته، جمع فيها من الشروح الأخرى ما يلزم الشرح المذكور مع أبيات جامعة لقواعد وفوائد بقلم نحوي مغربي فاسي ومقرب للشروح الأخرى مخطوطة ومطبوعة، وكان انتقالنا من بياض ورق شرح السيوطي المختصر، وامتزاجه بالألوان السود والحمر والخضر! إلى صفرة شرح المكودي المعتادة في مؤلفات مصر والأزهر حتى لقبت قدحا (بالكتب الصفراء) إلى اللون الحجري الجديد الذي طبع به عمل ابن حمدون، راحة للعين والنفس في هذا الجو العطر المضيء بألوان الشمس نهارا في اخضرار حقول وبساتين وأشجار وَبَقُول هشتوكة وتينها الشوكي وأخيه الحلو، مضافا إليه صفاء القمر واصفرار ألوانه تحت سماء زرقاء، مما يعكس ألوان الطبيعة الفطرية والصناعية على عيون الطلاب، فتزداد التماعا وإشراقا وإقبالا على الدرس، وعلى فك رموز العبارات العلمية والتقارير الجافة، بأقلام مغاربة ومشارقة تعمدوا أساليب الاختصار والاعتصار، ثم الشرح والتهميش، تقريبا لعلوم طال العهد بها، فتعرضت لهذا الصنيع عبر العصور.

---

[1] تسمى حاشية ابن حمدون على شرح المكودي، وابن حمدون من عائلة فاسية شهيرة بابن الحاج، واسمه أحمد بن محمد بن حمدون ابن الحاج الفاسي توفي سنة 1039 هـ.

ومن متن ابن عاشر في الفقه المالكي والاعتقاد والتصوف إلى رسالة ابن أبي زيد القيرواني في الاعتقاد والفقه والأدب والجامعة للسلوك إلى أصعب متن وأجمعه للشيخ خليل وما عليه من شروح

وهكذا في الفقه أيضا، اعتاد أهل سوس التدرج من متن ابن عاشر، وقد كنا بالعوينة نحفظ منه أبياتا استطعنا أن نحيط بشرحها وزيادة خلال هذه الفترة من سنتي 1954- 1955 وأضفنا إليها بسرعة، شرح الرسالة وقفزنا من ذلك إلى أصعب متن مأمول لدى الطالب في (ركوب عبارة الشيخ خليل الجندي) وخاصة مقدمته في المصطلح، ونحن نرددها صباح مساء على اللوح، وقد امتلكنا منه نسخة في زيارة إلى مكتبة (سي بوجمعة الرسموكي) وإلى بعض مواسم المنطقة، وخاصة موسم (سيدي بيبي) القريب من المدرسة، وبه مدرسة مهملة سكنا بعض غرفها وبتنا بها على ما فيها من آثار الإهمال، ونحن نرتل مع طلاب من مختلف مدارس هشتوكة أحزابا من الذكر الحكيم، مضافا إليها متونا في العلوم، كما لم نغفل في شرح هذه المتون وإعادة شرحها الطلاب الشادين السابقين في الدراسة، وخاصة الأكثر بروزا منهم في الجدية والاستقامة، وهكذا أخذنا على مجموعة من الأفاريد غير من تقدم، وفي مقدمتهم:

(سي محمد گُو يفْرِيَانْ[1]) وكان هذا الفتى القوي النية الدمث الأخلاق المبتسم دائما والجاد في إعادة لوحه جهارا في غرفته العلوية! مزارا للطلبة المبتدئين في العلوم.

---

[1] قرية بهشتوكة الجنوبية على يسار القادم إلى تِينْمَنْصُورْ من تزنيت ينتمي الدوار الى مشيخة آيت بكو وتضم 14 دوارا وعدد السكان 852 نسمة حسب احصاء 004 .

وهكذا قصدته شخصيا لشرح بعض المتون الأدبية واللغوية وخاصة (لامية الشنفري) الغريبة اللغة والمعنى، وفي مقدمتها ما يشعر الطالب بهذا النحو من الحزونة! وبقصد التضلع من المعجم العربي السابق على الفصحى:

أقيموا بنــي أمي صـــدور مطيكم فـإني إلى قوم سواكم لأميـل

إلى أن يقول:

ولي دونكم أهلون سيـــد عملس وأرقـط زهلول وعرفاء جيـأل

هم الأهل[1] لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بِما جر يخذل

وسيكون زادي من هذه اللامية عاملا مساعدا على اقتحام ميدان الشعر والنثر ومحاولة تقليد القدماء في ذلك من أثر هذه الثقافة السوسية الإلغية الشيشاوية الممتدة إلى أجواء مراكش، وخاصة مدرسة الفقيه المختار وزاويته الدرقاوية بحي الرميلة بِبَابِ دكالة أمام مسجدها بالضبط.

وهذه لامية العرب بخطي معلقا عليها. (انظر الملحق آخر الكتاب)

أما لامية ابن الوردي: فقد جاءت بعد ذلك سهلة الحفظ والشرح، وكنا نفخر باستيعابها في زمن يسير وفيها يقول:

اعتـزل ذكـر الأغـانـي والغــزل وقل الفصل وجانب من هـزل

ودع الذكــرى لأيـــام الصبـــا فـلأيـأم الصبـا نَـجْـمٌ أفـل

---

[1] وفي شرح لامية العجم (هم الرهط) شرح أبي فيد مؤرج ابن عامر السدوسي.

وفيها أيضا :

لا تـقـل أصلـي وفصلي أبـدا　　　إنما أصل الفتى ما قد حصل

إلى آخر أبياتها التي تجري في تسلسل من النصائح الواضحة اللفظ والمعنى والباعث حفظها على تمام الفتوة والتطلع إلى أن يصبح المبتدئ منا طالبا إفريدا مكتمل الشخصية، تام الفتوة، معتمدا على النفس وباحثا عن المعاني، ومتطلعا إلى مزيد من التحصيل في مختلف العلوم والفهوم والإنتاج.

أما (لامية العجم) فكانت تذكرنا بأختها (لامية العرب للشنفرى) وقد استطعنا أن ندلف إلى أبياتها بسهولة مع بعض الشادين من الطلاب من غير من تقدم وخاصة:

أمثال الطالب المتقدم في العمر الملقب ب سي محمد العتابي[1] والذي كان عاكفا على لوحه قانعا بالقليل لا يكاد يسمع له حس، وإنما يقبع في الظل ! ومع ذلك كنا نطلب منه أن يتفضل ببعض الشروح لمثل هذا القصيد السهل الألفاظ المليئ بالأماني والآمال، والباعث على الأسفار والتنقلات طلبا للمعالي، وفي هذه اللامية مثل قوله:

أصالة الرأي صانتني عـن الخَطَـلِ　　　وحِليـة الفضـل زانتـــني لدى العَـــطَل

مجـدي أخـيرا ومجـدي أولا شَرَعٌ　　　والشمس رَأْدَ الضحى كالشـمس في الطفـل

ومنها البيت المشهور على الألسنة:

أعـلــل النفــس بالآمــال أرقبهــا　　　ما أضيق العـيش لولا فسـحة الأمـل

---

[1] لاشتهار هاتين اللاميتين بين الأدباء، وأقدمهما زمانا وسموا الأولى لامية العرب للشنفري وخصصوا لامية الطغرائي ب (لامية العجم) وهو المتوفى سنة 515 من أصبهان وقد حاكي بها لامية العرب وعملها ببغداد.

وقد حاول الطغرائي اقتباس صور من العصر الجاهلي وألفاظ يقلد بها لامية الشنفرى في مثل قوله:

لا أكره الطعنة النجلاء قد شفعت   برشقة من نبال الأعين النجل
ولا أهاب صفاح البيض تسعدني   باللمح من صفحات البيض في الكلل[1]

استغلال المناسبات للتحرر من المقررات

كان للفقيه، وهو ربيب المدرسة الإدبية الإلغية السليمانية، نزعة إلى إطلاق المبادرات من قبل الطلاب ليجربوا حظوظهم في اختيار بعض القصائد الشهيرة في المناسبات (عواشر ربيع الأول وغيره) فكان يترك للطلاب شهر ربيع الأول حرية التفرغ للأدب النبوي، وخاصة القصائد الثلاث الخوالد: لامية (كعب بن زهير) وفيها من الغنى الصوري والمجازي واللفظي، ومن الروح العربية الأبية المقبلة على الخطر بعد أن أهدر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) دم صاحبها مع استسلامه في الأخير لحضرة الرسول وصحابته المهاجرين، ما جعلها ملء السمع والبصر خالدة تالدة إلى اليوم وأولها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذا رحلوا   إلا أغن غضيض الطرف مكحول

إلى أن يقول:

إن الرسول لسيف يستضاء به   مهند من سيوف الله مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم   ببطن مكة لَمَّا أسلموا زُولُوا

---

(1) الكلل جمع كلة وهي مقصورة الحسناوات البيض الألون، كما ورد هذا البيت في الكشكول وغيره كالتالي:
(ولا أهاب صفاح البيض تسعدني ... باللمح من خلل الأستار والكلل).

وفيها من الغريب والتعقيد اللفظي والمعنوي مثل قوله:

حَرْفٌ أبوها أخوها من مُهَجَّنة   وعمُّها خالها قوداءُ شِمْليل

فكانت ميدانا لنا نخب فيه مع الشداة من أفاريد الطلاب ننتقل تارة باللوح من إفريد إلى آخر، إلى أن نأتي عليها فرحين بما تحصل لنا من الصور والألفاظ والتراكيب وما أشربناه من الأبحر والموازين.

أما (البردة) فكنا بالإضافة إلى ما تقرر عندنا بسوس من تقسيمها إنشادا على الأسبوع إثر قراءة الحزب نعكف على شرحها، وفيها من التشبيهات والصور السامية وبعض الخفاء! ما يجعلنا نستعظم صنيع صاحبها رغم هذا العكوف اليومي على الأنصبة المقسومة على الأسبوع عليها أداء لبعض حقوق الرسول (صلى الله عليه وسلم) طيلة السنة، وخاصة خلال شهر ربيع الأول. وهي ذوات خواص وبركات بسبب توجه صاحبها إلى الاستشفاء بها عندما فلج فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح على مكان الفالج فانطلق من عقاله.

ولا نثني العنان دون أن نركب من الأبحر البحر الخفيف، أثناء شرح (همزية البوصيري) الشهيرة في سيرته عليه الصلاة والسلام، وهي نظيرة البردة، وأختها في المعاني، وإن كانت أخف لفظا وبحرا ووقعا وأجلى معنى، وأقرب إلى اتخاذها عند المناسبات الدينية وغيرها مطية للإنشاد لسهولة المركب إذا قورنت بهذه البرأة العجيبة الوضع المكتوفة البحر والقافية، والتي خرجت من بين آلام الفالج الذي أصيب به صاحبها فكانت مظهرا لهذا الجسد المتألم صاحبه، والطالب الراغب في الشفاء، ولا تزال كذلك إلى اليوم عند من وهب إحساسا خاصا بالأدب والنظم والصور والشبهات المكتومة بين ثنايا هذه التميمة المكتوبة بأنين الناظم، واضطراب أحواله، رحمه الله وفيها:

يا نفس ! لا تقنطي مـن زلـة عظمـت   إن الكبائر في الغـفران كاللمـم
لعـل رحمـة ربي حـين يقسـمها   تأتي على حسب العصيان في القسم

وفيها:

ما سامني الدهر ضيما واستجرت بـه   إلا ونلـت جـوارا منـه لـم يضـم
ولا التمست غنى الدارين مـن يـده   إلا استلمت الندى من خـير مسـتلم

وفيها البيت العجيب الخواص والشفاء:

كم أبرأت وصـبا بـاللمس راحتـه   وأطلقت أربـا من ربـقـة اللمـم

والبيت الذي يكتب على قباب الملوك وغيرهم وعلى قباب الصالحين والزوايا في المغرب والمشرق :

من يعتصم بك يا خير الورى شرفـا   فـالله حافظـه مـن كل منـتقم

كما شاهدت ذلك في رحلاتي إلى القاهرة وإلى مسجد محمد علي بالقلعة خاصة.

وكان رحمه الله مكتوف الجنب متألم الأعصاب، فكانت هذه التوسلية الكبرى بمعجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهوده وجهاده! سببا مباشرا في شفائه من هذا الوصب، فانطلق إلى الحج يخب ويضع في الطريق، وراحلته تهزه هزا وهو ينشد:

وعـدتني ازديـاره العـامَ وجنـا   ءُ ومنَّـت بوعـدها الـوجنـاء
أفـلا أنطـوي لهـا في اقتضائيـ   ـه لـِتـُطوى مـا بيننـا الأفـلاء
بألوفِ البطـحاء يُجفلهـا النّيـ   ـلُ وقـد شـفَّ جوفَهـا الإظمـاء
أنكرتْ مصـرَ فهي تَنفِـر مـا لا   حَ بِـنـاءٌ لعـينـها أو خَـلاَءٌ

إلى آخر رحلته السريعة الوقع المستعجل صاحبها للوصول، الخفيف الخطو والشعور والمتحرر من ربقة القيود، رحمه الله وجزاه عن هذه القصيدة المتحركة الوقع والبحر والخطو والدم والشعور آمين.

ومناسبات مآدب ومواسم للإنشاد والإنشاء

كان من منهج المدرسة الإلغية المتفرد في سوس إرثا من مدرسة (تنكرت) الإفرانية، ومن شاعريها الفحلين (سيدي الطاهر الإفراني) وابنه (محمد) أن شجع خريجوها الطلبة على هذا المنحى من تكلف القريض رغم العجمة السائدة في المنطقة آنذاك. وكان هذا المنحى الأدبي يحفز عندهم بوسائل منها: تخصيص حصص لسرد الكتب الأدبية بواسطة مستمع واع ومعجم حاضر[1] أيام الأخمسة والجمع ولياليهما، إلى أن يصل بذلك الطلاب إلى مستوى من استقامة الألسنة والعبارة، ما يؤهلهم للإقبال بعد ذلك على تكلف القول وتدبيج الكلام والنظم، وتقدم لغوي سابق في أول الأمر من سرد كتاب (المستطرف) للأبشيهي مع سيدي (عبد الله المؤذن) كما تقدم، وقد أضفت إليه الكتاب الأكبر حجما والأوسع معارف في باب الحيوان، وما يدور حوله والمسمى بِ (حياة الحيوان) للدميري، المطبوع مرات دون تحقيق كبير.

وقد يجرؤ بعض الطلاب على استعارة كتاب (نفح الطيب) للمقري، و(نسيم الرياض في شرح شفاء عياض) وكنتُ أَعْكُفُ على كتاب (نور اليقين) في السيرة النبوية بمناسبة المولد النبوي الشريف، فكان لي بذلك وبصحبة المعجم لحل الألفاظ

---

[1] هو مختار الصحاح لزين الدين محمد بن أبي بكر الرازي. اختصره من تاج اللغة وصحاح العربية. وطبع مرارا. توفي 660 هـ .

وخاصة معجمي والمصباح[1] والقاموس[2] ما جعلني ذا استعداد لاقتحام الكتابة وخاصة الرسائل المحتاج إليها باستمرار التماسا لعطاء أو اقتراح أو تزويد بمواد معينة، يضاف إليها تعمد الفقيه لاستعمال الدفاتر الخاصة بكل طالب يحرر له فيها أول الأمر وفيها قصائد على لسانه لحفظها ثم إنشادها في مناسبات تعقد لذلك، فإذا تكرر الأمر طمح الطالب إلى أن يخلو إلى مخزونه ليصنع أبياتا بالمناسبة يعرضها على الأستاذ العتيق للتصحيح والإضافة ومراقبة الوزن والتفعلة، وكان المنهج الدراسي يهتم بالأبحر وعلم العروض ليساعد ذلك على استقامة النظم، فإذا جاءت المناسبة أمر الأستاذ المستعدين من الطلاب هيئة وشكلا وتحريراً! بإلقاء قصائدهم التي تكون قد مرت من مراحل الإعداد والتصحيح والتحرير بالاشتراك بينه وبين الفقيه العتيق، على أن ينسبها بعد ذلك إلى صنيعه الشخصي، ويحتفظ بها بعد الإلقاء في دفتره الخاص.

---

(1) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأحمد بن محمد الفيومي، ت 770 هـ.

(2) القاموس المحيط، للفيروز بادي مجد الدين محمد بن عمر ت 817 هـ مختصرا من مطولات اللغة قبله مع استعمال الرموز أول مرة خوف الإطالة، وكان العلماء المغاربة يحرصون على السفر به للفصل عند الاختلاف وقد يشترطون للمبيت أن يكون عند صاحب البيت هذا المعجم.

الفقيه يتخذ موسم الحصاد مناسبة لاستضافة الطلبة في بيته فطورا وعشاء وللإنصات للراديو لأول مرة

ومن المناسبات التي لا تنسى استغلال الفقيه مناسبة موسم الحصاد للاستعانة بالطلاب في ذلك بعد أن يكون ما قامت به القبيلة من الحرث الخاص به، قد نضج واستحصد، فكنا نستعد للإقبال على هذاالعمل الذي يعقبه استضافة الفقيه لنا في ضيعته العصرية المظهر، بما تضمنته من محرك لاستخراج الماء والكهرباء، ولسقي الأشجار المثمرة والخضر الطرية وكنا نلج هذه الضيعة فنجد أنفسنا أمام صالون كبير مفروش بالمضارب والحشايا والمخدات ومجهز بالوسائل اللازمة للضيافة، مما كان الفقيه قد أعده للضيوف وللعائلة الخليفية عند قدومها إليه بسبب المصاهرة.

وكان (الخليفة) على جانب من الحضارة وله دار واسعة ومسورة بسور كبير ومزدانة من الداخل بالحقول والنبات والشجر والزهور تسمى دار (الخليفة) بتيزنيت وهو آنذلك قائد كبير[1] على (أهل أگلو) وأخ شقيق للفقيه العلامة محمد المختار السوسي رحمهما الله ، وكان الشيخ (والد الزميل الحسن وجاج) قد خدم القائد كما يخدم أمثاله القواد في السخرة ومواكبتهم في الطريق ونقل أماناتهم وكان هذا القائد الخليفة يبعث معه إلى تيزنيت صندوقة مليئة بالحليب ومغلقة لا يفتحها إلا أهله ثم يرجعون الصندوقة مقفلة دون أن تمس بسوء.

---

(1) هو محمد الحبيب بن الشيخ علي الدرقاوي، وسبقه عمه (القائد محمد أبودرار) خليفة له! فاستقر بالدار التي بناها (القائد محمد أبوهوش) الشهير، بينما استقر محمد الحبيب بتزنيت، وحضوره دائم مع ذلك، وكان الحبيب متصلا بالقبيلة أكثر ومشرفا على مشاريع فلاحية، وجلب أول مطحنة للحبوب إلى المنطقة، ثم بعد الاستقلال الحق بالأوقاف إلى حين وفاته.

الراديو يتوسط نافذة من نوافذ صالون الفقيه الحديث الوضع

وزاد في توعية الطلاب، ونقل أفكارهم إلى مستوى تتبع أخبار الوطن والوعي بما يقع من أحداث الفداء، وتعرض المتعاونيين للتصفية مع فرنسا! ما يتعمده الفقيه من إسماعنا من نشرات الأخبار الليلية سرا ومن طنجة خاصة، طالبا منا شديد الحذر من إفشاء أسرار هذه الجلسات التي صادفت إحدى الرمضانات من سنتي 1954 - 1955، وزاد من إكرام الطلاب والإنعام عليهم ما أعده الفقيه لهم من التمور والحساء قبل العشاء وطعام العشاء على عادة المغاربة في شهر رمضان: حيث يقدم في سوس حساء الذرة مصحوبا بالتمور في إناء كبير يشبه القصعة! يتناول منه الجميع بالملاعق الخشبية، وقد أضيف إلى حساء الذرة بعض التوابل، وإدام زيت الهرجان (زيت أَرْكَانْ) القوي النكهة، وبعض مسحوق الفلفل الأحمر ليتحول لون الحساء إلى شكل مغر بالمزيد.

وكان من حسن الصدف أيضا أن ازدهرت الطبيعة العام فأنتج النحل المحمي بالصبار والشوك والقريب من باب المدرسة هذا العام بكميات كبيرة من الأقراص المائلة إلى اللون الأرجواني المميز، وقد كان خاصة خبراء الطلبة بإشراف الفقيه، يتولون هذه الأجباح، مستعملين الدخان والموسى والأواني الخاصة بوضع الأقراص في شكل مريح ريثما تنقل إلى بيت الفقيه ليتولى اعتصارها واستخراج عسلها اللذيذ! وكانت رائحة هذا العسل الممزوجة برائحة الدخان تعطر آناف الطلاب فينشطون وينبعثون للحركة حول قفيز النحل (تادارت) متظاهرين بجلب الماء من البئر القريبة من هذا المكان، ناظرين بمؤخر عيونهم إلى بوادر المنتوج السنوي الواعد بالعطاء والاختزان بعد العصر والقطع، وهكذا اجتمع في عشاء الطبلة طيلة ليالي رمضان، مذاق المرق باللحم أو الدجاج مع مذاق العسل الحديث الجنى وإلى جانبه أوان من

السمن الواسعة الثقيلة الإمتلاء والمزخرفة بألوان قوس قزح وتسمى عند اهل سوس (تِمْكِيلْتْ أُوُّدِي دْ تَمّْنْتْ) أو (تسلطانت) تعظيما لها! وتحتوي على نسبة كبيرة من العسل تغطيه نسبة قليلة من السمن الحلو الشبيه بحبات الكسكس، يتناول منها الضيوف بروية مع تقليل اللقم ولزوم الأدب.

فإذا اختلفت الفصول، كان من نصيب الطلاب جفنات من الكسكس المعد من حبات الشعير، ومعه شيء من الخضر تكلله، وقد دفنت قطع من اللحم الغنمي غالبا تحتها، وتتخلل أصابع الطلاب وهم يقتحمون هذه الجفنات، إدَامَاتٌ من الزيت أو (الهرجان) تزيد الكسكس لذة، وتجعله سائغا وتضفي عليه نكهة خاصة لا تنسى. ومع هذا الكرم تأتي أقداح اللبن الفخارية في (حلاليب)[1] جديدة الصنع يصب منها لكل طالب في حفرة أعدها نصيبه من اللبن يخلطه بالكسكس خاصة، ثم يعمد إلى غرفه يجمع أصابعه حريصا على صبه كاملا في جوفه، وممرا لسانه على ما كان يقطر من ذلك، وعلى موضع أكله في احتياط وحذر شديد، قبل أن يتعرض لملاحظات بقية الطلاب المزدحمين حول القصعة في صورة تتيح لأكبر عدد الدخول بنصف ركبهم إلى أقرب نقطة من القصعة في حرص كبير على ألا يمسوا جارا بكتف أو ركبة أو قدم، وألا يصدروا من الأصوات عند الإزدراد ما يجعل من بعضهم أضحوكة الجميع، وحاصة قبل حضور اللبن وأثناء التقام الكسكس، وتعمد تكويره في وسط الراحة وإعداده في شكل متماسك للالتقام الكامل دون بواق وسواقط على المائدة والأرض!

وقد كنت تلقيت ملاحظة لاذعة من أحد أبناء فقهاء سوس والحوز حول هذه (السخرة)[2] التي يشغل فيها الفقهاء الطلاب للخدمة المجانية، وجمع المحاصيل،

---

[1] جمع جلاب. ب العامية المغربية المتفصحة من الجلب فيه أو من استعماله أداة لخزنه.

[2] نظام السخرة قديم عند الحكام ويكون قسريا وإجباريا وشاقا، واستمر في صور متعددة، وكاد ينقرض اليوم، وهو من بقايا عهود الرق، وأما (التويزة) فهو نظام قبلي تعاوني بعيد عن السخرة.

فامتعضت لهذا النكران للجميل، بعد أن ذكرت له حلاوة هذه الأيام والليالي التي نتخلص فيها من نظام الدراسة لنتحرر في الحقول والفضاء، ولنجني محصول العام لعلنا نسدي بذلك إلى الفقيه بعض ما يستحق منا من خدمة تعود خبرتها علينا في المستقبل بتجربة لا تقدر بثمن، ولتكسبنا فتوة لا تقل عن فتوة عامة عمال الحصاد، ونحن ننتف بأيدينا وراحتنا المحصول بعزم لا يلين! هذه السوق اليابسة من الزرع، ونقتلع أصولها من تربة رملية سهلة النزع بدلا من التربة السوسية الصلبة القاسية بالحجارة والصعبة المنزع[1]، وقد كنت أحب أن أساعد الوالد عند الحصاد رغم الشمس ويباس المنتوج ووعثاء الحقل وخطورة الأشواك ووجود الثعابين التي تبيت باحثة عن الفئران! وقد وجد الوالد مرة أفعى سامة ثخينة صغيرة الرأس مقطوعة الذنب فعمد إلى قتلها بالمنجل ونحن نشهد هذا المنظر المخيف لأول مرة!

أوليات الفقيه العتيق بمدارس سوس :

1) فتح خزانة المجلس للطلاب اطلاعا واستعارة وكانت مليئة بالجديد.

2) درس مادة الإنشاء لأول مرة بسوس مسجلا الموضوع ومستخرجا عناصره ومصححا للموضوعات وامرا بتقديم بعض الإنشاءات وقراءتها منوها.

3) درس التاريخ كتاريخ المغرب للجراري بمجرد ظهوره في المكتبات وكان كتاب الاستقصا نادرا في هذه القرى.

4) دراسة تاريخ الأدب العربي من كتاب الوسيط.

5) دراسة الأدب الجاهلي والمعلقات ولم يغفل عنه دراسة الأدب المغرب السوسي.

6) دراسة السيرة بكتاب نور اليقين للخضري.

---

[1] كان ذلك أثناء محاضرة لي حول الأشعرية بالمجلس العلمي المحلي لمراكش صيف عام 2007 .

7) دراسة اللاميات المشهورة ومقامات الحريري.

8) واستعمل السبورة والدفاتر الحديثة والالقاء بالعربية الفصحى حاثا الطلبة على التخاطب بها.

9) تغطية بعض المناسبات وقد حضر الأستاذ العبادي مناسبتين من ذلك، أولاهما : بمناسبة مولود للقاضي الحسن امبارك وأسهم بعض الطلبة فيها بكلمات وقصائد، والثانية : مناسبة بمنزل سعيد نايت ايدر والد الوطني محمد بن سعيد متحديا في ذلك مراقبة مسؤول المنطقة الفرنسي المستعمر.

10) أول من جلس بسوس على الكرسي للتدريس متحديا بذلك أمثال فقيه مدرسة أخريب القريبة من مدرسته رحم الله الجميع.

11) وأنكر عليه الفقيه محمد جيمي امتلاكه لجهاز الراديو معتبرا ذلك من البدع رغم إعجابه بشخصية الفقيه وكرمه وسماحته.

12) واستقدم الفقيه سيدي علي نايت بلا الدكالي لتدريس الطلاب علانية علم الجدول لاستكمال ثقافتهم العامة.

(راجع الروض الأنيق آنف الذكر)

انفتاح الفقيه على الأساتذة الزائرين: باقتراحهم مدرسين مؤقتين للطلاب أثناء إقامتهم لديه! وعلى الشعراء الثلاثة الكبار رواد الوعي والفتوة والنضال

يمثل سلوك المدرسة الأدبية واللغوية الإلغية الإفرانية نهجا متقدما في سوس في التعريب، وفنون القول بالعربية وفي مقدمتها القصيد، وكان الرائد في ذلك قبل غيره الشاعر المغربي الكبير أمير شعراء سوس والمغرب في عهده:

سيدي الطاهر بن محمد الإفراني[1]: كان الشاعر الفقيه سيدي الطاهر بن محمد حفيد المجاهد الكبير ممهد الطريق للدولة السعدية بسوس محمد بن إبراهيم التمنارتي وسيدي الطاهر هذا من نجباء خريجي المدرسة الإلغية دون نظير أو شبيه، بشهادة أستاذنا محمد المختار رحمه الله، فكان قلب مدرسة والده بتنكرت بِ (إِفرَانْ) سوس، وانكب على التدريس بها نحو عشرين سنة قبل وأثناء الحماية الفرنسية، فكان شاعر المقاومة والمشاركة فيها، وكان شيحنا سيدي محمد العتيق ممن أشرب هذا السلوك من شيخه المختار من نفس المدرسة ونفس التلمذة لهذا الشاعر الفقيه العلم، وكان شعره لحسن الحظ في مقدمة القصائد التي تقررت بمدرسة شيشاوة وخاصة داليته المؤثرة في مدح الجناب النبوي الشريف، وأولها:

بَـرِحَ الـخـفاء وصرَّح الوجْـدُ   وبـدا الذي مـا خلتـه يبْـدُ

ذُكـر الحـمى ونزيلُـه فـتـناثرت   درر الدمـوع وأضرم الوَقْـدُ

---

[1] الطاهر الإفراني ولد ب إفران سنة (1284 /1867) وانتقل إلى فاس للدراسة بعد ما درس بالمدرسة الإلغية، وعمل مدرسا ثم قاضيا بسوس وله مؤلفات وشعر وفتاوى وغيرها، وتوفي بسوس سنة 1374 / 1955.

وجرت صَبا أنفاسِـهم فـتمايَلت   أهـــل الهـــوى فـــكأنهم مُـــلْدُ
والمستهامُ وإن أبـان تـجلـــدا   أبـــدا يـــحن إذا جـــرى نَجْـــدُ
عـجبا لقلب لا يـذوب إذا شـدا   حـــادي الحـــمى ولـــو أنـــه صـــلد
وإذا أدار الـــمادحون الكـأس مـن   مـــدح النـــبي فقـــد بـــدا الســـعد
فمديح خير الخلق إن شَـفَّ الظمـا   جـــوفَ الْمَشُـــوق صَـــبَابَةً وِرْدُ
وإذا تنفـــس في التَّـدِيِّ نسـيمُه   هبـــت بِمَـــا لَـــمْ يَـــحكه الـــوَرد
فهـــو الحُـــلِيُّ لِأُذْنِ سَامِعِـــهِ وَفِي   لَـــــهَوَاتِه الحَلـــواءُ والشَّـــهْدُ
فَـالذكر قـد يُغنِي عـن اللُّقْيَـا إذا   طـــال النَّـــوَى وتقـــادَم العهـــد
فـــالقلبُ رُبَّتَمَّـا تَـــعلَّل بِـالْمُنَى   والطَّيـــفِ إِنْ أَودَى بـــه البعـــد
لَا سـيما والْمُصطـــفى أبـــداً لـــه   بِحُضـــور مجلـــس مدحـــه وعـــد
أَتُـــرى وَحَاشَـــا جُـودَه أَن ينثـــنِي   مُـــدَّاحُـــــــهُ وَسُـــؤَالُـــــــهُمْ رَدُّ
فـَهْوَ الكـريم وجـوده الممنـوح لا   يُخطـــي العُـــفَاةَ ببابـــه رِفْـــدُ
وهْو الذي مـن جـوده الدنيـا ومـا   فـــيها ولـــيس لفـــضله حـــد
وهْـــو الذي عـــم الوجـــود بـــأسره   مـــذ كان غيـــثُ نَـــوَاله العِـــدُّ
وهْو الذي من جاءه يـبغي النـدى   مـــنه فـــقد أورى له الزنـــد
سر الوجود وشَمس أفـلاك الهـدى   بَحـــر النـــدى والجـــوهر الفـــرد

كهف اللَّجا بـدرالدُّجى غـوث الرجـا　　مـا خـاب منـه لمـن رجـا قصـد

ياخير من أسـدى وأبلـغ مـن هـدى　　وأجَـلَّ مـن يُقـفى بـه الرشـد

يـا رحمـةً مَـنَّ الإله بِهـا علَى　　كلِّ الـورى فالشـكر والحمـد

هذا مقـام المسـتجير مـن الـردى　　مـن بعـد أن أودى بـه الجْهـد

يرجو الشفاعة منـك في الدنيـا وفي الأ　　خـرى إذا مـا ضَـمَّهُ اللحـد

فأغـثه يا أندى الـورى فعليـك قـد　　وقـف الرجـاءُ بـه فمـا يعـدو

فـهْوَ العُبَيْـدُ وأنـت مـولاه ومـن　　يرجـوه إلا السـيدَ العـبد

صـلى عليـك الإله مـا حنـت إلى　　مسـرى نـداك النُّجْـب والجُـرْد

وعلى صـحابتك الكـرام وكل مـن　　قـد شَفَّـهُ للقائـك الوجـد [1]

[1] صدر مؤخرا شرح لطيف لهذه القصيدة من تأليف محمد عبد الله موحتاين، الباحث في التراث السوسي وخاصة منطقة (حاحة) ورجالاتها وثقافتها.

ما سر هذه القصيدة وما علاقتها بالنفس وإثارتها لذكريات المدرسة الشيشاوية كلما أنشدت في مناسبة معينة؟

لم أكن أعلم يقينا بحقيقة سر هذه القصيدة الدَّالِية من البحر الكامل! إلا عندما تراءت إلى مسامعي صحبة الزميل الأستاذ عمر أزدادو رئيس المجلس العلمي للرحامنة، أبيات قديمة من شعر رجل غريب الخبر والمعشر عدت قصيدته من عيون الشعر العربي، وكان موضوعها الغزلي الصريح الفاتن العاري من الكتمان والتكتم! مما أودي بحياة قائلها في قصة تروى وتنسب إلى دولقة المنبجي (الحسين بن محمد) ولم يعرف له من الشعر سواها، وقد تنازع الشعراء نسبتها إليهم، وهم نحو أربعين! ثم غلب عليها كل من ابن الشيص والعلوي العباسيَّيْن، وذهب أبو العباس ثعلب إلى أنها لغيرهما! وهو دولقة آنف الذكر والمتوفى سنة (219 هـ/ 835 م) وهو شاعر عباسي.

وإنما تنازعها الشعراء لفرادتها في الوضع والحسن والصوغ وغرابة حال صاحبها حتى شاعت. وهي تمثل لونا من الشعر الغزلي المأساوي: حيث تنسب إلى أميرة ذات حسن وكمال آلت ألا تتزوج إلا ممن يقول فيها أجمل الشعر، فتنافس الشعراء على ذلك، فلم يفلح أحد منهم حتى انبعث هذا الشاعر النكرة دوقلة المنبجي! إلى إنشاء يتيمته هذه حاملا لها إلى هذه الحسناء (دَعْد)! ولكنه في الطريق قابل رجلا حسن المنطق ثقفا سأله عن قصته ومقصده، وطلب منه الأعرابي أن يسمعها منه مرة وثانية وثالثة، حتى تمكن من حفظها، فقام وقتل الشاعر، وذهب يقدم نفسه للأميرة، فلما أنشد القصيدة، وكانت دعد ذات ثقافة عالية وعلم بالشعر ومواطن العرب، تبين لها من لهجته الكذب، إذ ورد على لسانه قوله:

إن تُـتْهِمِي فَـتِـهَامَة وطني   أوتُنـجدي يكن الهوى نَجْدُ

لأن هذا المدعي ليست له علاقة بهذين المجالين، ثم اختبرته فطلبت منه إضافة بيت إلى القصيدة فعجز ولأن لهجته لم تكن لهجة تهامة وملامحه لا توحي بأنه من عشاق نجد المهمومين النحيفي الجسوم؛ فرشحه هذا الاغتيال إلى أن ينضم إلى (مقاتل الشعراء) حيث يذكر ضمن من قتل منهم، فأمرت حينئذ بقتله هذا المدعي أخذا بثأر صاحبها المقتول (غيلة)! فكان مقتله بين فكيه كما قيل:

ثم انتشرت القصيدة في الخافقين وأولها:

هل بِالطُّلُولِ لِسَائل رَدُّ	أم هل لَها بتكلم عهد
درس الجديد جديد معهدها	فكأنما هي ريطة[1] جَرْدُ [2]

وقد بقيت أصداء قصيدة الشاعر الكبير الطاهر الإفراني رحمه الله تتردد في ثنايا الذاكرة منذ حفظناها في سنوات (54 / 55 / 1959) بالمدرسة الشيشاوية، إلى أن جاءت مناسبة تكريم أحد نجباء مدرسة المختار رحمه الله بالرميلة، وهو الفقيه الشاعر القاضي، ورئيس المجلس البلدي لمراكش، محمد الدفالي،[3] وكنت ألقيت بهذه المناسبة بين يدي المكرمين قصيدة حول هذه الفترة من الدراسة بسوس وذكرياتها ومجريات الطلبة وعاداتهم ومحفوظاتهم وهي طويلة النفس سأدرجها فيما بعد لتضمنها شعر هذه الفترة من سنوات 54 _ 1956! فكان أن فاجأنا الفقيه الدفالي على مائدة العشاء! بخبر أن المختار رحمه الله كان يحث طلبته بمراكش على حفظ هذه اليتيمة

---

(1) الملاءة من قطعة واحدة.

(2) الجرد. القشر والإزالة.

(3) ندوة بمساهمة أبناء المرحوم المختار السوسي، والمجلس العلمي المحلي لمراكش، وتكريم المرحوم (وذكر إقامته بمراكش) خلال صيف 2014. وقد أصدر العلامة محمد الدفالي بحثه عن شيخه محمد المختار وعلاقته الخاصة به بإشراف الناشر المعروف أحمد متفكر بعد ذلك.

آنفة الذكر، ثم شرع يلقي علينا من ذاكرته أبياتا (بحضور السيد رئيس المجلس العلمي المحلي لمراكش الأستاذ العلامة سيدي محمد عز الدين المعيار الإدريسي) وأبى بعض من حضر إلا إخراج هاتفه النقال للتسجيل، فانتبهت إلى عدم لياقة هذا الأمر، والحالة أن الشيخ الفقيه المكرم في سنواته التسعين، فأظهرت الغضب الشديد لذلك حتى أخفى من حضر أجهزتهم! ونحن نسمع للمكرم يبدئ ويعيد في وصف هذه الدعد" في قصيدة يحفظها، ولا يزال عن ظهر قلب.

وكان الفقيه المختار يحب أن يوقفه وسط الطلاب لينشدها! وهم يعجبون من هذه الجرأة في وصف محاسن هذه الأميرة الداخلية، مما دل على شيء من تحرر المجتمع العباسي في نقل وسماع مثل هذه الصور الناطقة التي تكاد ترقص السامعين، وتجعلهم في حالة من الطرب غير عادية، وهم كأنهم يرون من هذه الأميرة أدق تفاصيل مكامن جمالها الباطني العجيب، أو الجمال الظاهري الدال على أن الشاعر ذو اقتدار على الصور البيانية والتشبيهات البليغة المصيبة.

لَهــفِي على دَعَــدٍ ومــا خُلقــت ... إلَّا بِحَــــرِّ تَــلَهُّــــفِّي دعــــد
بيــضاء قــد لـبس الأديـمُ أديـمَ ... الحُسْـــنِ فَـهُـــو لِجلدهـــا جــلد
ويَــزِين فـوديـــها إذا حســـرت ... ضـــافي الغـــدائر فـــاحمٌ جعــد
فـالـــوجه مثـل الصـبح مبـيَضٌّ ... والشـعـــر مـــثل الليـل مُسـود
ضـــدان لَمَّـا اسـتجمعا حسُـنا ... والضــد يظهــر حسنـــه الضــد
وجبـينـــها صَــلْتٌ وحاجبهـــا ... شَخْــــط الْـــمَخَط أزجُّ مُمتــد
وكـأنّـــها وسنـــى إذا نظـــرت ... أو مدنـــف لمَّـــا يُـفِـــقُ بـعـــد
بفـتـــور عـــين مــا بِهـا رمـــد ... وبِـــها تُــدَاوى الأعـين الـرُّمْـــد

وتريــــك عِــرنـيـنـــا بــه شَــمَمٌ   أقـنــــــى وَخَـــــداً لـونـــــه ورد
وتُجـــيل مســـواكَ الأراك عــــلى   رَتــَـلٍ[1] كــأن رُضَــابهُ الشــهد
والجْــيد منهـا جيـد جازئــة [2]   تَعـطــو[3] إذا مــا طالهــا الْمَــرْدُ
والصــدر مـــنها قـــد يزَيِّنُــــه   نـهـــد كـَحُـــقّ العــاج إذ يبــد
ولَـهـــا بـنـــــان لـــو أردت له   عَـقـداً بكـفـك أمكـن العقـد
والْمِعـــصمان فمــا يُـــرى لَهُــا   مـــن نَعْمــة وبـضــــاضة زنـــــد
وكـأنَّـــما سُقِـــيت تـرائبــــها   والنحـــرُ مــاءَ الْحُـــسن إذ تبــد
وامــتـــد مــن أعضــادها قصــب   فَـعْـــمٌ[4] تـلـتــه مرافــق دُرد[5]
والبطــن مـطـــوي كمــا طويــت   بيض الــرِّيــاط[6] يصـونها الْــمَلْد[7]
وبِخْــــصرها هَـيَـــفٌ يـــزينه   فـــإذا تـنـــوء يكــاد ينـقَـــدُّ
والتـــف فَـخْــــداها وفوقهمـــا   كَـــفَلٌ كـدِعــْص الليـل مشـتد
فـنـهـــوضها مثـــنى إذا نهضــت   مـــن ثقلـــــه وقعـــودها فـــــرد
والســـاق خَـرْعَـــبة[8] منـعّـــمة   عبـــلت فـــطَوقُ الْحَجْـل مُنْسَـد

---

(1) الرتل: المتتابع.

(2) جازئة: من النخل التي استغنت عن السقي، ج جواز ولكن المعنى لا يظهر إلا إذا فسرت الجازئة بالغزالة التي تتناول أغصان الشجرة فتمد عنقها مدا مبالغا فيه وقد أصبح الغصن خاليا من الورق فهي تتقصى بقاياه (فتأمل).

(3) تتناول.

(4) مليء شحما ولحما.

(5) الساقطة النتوءات والمغطاة لحما وشحما.

(6) الرياط الملاءات كلها نسج واحد وقطعة واحدة.

(7) الطراوة فلا تظهر انكماشاتها.

(8) طويلة.

والكعـــــب أَردمُ لا يـَبـــــين له		حجـــــمٌ ولـــيس لرأســـه حـــد
ومشـــت على قـــدمين خُـصَّـــرَتا		وألينـتـــــا فـتـــكامل الـقـــــد
إن لَـم يكـــن وصـــل لديـكِ لنـــا		يشفي الصـبابة فـلـــيكن وعـــد
قـــد كان أورقَ وصـلكم زمنـا		فـــذوى الـــوصالُ وأورق الصـد
لِلهِ أشواقــــــــي إذا نـــــــزحت		دار بنــا ونـُوىً بكـم تـعـــدو
إن تُـــتهمي فـتِـهَـــامة وطنـــــي		أو تُنجدي يكـن الْهـوى نـجــد
وزعـــمتِ أنـك تـــضمرين لنـا		ودا فـهـــــلا ينـفـــع الــــود
وإذا الْمحـب شـكا الصـدود فلَـم		يُعْطَـف عليـه فـقـتلـــه عمـد
نَـخــــتصُّها بــــالود وهي عـــــلى		مـا لا نـحــب فـهكــذا الوجـد
أو مـــا تـــرى طِمـــريَّ بيـــنهما		رجـــل أَلَـــحَّ بـهـــزله الْجِــــد
فالسـيف يقـــطع وهْـوَ ذو صـدإ		والنصل يعـــلو الْهـام لا الغِـمــد
هـــل تـنــــفعنَّ السـيف حِلْيتــه		يـــوم الْـجـــلاد إذا نـــبا الْحـد
ولقـــد علِمــت بأنَّـنِـــي رجـــل		في الصالِـــحات أروح أو أغـــدو
سِــــــلمْ على الأدنى ومرحمـــــة		وعلى الْحــــوادث مـــارن جـــلد
مَنَـــعَ المَطـــامعَ أن تُـثـلِّمنـــــي		أنِّـــي لِمِعـــولِهَا صـــفًا صلـــد
فـأظـــل حـــرا مـــن مـــذلتها		والْحُـر حـين يـطـيعـهــا عـــبد
آليـــت أمـــدح مُقْرَفـــا[1] أبـــدا		يـبـــقى الْمـديح ويـذهب الرفـــد
هيهـــات يـــأبى ذاك لي سلــــف		خمـدوا ولَـم يَـــخمد لَهـم مَــجد

---

(1) المقرف: الكريه المنفر البشع، أي لا أمدح من وصفه هكذا.

والْــجـــد كنــدة والبنـــون هُــمُ   فــزكـــا البـــنون وأنْـــجب الجـد
ولـــئن قـــفوت جميـــل فعلهـــم   بــذمـــيم فـــعلى إنـــنـــي وغـــد
أجْـــمل إذا طالبـــت في طلـــب   فالـجـِد يـغـــني عنـك لا الجْـد
وإذا صـــبرت لِـــجهد نـــازلة   فـكـــأنه مـــا مسـك الْـجـــهد
وطـــريدِ ليـــل قـــاده سغـــب   وهْـــناً إِلَـــيَّ وسـاقـــه بَـــرْدُ
أوسـعت جهـد بشاشـة وقـــرىً   وعـــلى الكـــريم لـــضيفه الجْهـد
فـــتصَّرم الْمـشـتـــى ومـــنزله   رحـــب لـــديَّ وعـــيشه رغـد
ثُـــم اغـتـــدى ورداؤه نـــعَمٌ   أسْـأَرتُـــها وردائـــي الْحـــمد
ليكـــن لديـكِ لسائـــل فـــرج   إن لَـم يـــكن فـــليحسن الـــرد
يـاليـــت شـعري بـــعد ذلكـم   ومـصـيـــرُ كل مـــتؤمل لحَـــد
أَصَـرِيـــعُ كَلْـمٍ أمْ صَرِيـعُ ضَـــنىً   أودى فـليس مـن الـردى بـــد[1]

انتهت مع تصرف اقتضته ظروف مراعاة القراء خوف الإحراج من ذكر بعض خبايا هذه الموصوفة فلتراجع في أصولها وخاصة لدارسي الشعر العربي في الغزل والتشبيب المقارن.

(1) من غريب الصدف أنه في تكريم شيخي سيدي محمد المختار في ندوة مشتركة بين جمعيات مراكشية، ونجل الفقيه رضى الله، والمجلس العلمي، بحضور أحد تلامذة المختار النجباء محمد الدفالي، أنني ذكرت له هذه القصيدة، فانطلق ينشد منها، وأنا أواكبه، وهو يعجب من حفظي لهذه اليتيمة التي قل من يحفظها كما تقدم.

وثاني مشاهير نجباء العصر الذين انتخبهم العتيق لنا للتأدب والفتوة والإنشاء شاعر العراق

هو (معروف الرصافي) الذي لا يزال صداه يتردد في أصداء العالم العربي والإفريقي والمغربي بعد وفاته سنة 1945 شاعر الثورة والفتوة والشباب والنضال في عصره منتقلا بين الأقطار العربية والإسلامية في عدة مهمات سياسية وأدبية وتعليمية، مصْلتا قلمه الشعري والنثري لتعرية مكامن التخلف الحضاري في جسم العرب وخاصة الجهل والفقر والقدرية العمياء، والاتكاء على أمجاد السلف والعظامية، داعيا الناشئة والشباب إلى العصامية الحقة في قصيدته التي أمليت علينا لحفظها والتغني بها وإنشادها في المناسبات، وتزويد الوجدان والفكر بمعانيها من البحر الوافر الممتد الأنفاس والإشارات والإنشاد إلى الأمام:

عهدتُّكَ شاعرَ العرب الْمُجيدا ... فمالك لا تطارحنا النشيدا
فنحن إليك بالأسماع نُصغي ... فهل أن تفيد فنستفيدا
بِشعر لا تزال تنوط منه ... بِجيد قلائد الدنيا عقودا
إذا أنشدته الْحسناء تاهت ... كأنْ أهديتها دُرّاً فريدا[1]
وأنت إذا قرعت به عبيدًا ... رددت إلى الحرار[2] بِها عبيدا
ولو تستنهض الْجنباء يوما ... به لتقحَّموا الْهيجا أسودا
ولو كررته للقوم ألفا ... لأقسم سامعوه بأن تعيدا

---

[1] الرواية: قلدتها درا فريدا.

[2] لعله جمع حر على أحرار وحرار وقد يكون جمع حرة بفتح الحاء وهو غير متضح.

وكـــم تـهـتـــز أعطـاف المعـالي إذا مـــا قـــلت قـافـيـــة شـــرودا
فلـــو أنشـدتنا في الفخـر شـعرا تـذكـرنـا بـه العهـد البعـيـدا
تــذكرنا الأوائـل كيــف ســادوا وكيف تـبـوؤا الشـرف الْـمـديـدا

****** ****** ****** *****

فـقلــت له وقـد أبـدى ارتياحـا إلـيَّ إذ أرتَـجـلـت له القـصيدا
أجَــلْ إن القبائــل مــن مـعـــد علـَوا فـتسنـمـوا الْمجـد الْمجيـدا
وإن لِهاشـــم في الدهـــر مَجـــدا بـنـاه لَـهـا الـذي هَشَـم الثـريدا
ومـــذ قـــام ابـن عبـد الله فـيهم أقـام لـكـل مـكرمـة عـمـودا
وأنْـهـــضَهم إلى شرف المعـــالي وكـانوا عنــه قـبـلـئـذ قـعودا
فـــأصبح واريـــا زَنـْـد الْمعــالي وقـبـلا كـان مَـقـْدَحُـه صَـلُودا
فــهم فـــتحوا البــلاد ودوخوهـا وقـادوا فِي مـعـاركـهـا الْجـنودا
وهـم كـانــوا أشـد النـاس بأسـا وأمـنـــع جانـبـــا وأعـم جـودا
وأرجحهــم لدى الْجُــلَّى حلومــا وأصلـبـهم لدى الغَمَــرات عـودا
ولكـــنْ أيـهـــا العربــي إنـــي أراك لغـيـر ما يُجـدي مُـــريدا

****** ****** ****** *****

أرى مستـقبــــل الأيــــام أولَى بِـمـطمـح من يُـحاول أن يسـودا
فـــما بلـغ الْمقاصـدَ غـير سـاع يـــردد فِي غـــد نـظـرا سـديدا
فـوجِّـــه وجـه عزمـك نَحـو آت ولا تَـلـفِت إلى الْماضـين جيـدا
وهـــل إن كان حاضرُنـــا شقـــيا نـسود بـكـون مـاضـينا سـعيدا

تقـــدَّم أيـهــا العــربِي شـــوطا   فـإن أمـامـك الـعـيش الرغيـدا
وأسِّـــس فِي بنـــائك كل مَجـــد   طـريـف واتـرك الْمجـد التـليدا
فـشـــر العــاملين ذوو خمـــول   إذا فـاخرتـهم ذكــروا الْـــجدودا
وخيـــر النـاس ذو حسـب قـديم   أقـــام لنـفـــسه حسـبا جديـدا
تـــراه إذا ادعى في النـاس فخـرا   تُقـيم لــه مـكـارمـه الشهــودا
فـدعْـــنِي والفخـارَ بِمجـد قــوم   مضـى الزمن القــديم بِــهم حَــميدا
قـد ابتسمت وجـوه الدهـر بِيضـا   لَـــهم ورأيـنَـنــا فـــعبسن ســودا
وقـــد عَهِـدوا لنـا بـتراث مُـلـك   أضـعـنـــا فِي رعايـتـــه الـعهـــودا
وعـاشـــوا ســادة في كـــل أرض   وعـشـنــا في مواطـيـنـــنا عبيـدا
إذا مـــا الْـجـــهل خـيم في بــلاد   رأيـــت أسـودها مـسخـــت قــرودا[1]

لقد تحول الجزء الثاني من هذه القصيدة في الحديث عن المستقبل ونبذ الماضي، إلى نشيد نتعمد إلقاءه فرادى غالبا، ونحن لا نكاد نلم بعد بمادئ الإنشاد الجماعي لمثل هذه القصائد! فتحول إلى زاد لنا نستدخله مرات لإيقاد نار الفتوة والطموح إلى المستقبل المنتظر قريبا عند تحرر المغرب الجديد من الحماية لتولي مهمة الاستقلال في مختلف الميادين الإدارية والتربوية والعلمية، استبطانا لمثل هذه الصور التي بقيت أصداؤها في الجوانح والدم كله إلى اليوم، ونحن نلوح للجيل القديم في هذه المدارس، والمكب على المناهج الموروثة دون تغيير يذكر في الشكل والمضمون عند ما يبدي اعتراضا على المسلك الجديد!

---

[1] يركز الفقيه على هذه المقاطع المتأخرة نظرا لطول القصيدة.



أسماء بعض الزملاء بمناسبة التخييم على شاطئ أگلو وبمساعدة الحاج العمري على يساري جالسا وإبراهيم أبوعلامي على يميني والزميل في المدرسة العليا جوهري محمد الأستاذ والمنتخب اليوم.

ومن سوس وإفران وشاعرهما الطاهر الإفراني إلى فاس وشاعرها الزعيم علال الفاسي في باكورة شعره وهو لم يتجاوز سن المراهقة

نبغ الشاب المراهق (علال الفاسي) مبكرا من أسرة آل الفاسي أبي المحاسن المجاهد الصوفي الكبير، والشهيد في معركة وادي المخازن، بين البرتغال والمغرب، ورث نبوغ وذكاء وفتوة هذه الأسرة العالمة الصوفية المجاهدة عبر العصور، وقال الشعر وهو مراهق في طور أول الفتوة، وكانت قصيدته وباكورة شعره، وقودا للشباب وفتية التعليم بالمغرب قبيل الاستقلال، وقد أبى أستاذنا العتيق خريج مدرسة الرميلة الوطنية بمراكش والقرويين، والآخذ من كبار علمائهما مثل علال ورعيله في العلم والوطنية بواسطة محفوظاته عن شيخه خريج هذه الأوساط قبل استقراره بمراكش، وأثناء رجوعه من منفى (أَغْبَالُو نْ كَرْدُوسْ) والسماح له بالاستقرار بالدار البيضاء، وأنا بها تلميذا في كتاتيبها ومدارسها الحرة، وهو قريب من مقهى الوالد بدرب بلعالية، ومشتغل تحت المراقبة بإعداد اللحظات الحاسمة، والجيل الذي سيتولى المسؤوليات بعد خروج الاحتلال الفرنسي.

وهكذا وصل إلينا من شعر علال الوطني، والفتى الزعيم، ورئس حزب جديد للاستقلال، هذه القصيدة الباعثة على الاجتهاد والدالة على ما كان يشعر به هذا المراهق القرويني التكوين من حرقة على الأمة التي لا يجد فيها بعد ذلك الاستعداد للنضال بعد هزائم متكررة منذ المناضل الكبير والمجاهد الخطير (محمد بن عبد الكريم الخطابي) ومن سار على نهجه في النضال بعد ذلك دون نجاح كبير!! إذ يقول في مقطوعة

ستصبح دستورا للفتوة والعلم والنضال، منذ انتشارها ونشيدا ومادة تدرس ضمن النصوص الأدبية في سلك الباكلوريا بالمغرب:

أَبَعد مرور الْخمسَ عشرة ألعبُ ... وألْهو بلذات الحياة وأطرب
وَلِي نظرٌ عال ونفس أبية ... مَقَامٌ على هام المَجَرّة يطلب
وعندي آمال أريد بلوغها ... تَضيع إذا لاعبت دهري وتذهب
وَلِي أمة منكودة الْحظ لم تَجِد ... سبيلا إلى العيش الذي تتطلب
قضيت عليها زَهْرَ عمري تَحسُّرا ... فما لذ لي طعم ولا ساغ مشرب
ولا راق لي نوم وإن نمت ساعة ... فإني على جمر الغضا أتقلب
وصرت غريبا بين أهلي ومعشري ... ومن كان ذا فكرٍ كفكري يُغْرِب
تَحزَّب ضدي كل أهوجَ ظالمٌ ... ولو علموا أني الفتى ما تَحَزبوا
فعزمي عزم يُبْدِل الْماء جمرة ... وهل يُبْرد العزم القويَّ التحزب
وما ساءني في القوم إلا عقولُهم ... وظنهم أن الْمعاليَ توهب
(سيعرفني قومي إذا جَدَّ جِدُّهم) [1] ... كما عرفونِي اليوم إذ قمت أخطب

وكان من حسن حظوظ صهري الأستاذ المحاضر محمد الأدوزي أن كان طالبا لدى الزعيم علال قبل الاستقلال وتلقى منه بدار الحديث سنوات 1970 وما قبلها كما أشرف عليه في رسالته في موضوع فقه البخاري في تراجمه وقد حضرت مناقشتها سنة 1975 بعضوية أستاذتي الدكتورة عائشة عبد الرحمان والحسن الزهراوي وكانا قد اشتدا عليه في المناقشة فدافع عنه الأستاذ علال أحسن دفاع وأعطاه درجة حسنة وشكا إلي من ظلمهما له ولما سمع بموت أستاذه سيدي علال بكى بكاء مرا رحم الله الجميع.

---

[1] اقتباس من الشاعر الفحل أبي فراس الحمداني على قافية حرف الراء (أنظر ديوانه).

١٦

وثالث نجباء العلم والأدب والوطنية أستاذ الفقيه العتيق: محمد المختار (1900- 1963) في قصيدته الثورية التي سارت بذكرها الركبان وحفظناها زادا وقودا للفتوة قبل الاستقلال

أبى الفقيه العتيق إلا أن يختار لنا برنامجا للأدب والفتوة! ومن غرر القصائد قصيدة شيخه في الوطنية وهي من القصائد المناضلة الفياضة بمشاعر شباب المغرب آنذك، وقد أنشدها المختار لطلابه بمراكش، فألقوها بين يديه ضمن محفوظاتهم، وكذلك لما كان معنا (بشيشاوة سوس) فيما بعد! حتى أصبحت منابع ثقافتنا، ونحن بمراكش والرباط وفاس شبابا وكهولا.

وهي قصيدة من البحر الطويل لامية القافية كأنها من القصائد المعلقات القديمة الجاهلية النفس، وإن جاءت بلغة العصر، ولكن في قمة الفصاحة والصوغ رغم أمازيغية الشاعر النازعة إلى التفكير غير العربي، ولكنها نزعة نبغاء سوس وأمازيغ المغرب في التفوق في اللسانين الأمازيغي والعربي أضيف إليها ثقافة ابن يوسف والرباط وفاس في أجواء ولادة بكل جديد قد انتشرت إلى طنجة ووجدة وآسفي والدار البيضاء بعد ذلك، فكان لها أعلامها الشعراء القوالون المفاخرون، المحمسون للشعب كله بمثل هذه الأبيات، وبمثابة السياط للنفس والشعب والنخب الوطنية والعربية والأمازيغية من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب إذ يقول:

وحتـى متى شعبـي يعبِّـده الجهـل   كأنْ لم يكن قطبَ السيادة مـن قبـلُ
كان لم يكن يوما مديرا لتكلـم المما   لـــك يَحـمي مـــا يشــاء ويَحتــل
كـأن لم يكن بـين الشـعوب مُحكمـا   إذا قال يحني الرأس مـن رأسُـه يعـل

أَجَــلْ! إنــنـــا كنــا وكنــا هكـــذا　　　يقول لسان العلم مَنْ قَـوْلُه القـول
ولكن إذا ألقـيـت يومـك نظـرة　　　فكم لوعةَ تذكو وكم زفـرة تعلـو
لتَسْـقُطْ على الأرض السـموات ولتقـم　　　قـيامة شـعبي فــالهلاك ولا الجهـل
لـقد ضاق بالشعب الجهـول خَناقُـه　　　وقـَدْ سَا مُحُيَّاهُ وقد طفح الكيـل ؟!؟!

هذا وكنا نردد معها هذه المقطوعة التي تذكرنا بقصيدة حافظ إبراهيم حول اللغة العربية من البحر الطويل، وهي تافية القافية، فجاءت هذه القصيدة المختارية إلينا بواسطة (سيدي محمد العتيق) تنحو نحوها في النفس والبحر والنظم والتطلع بقلب محترق إلى مستقبل لا يريد المغاربة أثناء إقامة المختار بفاس والقرويين أن يستيقظوا لرؤية آفاقه المليئة بالوعود في التحرر من الاستعمار، وتولي المسؤولية، إذ يقول فيما كنا ننشده ونحفظه ونلقيه في المناسبات مفاخرين ومنددين:

بـــأي خطــاب أم بــأي عظــات　　　أوجِّــه وجـه الشـعب نَحـو لغـاتي
بـــأي فعـــال أم بأيـــة حكمـــة　　　أنـَشِّـــرها مِــنْ أعـــظم نَخَــرات
وكيـــف وإني يـــا إلهـــي وإنـــني　　　عَيِـيـتُ وأَعـيت حيلـتي وأداتي
فـــأيَّ لســان أرتضــيه لنشرـها　　　بألسنـة صيغـــت مـن العُجُمَـات
تركنــا بِهــا كـنزا نفيســا فأقبلـت　　　عـلى غـيرها الأفــكارُ مبتـدِرات
نَمـــدُّ أكفـــا قطَّـــع اللَّه راحهـــا　　　إلى غـيـرها من اللغى السـمِجات
ونترك منهــا روضــة تخلـب النُّهى　　　بطلعـتهـــا الْمُخْـــضَّلة الزهــرات
فـــلو أننــا نلنــا مــن العقــل ذَرة　　　ونـــالت طـوايـــانا أقـــلَّ حيــاة
وأمـــعن كلٌّ طرفَـــه في أصـــوله　　　وأنـعـــم في أحــواله النـظـــرات

رأينـا جميـع العــز تَحـت حياتهـا بِهـا يتـرق الشـعب في الدرجـات
سأسـتعجم الأعـواد في كل مجمـع وأستـطـلع الأفــكار في الْخلـوات
وأسـبُر أغـــوار الرجـال وأفـتلي عـقـول جَميع النـاس في الجلسـات
وأَعــرض في كل الذيـن أراهـم خطـابِي وأبـدي بينـهم حسـرات
وأدعـــو إلى رأيي وأعلـن أنــه نَــجاةٌ لِمـن يبغـي طريـقَ نَجـاة
إلى أن يواتينـي الزمـان فـألتقي بِمنشـودتِي رغمـا عـن العـقبات

وهكذا نعيش مع المختار وهو في فاس وضمن جمعية (الحماسة) برئاسة الأستاذ الزعيم علال الفاسي آنف الذكر في هذه النهضة الفكرية والحماسية الباحثة عن الفرص لاستنهاض الطلاب آنذاك نحو الفكرة التحررية والنهضوية التي تخلق من هذا الخام من الشعب الغافل المتكل الخائف المستكين مخلوقا جديدا يحمل هذه الأفكار بحرية كاملة تتيح للعربية من يحميها أمام هجمات اللغات الأخرى: فرنسية وإسبانية، لأنها الوسيلة لكل هذا المستقبل، وقد ختم البيت الأول من هذه القصيدة ب (لغاتي) فأوصى بالتعدد اللغوي، وأشار بعده إلى أن المقصود هو إحياء الفصحى وسط الهجمات المحيطة بها في المغرب والمشرق، باعتبارها في هذه الفترة عاملا معيقا لها عن الانتشار وسط شعوب لا يمكن أن تستعيد ما ضيها إلا بواسطة عروبتها وإسلامها.

وثلة من الشباب الفتيان الحضريين في المظهر والحركة والترويض

من حسن حظ موقع المدرسة القريب من أگادير وإنزكان والمزار وبنْسَرْگَاوْ أن توافد إليها في هذه الفترة طلاب شباب حضريون ينتمون إلى محيط مدينة أگادير المعاصرة آنذاك وهي المدينة الحديثة العهد بالتنمية الكبرى في إطار قطب اقتصادي وفلاحي وحضاري لاستقرار الساكنة السوسية والفرنسية والجاليات الأخرى، وقطب للاستيراد والتصدير والصيد والفلاحة بواسطة مينائها الجديد القديم الموسع، وما بني حوله وفوقه من أحياء، وخاصة (تَالْبَرْجْتْ) الجديدة، وحي (الباطوار) الصناعي والفلاحي، بعيدا عن (حصن فونتي) القديم المسور بسور عسكري للحامية المراقبة لما حول الميناء من قريب منذ العهد السعدي.

وكان هذا الموقع قد عرف صراعا كبيرا ومعارك بين البرتغال والمغرب، قصد التحكم في البحر والمنطقة، حتى جاءت الحماية الفرنسية لتتخذه مدينة كبرى، وتنشئ فيه (مطار إنزكان وبنسرگاوْ وأكادير العسكري) ومعه ثكنة عسكرية قريبة منه، ومعامل صناعية في منطقة بعيدة آنذاك عن المركز، هي منطقة (أَنْزَا) وبقرب ذلك جنوبا مدينة (إنزگان) ذات الطابع الشعبي على الضفة اليمنى لوادي (سوس) باعتبارها أول منزلة بعد قطع الوادي من الجنوب في وسط قبيلة (مْسْكِّينَة!) وبعدها قُرى (المسدورة) وعلى الضفة اليسرى للوادي وقرية (آيت ملول) التي تحولت بعد ذلك إلى مدينة في إطار أگادير الكبرى باعتبارها أول مستراح للاستعداد لقطع الوادي بالنسبة للقادم من الجنوب والشرق من تيزنيت أو ترودانت القديمة على ضفتي الوادي وعند بداية تجمعاته، مكونا قبلها متسعا سهلا يمر عبر أراضي (هوارة) إلى أن يصب في المحيط الأطلسي، عند إنزكان والمزار[1].

---

[1] صدرت أخيرا بعض الدراسات الوصفية عن هذه المنطقة وما ضمت من مؤسسات ومراكز ومدن فلتراجع ومنها (مدينة إنزگان التاريخ والمجال والثقافة بتنسيق عمر أفا ومحمد الحاتمي مطبعة الورود إنزگان ط الأولى 2011 / 1432).



صورة صهري الأستاذ المحاضر محمد الأدوزي وعلى يمينه المرحوم مولاي احمد وعلى يساره المرحوم مولاي عبد الرحمان الزميلان بالمدرسة وهم أمام بستان المسرة بمراكش

وهكذا وفد علينا شباب من هذه المدن والقرى هم:

* أولا: عبد الله المسعودي من إنزكان، نجل الفقيه الجليل والعالم صاحب المدرسة العلمية المشهورة المعروفة ب (إِغِيلَالْنْ[1]) وقد فضل والده أن يبعث به إلى مدرسة سيدي محند الشيشاوي إدراكا منه لأهمية برنامجها المنفتح على الجديد! في وسط قبيلة عرفت بعض الحداثة الفلاحية والتجارية والتطور الفكري والتفتح منذ القديم لقربها من هذه المدن التاريخية المتحضرة، ولسهولة تربتها الفلاحية، ولتربتها البيضاء القريبة من الصفرة، والصالحة للبناء الجميل، ولقرب المياه الجوفية باعتبارها حوضا لهذا الوادي، وقريبة من هواء وسحب وضباب ورطوبة البحر المحيط وانتشار العمران بها.

وتميز الشاب اللامع عبد الله المسعودي بين الجميع بأناقته خاصة في لباسه وحديثه وتعاملاته وطبخه وأثاث غرفته ومخايل النجابة والمدنية البادية عليه، وأسبقيته إلى ولوج بعض أقسام المدرسة العصرية بإنزكان، قبل التحاقه بالجو العتيق البدوي بهشتوكة، وسنلتقي به بعد ذلك طالبا ثم معلما معي في إحدى المدارس الإبتدائية بمراكش بالقصبة[2] وزوجا لأحدى طالبات هذه المدرسة، قبل رجوعه إلى إنزكان في أواخر سنوات تعليمه رحمه الله وكانت لنا صحبة محبة لأخيه أحمد المسعودي المعلم والأستاذ ومدير مدرسة بإنزكان بعد ذلك.

* ثانيا: من هؤلاء الشباب الحضريين المميز بالحركة والنشاط الرياضي خاصة والبروز وسط الملعب الكروي القريب من المدرسة والمشرف على التحكيم وتسيير المبارات الطالب (أُو بنسرگاو الحسين) وهو المنتسب إلى هذه القرية الفلاحية

---

(1) عند طريق إِمُوزَّارْ نْ إِدْأَوْتَنَانْ وانظر صورته في الملحق حرف (ل).

(2) مدرسة القصبة الحرة بمراكش أو المدرسة الشعبية، درسنا بها معا سنوات 1958 - 1960.

ذات المطار العسكري بين أگادير وإنزكان، على يمين القادم من آيت ملول وسوس، وقد اشتغل جل أهاليها بالفلاحة في نواحي قريتهم القريبة من الضفة اليمنى لوادي سوس، وكان أحد مدرري هذه القرية، ونحن بكُتاب العوينة سيدي ابراهيم السيحل (النجاري) يمر أمامنا بالعوينة كل سنة بعد الحصاد، وهو يسوق جمالا موقورة زرعا وتبنا، يقال لنا إنه قادم بها من نصيبه من أرض بنسرگاو[1] (شرطا) بينه وبين القبيلة كفاء تعليمه لصبيان القرية وتحفيظهم كِتَابَ اللَّهِ" إلى جانب إنشاء مدرسة عصرية.

وكان هذا الحسين أوبنسرگاو شابا رياضي الميول قد ولج إلى المدرسة الشيشاوية، فتميز عنا بأناقته وخفة حركاته، رغم سمرته المحبوبة أيضا، وكان قد استضافنا عند حصول المغرب على الاستقلال، ورجوع محمد الخامس مباشرة أواسط الخمسينات من القرن الماضي، وذلك عند ما بعث بنا (الفقيه العتيق) للمساهمة في أعياد العرش بالقصائد والخطب والكلمات، وكنت قد زرت أثناء ذلك إحدى قريباتي (فاطمة المرنيسي) زوج أحد الوطنيين الأكرمين من أبناء ومشيخة قرية (الدّْشَايْرَة) الواقعة قرب إنزگان، والمسمى (محمد نايت إيدر) رحمه الله. فانبعثت وسط الجمهور المحتفل بالقاء كلمة في المناسبة لعلها أول كلمة لي أمام (الْمِكْرِفُون) وقد سمهعا الصهر المضيف (محمد نايت إيدر) وكان على فراش المرض، ففرح بذلك، ونوه بي أيما تنويه، وانا ابن الخمس عشرة عاما آنذاك وقرية الدشيرة هذه خرجت الوطنيين فسميت اليوم بالدشيرة الجهادية لتعاون أهلها وامتدت مبانيها إلى الطريق الرابط بين سوس وأكادير على جانبه الأيمن مقابل سوق ثلاثاء إنزگان على الجانب الآخر وهي تابعة لعمالة إنزگان أيت ملول اليوم وسميت بالجهادية نسبة الى الساقية التي تم حفرها بالشمال الشرقي للوادي لسقي جملة من الأراضي الفلاحية.

---

[1] في حي بنسركاو: مساجد عتيقة وقديمة، كلها مجهزة ببيوت الطلاب ومساكنهم (مسجد تَدُوَّارْت، ومسجد الْتحتاني، ومسجد الفوقاني) وقد تخرج في هذه المساجد عبر السنين عدد كبير من الطلاب والمثقفين.

* ثالثا: أما ثالث هؤلاء الشباب المميز بالأناقة والجمال، فهو الشاب الملقب ب (أُولْمْزَارْ[1]) نسبة إلى قرية (الْمْزَارْ) الواقعة على ضفة الوادي، وقريبا من مصبه على الضفة اليسرى وكان ثالث اللاعبين الذين تقدم لهم الإلمام بالرياضة، وألعاب الكرة على الطريقة المنظمة المحكمة، والملعب المعلم، وكنا في العوينة كما أشير إليه! نمارس هذه اللعبة آنذاك، بنوع من العفوية معتمدين على كرة من أمزاق الكتان والصوف ومخيطة بطريقة مكورة، لا تخلو ممارستها من عنف مقصود، واعتماد على قوة العضل والضربات المعتمدة على الساق، وقلما سلم الطالب اللاعب من جراحات أو كدمات أو كسور وسرعان ما يشفى منها لسلامة الجو واندفاع الدماء في العروق والحصانة الذاتية ولعدم وجود وسائل الإسعاف كلية؛ فقد كنا نعتمد على وسائل طبيعية أخرى منها التبول على الجرح، قصد تنظيفه وتعقيمه! وبيني وبين الشابين الرياضيين آنفي الذكر، وأثناء الدراسة! بعض التوترات لم تخل من بعض الحماقات، كانت بعض نتائجها فادحة على إحدى وجنات هذا الشاب الأمْزَارِي، ولولا التعجيل بخياطة وجهه، والبقاء ببلدته مدة حتى اختفت آثار الجرح تماما، ورجوعه سالما إلى المدرسة الشيشاوية، واكتشاف الفقيه والوالد وبعض الطلاب لهذا الحدث غير المقصود، وتطويقه من قبل الوالد والوالدة والفقيه، لكانت له أبعاد أخرى شأن الأحداث التي قد تقع بين الطلاب الأقران! ولعله أول دفاع عن النفس عنيف، استعملته رد فعل على بعض المضايقات المتكررة من هذا الأخ الإفريد، والشاب اللامع المميز الجميل القسمات، وربما دُفع إلى هذا السلوك من قِبل الفتى البنسركاوي آنف الذكر دفعا، ومرت السنون دون لقاء، إلى حين التقينا صدفة بأگادير، في مناسبة عزاء، ولعله تبين شخصي بين الحاضرين، وإن كنت تجاهلته مرة خوف

---

[1] انظر قصيدته في رثاء العتيق، وخلاصة عن حياته في (الروض الأنيق) ص 148 رحمه الله .

الإحراج، وقد كان رد فعله عن هذا الحدث مع زميله قبل هذا التاريخ، قد اتسم بشيء من التعويض عن الانتقام المباشر خلسة منهما في كيفية إراحته نفسيا، وإن لم يلحق بي ذلك أذى أو سماع مالا يرضيني مراعاة لصاحبه المحامي المضيف؟! والحمد لله.

* رابعا: أما رابع هؤلاء الفتية اللاعبين. فهو الطالب العزيز، والجار الأمين، والفتى ذو البنية القوية والملقب ب (أَوُوزْمْلْ) بتسكين اللام نسبة إلى قريته الهشتوكية[(1)] وكان ذا ولع بالحركات وواكبني في بعض المتون العلمية، زميلا وَتِرْباً التحق إثري بالمدرسة لا أزال ألمح شخصه، وهو يعض على أطراف ثوبه غير مبال، ليسجل بعض الأهداف، وهو يندفع كالطلقة إلى الميدان، غير ناكص ولا خائف، وكنا معا على تفاهم تام في التعاون على العشرة في هذه الفترة، وإعداد لبعض الأكلات، وإعادة لبعض المتون، واستعانة بالخبرة المتبادلة عند الحاجة، وعشرة تامة.

* خامسا: وأفاريد من مدارس عتيقة أخرى جذبتهم سمعة هذه المدرسة منهم هذه النماذج:الطالب الإفريد الباعمراني الأصول الإفراني الدراسة (الحسين بنمولود الباعمراني) قد وفد علينا الحسين أُمُلُودْ الباعمري من (أمسرا) ب إفرَانْ سوس[(2)] مبعوثا من قبل شيخه سيدي (محمد الإفراني) وهو في سن متقدمة علينا، وذو نضج وسمت خاص، وتؤدة اكتسبها من شيخه سيدي (محمد الإفراني) فقيه مدرسة (أمسّرا) بإفران سوس، وقد ألَمَّ بأمهات الدراسة المعتادة بسوس، وتميز

---

(1) لعل اسمه الحسين أوزمل، فتنوسي الاسم وبقي النسب إلى هذه القرية الهشتوكية زاوية زْمْل على وادي الصفا باداومحمود.

(2) مدرسة قرية أمْسّرا بإفران على سفح جبل، زرناها بعد وفاة الفقيه سيدي محمد الإفراني سنوات التسعينات من القرن الماضي، صحبة بعض" الطلاب الزملاء (الحسن بلخنفار) و (الحاج العمري) و (محمد أبواتي) و(عبد الله أبواتي).

بحفظ المعجم اللغوي العربي (المصباح المنير) أو المنجد كما سمعت في رواية أخرى في شرح غريب الشرح الكبير الشهير بمدارس سوس لخفة حمله واختصاره، وتنظيم مواده على أوائل الجذور الكلامية، والمستعان به عند أول احتياج إلى ضبط وشرح كلمة عربية وقع الخلاف أوالتساؤل حولها، وخاصة عند سرد (المؤلفات) أيام الأخمسة على كبار الطلاب، قصد استقامة تلاوة النصوص، وفهم مضامنها، وهو وإن اشتهر بهذا الحفظ والتنبه إلى الأخطاء تنبها دقيقا، مع ذلك جم التواضع، بادي البشر، عفيف اللفظ، قليل الكلام، يغلب عليه الإنصات والتفهم، واختصار الجواب، عند استشارة الطلاب والناشئة له. ومن حسن حظي أنه كان يقطن بغرفة مقابلة تماما لغرفتي الأولى بالمدرسة قبل انتقالي إلى داخل أبهاء المدرسة العتيقة، فكنت أستأنس بعكوفه على المتون وحفظها في لوحه، وإعادة شرحها، رغم ما تقدم له هناك بإفران من إلمام بجلها، وكان يبدي من الصمود ليلا أمام النوم مقاومة شديدة، كنت أحاول تقليده فيها، فإذا أتعبني الصمود تركته مستمرا في عكوفه على اللوح! تارة تأخذه سِنَة يستيقظ يتقيظ بعدها مباشرة لاستئناف ما هو عليه! وقيل لي بعد ذلك، ونحن بمراكش، إنه كان يعمد عند شيخه الأول إلى وضع شيء بين أصابع قدميه ممسكا به حتى إذا سقط من بينها استيقظ منتبها ومستانفا سهره من جديد، وقد صحبته بعد ذلك بابن يوسف والتقيت به وهو يزور مكتبات تيزنيت وأگادير أستاذا بإحدى ثانويات آسفي وذا لحية كثيفة جميلة الوضع، قبل انتقاله إلى مراكش أستاذا فمتقاعدا فزميلا تزوره جماعتنا للعشاء لديه[1]، ونذكره بماضي الدراسة لنا وله، فيبتسم معجبا ولا يزيد، وإنما يتدخل لتصحيح خطإ لغوي، أو خبر غير دقيق، أبقى الله حياته وجزاه عنا كل خير.

---

[1] من بين المجموعة الزائرة زملاؤه وأقرانه في المدارس العتيقة بسوس قبل الاستقلال : الطلبة الإفاريد: إبراهيم بوحتيت الرخاوي، والطالب زميلي في الدراسة بابن يوسف الحسين جاد أوتومنار وتوفي منذ شهر رحمه الله، والطالب الإفريد أبواتي عبد الله الهماني، وأخوه محمد أبواتي، وصاحب هذه المذكرات.

* سادسا: الطالب الإفريد تلميذ الفقيه سيدي (علي أُلطاهر 1305 / 1887) سابقا (بمدرسة المحجوب) والملقب ب سي (أحمد الرسموكي) والمميز بملامح ولهجة قبيلته وثقافة شيخه، وخفة ظرفه ونباهة ملاحظته.

وقد كانت سمعة شيخه سيدي علي الطاهر الرسموكي قد سبقته وكذا وشخصيته ونكاته وظرفه ونباهته وخزانته العلمية النادرة وزياراته لأحد الوراقين من تلامذته القدماء سي (بوجمعة الكتبي) بسوق (سي بلعيد) بتيزنيت، حيث كنا نصادفه هناك ونُنْصِتُ إليه متعجبين ومعجبين بتعليقاته واشتهاره (بفصل الخطاب) وميله إلى الانتقاد والأحكام الحاسمة والفصاحة في اللسانين واللهجة الأمازيغية الرسموكية، وكنا في غيابه ننصت إلى سي (بوجمعة) هذا وهو يحكي عن غرائب نكات شيخه سيدي (علي ألطاهر) مع العامة، المميزين بجفائهم حتى مع الخاصة واستفزازهم له وللطلبة، وتعلقهم بغريب أطواره مع ذلك، ما أصبح حديث أفاريد الطلاب بسوس، وجزءا من ثقافتهم وفتوتهم، وحسن تأَتيهم في الجواب، وتعاملهم مع الخاصة والعامة، وتحفظهم من ملاحظات عامة أهل سوس، وسوء تقحمهم للعلماء والطلاب، وتعمدهم ذلك.

وقد ودعنا هذا الطالب الإفريد العلامة فيما بعد، سعد الرسموكي[1] بقصيدة مؤثرة عن مغادرته لنا بعد استقلال المغرب وهي:

---

[1] وكنا نزور بعد ذلك تزنيت أواخر القرن الماضي نسمع عن خطابته بمسجد السنة بها، وقد أصيب في صوته بنوع من الحشرجة المستكرهة في الخطيب، متذكرين قول الشاعر.

أوردها سعد وسعد مشتمل   ما هكذا ياسعد تورد الإبل!

وكان كريم العشرة والدار والأخلاق رحمه الله وصحبناه عضوا بالمجلس العلمي المحلي لتزنيت في رمضانات الدروس الحسنية متميزا عند التقاط صور الحاضرين بلحية سوسية فارهة سوداء .

سلام على الإخوان في معهد العلـم سلام منـبِّيء بِمـا كان في الصـدر
وللبـين شـدٌّ للرِّحـال وادمـعـــي لذلك تهمي عن خدودي بـلا صـبر
ســلام يقلِّــل التبســمَ بـيــنـنـــا ويُكثر طوله الدمـوعَ على النحـر
عسى اللــه يأتي بعد هـذا بضـده سَميعٌ لِمَا يُشْكَى إليـه مـن الضـــر
ســلام على الذي بفضــل جهــوده رَقِيتم وفقتم الـلِّدَات بـــلا كبـــر
على هــذه الأيــادي نَقْــدُر قــَدْرَه ونَحسِـبُه لذاك مسـتحقّ الشكـــر

ولسيدي علي ألطاهر أستاذ الإفريد أحمد الرسموكي من الطرئف العديدة، والنكات العجيبة، ومن ذلك أن أحد السكان ب (رسموكة وقرية المحجوب) أتى يوما إلى مدرسة (دُّو أُوْدْرَارْ) بِدِيكٍ تبرع به للطلبة، وكان سيدي علي الطاهر غائبا فقاموا بذبحه دون علمه! فلما علم بالخبر أخذ يستدعي الطلبة الواحد تلو الآخر، إلى أن أتى دور صاحب الحكاية، فلما سأله أجاب نافيا! لكن (سيدي علي) فاجأه قائلا: ما بال ريش الديك الذي على رأسك؟ فهَمَّ صاحب الحكاية بإزالته، فلم يجد على رأسه شيئا، فاكتشف المكيدة وفطن إلى الأمر واعترف وافتضح! وهي من النكات المتكررة الوقوع في التراث الأدبي عامة.

ومن طرائف سيدي (علي أُلطاهر) بمراكش، لما قدم الوفد السوسي إلى مراكش إثر مقابلة محمد الخامس في الرباط بعد رجوعه من المنفى، أنهم مروا بأحد مراكز حزب من الأحزاب السياسية مُعاد لبقية الأحزاب الأخرى، فقيل له عن ذلك، فاكتفى بذكر قول الله تعالى (ولا تسأل عن أصحاب .... الخ الأية)

ومن طرائفه التي حكاها سي (أحمد الرسموكي) زميلنا في الدراسة عنه، أنه كان يكره تقديم (الفوطة[1]) لمسح يده بها عقب اغتساله قبل الأكل، فكان يرفض ذلك،

[1] كلمة عربية تجمع على فوط، وربما كانت معربة قديمة اندمجت في العربية فصارت فيها كما يوحي بذلك تركيبها الغريب عن فصاحة الجذور العربية المستعملة.

ويقول للخادم (منها اغتسلنا) أي من مثلها من الثياب المتسخة، وكان يردد أحيانا قولَ من قال:

إن الـمنـاديل التي تستعمل   قبل الطعام ما عليها العمل

وقولَ من أجابه:

أما التي بعد الطعام فنعـم   لدفع ما على اليدين مـن دسم

وحكى لي نجله (محمد المندوبي) رحمه الله طرائف أخرى عن والده في صناعة ألوان من الإحبار والدُّوِّيِ والأصباغ والعقاقير، وكان نجله هذا مرة يبحث عن صناعة دواء يصلح لاستنبات الشعر وإدامة سواده، ويزعم أنه مقبل على إعلان هذا الاختراع ليقوم بتسويقه فيما بعد! وربما كان ذلك على سبيل الدعابة والطرافة والأمل القريب الوقوع، وكان لنجله هذا علاقة بالأسرة الأدوزية العوينية بواسطة المصاهرة، فكان يداوم على الحضور بموسم جد الأدوزيين السنوي المصادف لموسم الشيخ ماء العينين، ويتحفنا بطرائف من أخبار والده رحمهما الله.

كما كان يثير بعض القضايا اللغوية طالبا منا شرح غريب بعض الألفاظ. وخاصة الحديث المشهور على الألسنة (من سبق العاطس بالحمد أمن من الشوص[1] واللوص[2] والعلوص[3]) وما فيه من الغريب رغم سنده الضعيف، وهو عند كل من ابن الأثير وغيره، وهو في الأوسط للطبراني بلفظ (من عطس عنده فسبق بالحمد لم يشتك خاصرته).

---

[1] الشوص: وجع الضرس. وهو بفتح الشين.

[2] واللوص: وجع الأذن. وهو يفتح اللامين.

[3] والعلوص. التخمة ووجع البطن وهو بكسر العين وتشديد اللام.

وبالجملة فتنم سمعة هذه الأسر المحجوبية السملالية الأصول عن سيرة عالية في الاجتهاد والتضحية والتصنيف والتدريس والتوجيه للدراسة العلمية وسط سوس! رغم ما تعرضت له من صدامات، وسوء تفاهم مع بعض المسؤولين، ورؤساء القبائل وَإِنفْلَاسْ[1] باعتبار علمائها حكاما ومحكمين في أمور الشريعة والأعراف التي كانوا حريصين على تحريرها في الألواح ومواءمتها مع مقاصد الشريعة.

وتميزت الخزانة الرسموكية اليوم بين خزانات سوس، باستثناء خزانة الإمام علي بتارودانت، بقصب السبق في التفتح على المحيط الخاص والعام! بما عرف عن هذه الأسرة والداً وولداً من حب للصالح العام ونفع للطلاب، وتقرب إلى الباحثين فعرفت فهارس حديثة من قبل بعض الجامعيين والجامعات، وأهدى النسيب العزيز على الأسرة الأدوزية سيدي محمد بن الطاهر المندوبي! إلى خزانة المختار السوسي البلدية بتيزنيت، جل هذه المخطوطات وتحولت هذه الأخيرة إلى خزانة الوسائط بواسطة زميلنا في الدراسة بالعوينة (عبد اللطيف أُعْمُّ) رئيس المجلس البلدي، ونجل الأسرة التيزنيت ية العلمية في القضاء والتدريس من قبل والده سيدي أحمد وجده رحمهما الله، كما كانت دماثة أخلاق هذا الوالد وولده بعده! سببا في نفع بعض الطلاب الخريجين النجباء في المدرسة بدعمهم بشيء من المال! حتى ينشئوا مشروعا تجاريا بتيزنيت مبكرا قبل أن يتطور إلى مقاولة في الأشغال العمومية الكبرى على صعيد المغرب.

ومن فطرة ودمامة وصوفية هذه الأسرة اندماج الابن (محمد أُعْلِي) هذا في مناشط متعددة، عميدا للأسرة الرسموكية، وممثلا منتخبا من الجماعة لسنوات، وعدلا موثقا بعد ذلك محافظا على بقاء مكانة الأسرة في هذا المستوى! مع التضحيات

---

[1] حكى لي الفقيه العلامة محمد أباعوص عضو رابطة العلماء، بعض ما تعرض له الفقيه سيدي علي أُلطاهر بحاحة من محنة وإحراق لبعض كتبه وانتقاله إلى سوس بعد ذلك.

المادية أحيانا بما يملك الوالد والولد! متغافلا عن بعض أطماع تجار المنطقة، ومغامراتهم وجشعهم رحمهما الله تعالى من والد وولد، وأبقى ابنهما العزيز خريج الجامعة بمراكش ممثلا لهذه الهالة من السمعة الحسنة والأريج العلمي الباذخ المنبعث قديما من هذه الأرومة[1].

* سابعا: ومن هؤلاء الأفاريد الشاب المسعودي أحمد الذي وفد علينا من الأسرة المسعودية بالمعدر ذات الصيت الصوفي والعلمي والزهدي، وقد كان أخذ بعض الأمهات من المتون من هذا لمحيط الممتد ما بين المدرسة البونعماية، والزاوية المعدرية الدرقاوية وتقاليدهما الطلابية والصوفية، فجاء في سن يبدو فيها أصغر من سن كثير منا مع ملامح البشر والذكاء، والتؤدة وتمام الأدب وتعلمنا منه هذه الأخلاق، ونحن معه في هذه الفترة بعد الاستقلال عند ما كنا في كلية ابن يوسف بمراكش، وأثناء دراستنا الجامعية بكلية اللغة العربية، وكان قريبا لنا في السلك والسنة الدراسية، والأساتذة والأفكار، وكان نبيها ذكيا، تعاطى إلى جانب الدراسة للنشاط الطلابي والنقابي والصحفي، وبرز مشاكسا للجيل الماضي من الأساتذة والطلاب المتقدمين في السن، ثم عاشرناه صحبة الطلاب (محمد السعيدي الركراكي) و (أحمد بنعطية) و (وأحمد موحد) ونحن نعد امتحانات السنتين الأخيرتين، وننغمر في أحداث المغرب في الفترة ما بين (1961- 1968) وخاصة صراع أجنحة حزب الاستقلال على صعيد الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، فعرف أحمد الطالبي المسعودي بعد ذلك

---

[1] ومما أضافه الزميل العزيز عبد الله أُموسى من أخبار سيدي علي الطاهر، أن والده (حويس سي أحمد أموسى) سبق إلى تزنيت تاجرا موفقا، وفقيرا تجانيا ومضيفا لكل زائر من أعيان الطريقة، ومشجعا على تعاطي التجارة، وهو الذي استقدم الشاب لطفي آنف الذكر، ولكن هذا الأخير تآمر عليه حتى أدخله السجن للاستيلاء على دكانه وربما كان هذا السلوك القاسي في جبال جزولة عامة ورسموكة خاصة، ما جعل الفقيه سيدي علي أُلطاهر يمده عن حسن نية برأسمال سرعان ما تنكر له هو أيضا فيما قيل رحم الله الجميع.

بانغماسه في الحزب نفسه داخل المغرب وخارجه! قبل أن تتاح له ظروف مراجعة وضعيته السياسية والإدارية، ليستقر تارة بمراكش مديراً لمدرسة حرة في الصحافة، وأخرى بأگادير، وقد سأل عني في كلية اللغة العربية قبل أن ألتقي به أخيرا في ندوة علمية عافاه الله وشفاه و ذلك حول أستاذي (المختار السوسي) وحدثني أنه يعكف على مذكرات طفولته وشبابه استرجاعا وتحليلا لأحداث حاسمة مرت عليه.

* ثامنا: ومن هؤلاء الأفاريد أحمد الْمَاسِّي والقريبة قريته الكبرى من هشتوكة على الوادي (وادي أَلْغَاسْ) ومصبه بسيدي الرباط عند البحيرة والمحمية الكبرى للطيور والوحيش على البحر المحيط، وكان قد سبق له أن قرأ بمدرسة (مَاسْتْ) أَوْ مَاسَّة! قبل قدومه إلى مدرسة سيدي (محند الشيشاوي) فجاء فتى أريحي الجانب، ضحوك السن، واضح القسمات، تبدو عليه ملامح الماسِّيين، وملاحة عيونهم، وابيضاض بشرتهم، وزرقة في عيون بعضهم، وصار الماسي بعد ذلك يخب ويضع معنا، متتبعا وقريبا من الأحداث الوطنية والفداء ضد الاستعمار، وهي شنشنة أُشْرِبَهَا من بعض زعماء ماسة الأفذاذ، وخاصة صهره بعد ذلك، الزعيم السياسي، وقائد المنطقة في بداية الاستقلال المقاوم الشهير (عبد العزيز الماسي (1904- 1978) من دوار آيت إلياس من أسرة مخزنية[1] غادر الكتاب إلى الفلاحة، ثم هاجر إلى فرنسا باريس لخمس سنوات، وتمرن على السياقة، فاحترف الطاكسي، وتعرف من ذلك على أصناف من البشر فرنسيين وعربا وأفارقة، وانخرط في المقاومة الشرسة ضد النازية خلال الحرب الثانية، وأسس جمعية إسعاف المتضررين من العمال في هذه الفترة.

---

[1] والده العلامة الكبير أحمد بن محمد الإلياسي جوهرة ماسة، من الأسرة الإلياسية ذات الشهرة في التدريس وتنسب إلى أحمد ابن سليمان دفين آيت أحمد برسموكة.

وزار محمدٌ الخامس هذه الجمعية استجابة لطلبها مساهما فيها بنصف مليون فرنك فرنسي، فبادر (عبد العزيز) وسماها (دار السلطان مطالبة بالاستقلال) وتعرف على الزعيم (عبد الرحيم بوعبيد) سنة 1946 وانخرط في الدعوة إلى الوحدة النضالية قبل انتقاله إلى أگادير للاشتغال في سيارة أجرة، وأمينا عاما بعد ذلك لنقابة السيارات، ثم انخرط بعد ذلك في حركة المقاومة للاستعمار الفرنسي، ولما ضيق عليه فرَّ إلى الشمال منتقلا بين مدنها ومنسقا بين جيش التحرير الجديد، والمقاومة بالدار البيضاء، وخاصة في مجال نقل الأسلحة والقيام بالتفجيرات، ثم اختفى خوفا من اغتياله ومحاكمته، حتى جاءت مرحلة الاستقلال، فعينه محمد الخامس أول قائد كبير على قبائل الجنوب (ماسة، وأگلو، ورسموكة، وأولاد جرار، وَإِدَأَوْبعْقِيلْ، وآيت برَايِّيمْ، وأربعاء الساحل).

وأسهم وهو في هذه المهمات! في المدارس العتيقة، ومعهد تارودانت العلمي، وفرعه بتيزنيت، ونهض بشق الطرق، وإقامة الجسور، وإصلاح السواقي والعيون، ومحاربة الرشوة، والأنحراف الخلقي، إلى حين وفاته رحمه الله، حيث أصبح صهره الإفريد الزميل محمد الماسي آنف الذكر بعد ذلك مثالا له في النضال والتسيير لمدينة أگادير رئيسا لمجلسها، وهو الذي رضع من هذا المناضل عائليا وإقليميا وبلدة ومصاهرة! كل تلك الخصال في النضال والسياسة والاستمرار في الإصلاح بعد تخرجه في كلية اللغة العربية وقبلها، وتمتع في عهده بسمعة حسنة في النزاهة والشفافية، وبقيت العلاقة بيني وبينه تارة بعيدة وأخرى من قريب، حيث كان يستضيف مجلس جامعة القرويين، وكنت عضوا فيه سنوات 2001/1997/1988 وما بعدها عند انعقاد الدورة بأگادير التي كنت أحييها بأمثال هذه الأبيات بعنوان:

في حضن حاضرة الجنوب

في حضن حاضرة الجنـوب لقاؤنـا   مـــا أطيـــب اللُّقْيَـــا على ميعـــاد
جئنـــا وأشـــواق الْحنـــين تهزنـــا   بتعاقـــــب الأغـــــوار والأنْجـــــاد
وفجـاج أطلسـنا العظـيم تُمـدنا   بنســـائم الترحـــاب والإســـعاد
وزميلنـــا الكــــظمي يَحْــدونا إلى   الإسراع في الإيجـــاب والإيـــراد
وركوبـــة لعَلـــينا تـنحـــو بنـــا   نَــــحو الأحبـــة في رُبىً ووهـــاد
وخَيالنـــا جَـنِحٌ بنـا نَحْـو الفضـا   طــــارت قَــــوادمه إلى الأبعـــاد
ذكـرى وأخـرى لا تَـريم تعمهـا   النُّعـــمى وخاليـــةً مـــن الأحقـــاد
حـــتى إذا بـــرز الخلـيج تَحَـدّرت   أشواقــــنا كالنهـــر فِي الإمـــداد
لِنَحـُط زاملـة الترحـل هـا هنـا   في حضـــن أهلينـــا وبعـــد بِعَـــاد
وإذا بنـــا في نـــزل (أَنـــزي) نَجـتلي   في صـحبة بـوح الشـذى العـوَّادِ
كـم مـن لبانـات قـضيناها بـه   حدِبـــا علينـــا بلســـم التســـهاد
بُــــرْجٌ إلَى العليـــاء مـــد كيانـــه   وعيونـــه نَحْـــو الحضـــيض الحـــادي
وأخ الجلال مع الجمـال المرتضـى   إدريـس صـاحب حكمـة ورشـاد
تـــزهو بـــه تطـــوان في أعيادهـــا   وهْـــو المقـــدم في دنى الأعـــياد
أنعــم بـــه أكـــرم بـــه خـــلا إذا   عـــز الْخليـــل وقـــلّ في التعـــداد
ما أنسى لا أنسى العزيـز المرتضـى   (السّـَراج) في التشـــريع والإمـــداد
وخبيرنا (السـقاط) خيـرَ موجـه   ومـــؤطر ومدافـــع وعـــتـــاد

وزميلنـــا الحيســـوبي العلـــم الذي خضـــعت له الأرقـــام بالأعـــداد

هو في ذرى الإحصـاء عنـد أمانـة المجـالس العلمـاء خـير عمـاد

وصِـــحابنا في الدرس كل مـــُحَبَّر ومـُعالِــج بالـــفهم للأضـــداد

وطبيـبَ مسـألة نِطـاسي مُشْـكل وَضَّـــاح مبهمـــة على الأعـــداد

وَلاد أجيـــال على درب الهـــدى فـــتَّاح أفهـام الوليـد الشـــادي

سَهَّـــارَ عـــين في الدُّجى درســاً له فِي كـــل حـــين جولـــةٌ بـــبلاد

فهُموا النـواب وهـم حُـدَاةٌ في دنى التـــدريس والتعلـيم والإرشـــاد

وكـذا الذيـن إذا نَسـيتُ كنـاهم لَـم أنـس سـيرتَهم على إحْمـــاد

رب احفظـنَّ جسـومهم وعقـولهم حفظـــا يُبَـــقِّيها على الآمــــاد

وتـقبلـــنَّ جهـــادهم وجهادنـــا جمعـــا إذا عُـــدُّوا وبـــالإفراد

جَمَعَـتْ لنـا الزرقـاءُ كل فضـيلة فِي عيـــد مـــولد ســـيد الأســـياد

وَغَـــدَتْ لنـا كـليـــةٌ لشـــريعة مـــرعى وكـــاتبُها أخـــا الإعـــداد

شـــكرا أخـيرا إنـنـــا نرجـو له ومُحمـــدٍ نُجْحـــا وحُســـنَ سَـــداد

وصـلاة ربي والسـلام على امـــرئ غَـــنّتْ له الأطيـــار بالإسعـــاد

بِمحمـدٍ خـير الـورى الخْـتمُ الذي بربـيـــع مـــولده ختـــامُ مَعَـــاد

*** تاسعا: ومن هؤلاء الأفاريد الشاب الباعمراني المشخص لفتوة آيت باعمران المشهورة بالشجاعة وحراسة الثغور (العربي أَقْسَّامْ) :**

وقد أخذ من المدارس العتيقة بآيت باعمران، وأشهر مدارسها مدرسة (الجمعة) ومدرسة (تادارت) وغيرهما، وذلك قبل التحاقه بنا بالمدرسة الشيشاوية، وهو يحمل

معه ثقافة أمازيغية وعربية وإسبانية بحكم الحماية الإسبانية على الإقليم ومعها وطنية قوية بحكم تعاطف الإسبان آنذاك مع المقاومة داخل التراب المحتل من قِبَلِ فرنسا. وقد اشتهرت عاصمة آيت باعمران (إِفْنِي) بقاضي القضاة والفقيه المدرس بالإقليم (العلامة سيدي محمد أُبلُّوشْ) وزميلنا نجله في مراكش والمجلس العلمي (عبد الحميد محيي الدين) وكذلك بأحفاد الشيخ (ماء العينين) وأنجاله بها وخاصة (محمد الإمام) الذي كان ينزل على العلامة سيدي محمد أبلوش بداره بِإِفْنِي ضيفا مكرما، وكذلك (بمدرسة الجمعة) فحمل هذا الفتى الإفريد (العربي أقسام) ونُظراؤه ممن سبقه إلى المدرسة الشيشاوية كل ذلك وخاصة صهره فيما بعد الفقيه الحسين أُمُلُودْ آنف الذكر، والعربي اقسام ذلك النموذج النضالي الفروسي الأنوف الصعب على الإخضاع.

وقد أصبح (العربي أقسام) فيما بعد رئيس جماعة باعمرانية، ومنتخبا لمدة طويلة على الصعيد المحلي والإقليمي، ومنشئ جمعية (أقسام تربية) ومدرستها الحرة بهذه الفترة من زمالته بالمدرسة الشيشاوية، قبل أن يدخل هو (وأيت بعْمْرَانْ) في نضال سياسي ونقابي، وإسهام في المؤسسات الحرة، وخاصة جمعية (قدماء المقاومة وجيش التحرير) كما تولى مسؤولية مندوب التعليم بمنطقة (الزاگ) حيث تعرض لمحنة الحجز من لدن متسربين من الحدود من منطقة (البوليزاريو) لينجو من اغتيال أو أسر طويل لو اكتشف أنه (مندوب رسمي) لا مجرد معلم كما زعم لما سئل عن مهمته، وهو في سيارة تحمل حرفا أحمر رسميا، وقد أعمى الله أبصار هذه العصابة المتمردة عن اكتشافه، أو تعامى بعضهم عنه لما ظهر له فيه من الكياسة واللطف ومخايل المقاومة وخفة الجانب، فسمح له بالاجتياز، ثم بالرجوع، وإخبار مندوبية (بُويزَكَارْنْ) بهذه الحادثة الغريبة.



أحد الباعمرانيين الذين استشرفوا الفقيه محمد العتيق (العربي أقسام) إلى سابقه وصهره فيما بعد والذي عاصرني بها، الطالب الإفريد (الحسين بن مولود)

وكان قد استضافني في ندوة حول (أَيْتْ بَعْمْرَانْ وَإِفْنِي) صحبة نجل الفقيه (محمد أُبْلُّوشْ) الزميل في الدراسة والكلية والمجلس العلمي عبد الحميد محي الدين فألقيت أمامه وأمام عامل تيزنيت ومسؤولي البلدية وغيرهم أبياتا في التنويه بهذه الجهة وبتاريخها وهذا نصها:

من مراكش إلى آيْتْ بَعْمْرَانْ

أيهــاذا الخِضَــمِّ بالمْــاء مــاذا   تتحــدى فِي الشــط مــن عمــران
وجبـــالٍ مضـــمخَّات بِعِطْـــر   هي للمجـــد مبتـــدا عـــنوان
كم أجَال الفرسان فيهـا خيـولا   أزعـــجت بالصـــهيل ذا عـــدوان
في ليـــال مـــؤرخات بطِـــرْس   وحـــروف تُخَـــطُّ بالتبـــيان
شـع منهـا الجنـوب في ظلمـات   بشعـــاع النجـــاح والشـــكران
منـذ كان التـاريخ يجـري بسـوس   كانت السـوس مصـنع الشـجعان
أطلعـــتهمْ جبالُـــها ورباهـــا   وسَـــماها بِمنـــتهى العنـــفوان
ولهـم غـــرَّدَ المحـيط وغـنـــى   لَحـــن نصـــر وكبريـــاً وتفـــان
مهـدوا مـن صـعابها كل صـعب   جعلـوا الـترب كالنضـار القـاني
زرعوا الربوات والسُّهْب والـــــ   ـــسفح فأغْنَوا ظِئرا مـع الصـبيان
أنبطـــوا المْـــاء تـــارة وإذا مـــا   عـــز سَـنُّوا نَطْـفِيَّـــةً[1] بالسـنان

---

[1] حفرة واسعة تجمع فيها مياه الأمطار للاحتياط وكأنها مشتقة من النطاف جمع نطفة لأنها تجمع الماء القليل وتحتفظ به.

ورعــوا شــجرا ثَمــينا وقــد دَّ فَّــوْا بــه بَشَــرا ومُــرَّ الزمـــان
تَخِــذُوه طعـــما ودهنـــا ورعيـــا وقِـــرى ووقـــودَ قَـــرِّ دان
وعصـــاً وادَّرواْ بـــه مـــن عـــدو هـــاجمٍ ومُغـــيرِ لـيـــلِ قـــانِ
وإذا مـــا الســماء شــحت بقَطــر وزروعِ وكَمــــــأة ومَغَـــــــان
ركبــوا اللجــة العظيمــة واقــتا دوا بـــها سُفـــنا بغـــير أمـــان
ثــم ساقـــوا بـــأذرعِ وشــباك صــيدهم كـــلَّه إلى الشُّطْـــئان
حملتــــه جِمـــالُهم مُــــوقَراتٍ للربَـــى والْهضـــابِ والعمـــران
أنقــدوا مِ الــورى نفوســا وقـــد دَفــتَّت بِهــم دافَّــةٌ بِجــسم فــان
ثــم أرسَــوا بكــل ركــن أمـــاناً وسلامـــا يســـود كالإيـمـــان
فــأُقيمت مــداشرٌ وقــرى كــثر وضَـــجَّ الأذان بـالإعـــلان
وأُتــيح الدعـــاء بالمسـجد الفـرْ دِ بـــه رجَّــــةٌ مـــن الـقـــرءان
وأقيمـــتْ مـــدارسٌ وزوايـــا وثــغـــورٌ روابـــطٌ لـلكيـــان
وغــدا العِلْــمُ والــقُرَانُ شــعارا ودثـــارا لطـالبيـــهِ سِيَـــان
رفَــعَ الصــوت بـالقران على الشـــ ـــط جمُـــوعُ القــراء والفـــتيان
علمهــم شَــعَّ في الصــحارى وَشَنْــ ـقِيطِ فدامت صِلاَتُ ذاك الكيـان
خضــع الــكل في الأخـير لشــرعٍ آمـــر بـالْمعروف مـــن أزمـــان
فــأُقيمَ القضــاءُ والعــدل فــيهم لَــم يُخفْهــم مسـتعمرُ الإسْبَـانِ
أعلنـــوا في وجوهـــه كلمـــات صرخــت بالْخــفي في الوجــدان
نَحن قــوم لا نرتضـــي (خِــزِرَالاً) ولـنـــا بـيعـــةٌ مــع السـلطان

لَـم يـذدهم عـن قولهـا نـفيُ قـوم   منهمُ للصحراء مـن أوطـانـي
هــذه أرضــهمْ ووكــرهمُ الْــحي   شـهـيـــدٌ يـَعَـــجُّ بالعِصــيان
حَجــرٌ نــاطق كلــيمٌ كَلــوم   مـــاردٌ ثــورة على العـــدوان
جهـــة كلهـــا صُـــمود وكـــبر   وشـمـــوخ وهمـــة وتفـــان
أهلهـا قاصـدون للـنجح دومـا   ضربـوا فِي الفجـاج والشطـئان
أُشرِبـوا الخُلـق الحْميـد وقـولا   صـادقا والسـماحَ كـالإخوان
إن يكونوا في مَجْشَـر[1] أو قـراهم   رفـعوا علمـا لِأَيْـتْ بـاعمران
فــهم في حضـارة مــن ذراهــم   وأثـــاثٍ وبـيئـــة ومـــغان
أرضـعوها لصـاغر عــن كبيـــر   مــن أصـول تـلـيـــدة وعيـــان
شـــايُهم عاطــرٌ نفـيس قـــوي   دوخ الــمعـــتديَ مــن إسـبان
وأثار النشاط في الفـارس المزهـو   بالـخِـــنجر البـــديع السـنان
الْـهـــم الشـاديَ المغـني شـعرا   ومـــلاحم مطلاقـات العـــنان
وهو اليوم يجـذب الباحـث الصــ   ـب إلى عـطـره لـخـط بنـان
في محاسـن هـذه الغـادة الشـماء   في قـطرنـــا الـوسيـــع الكيـــان
رب فـــارعَ شطئآنـــها ورباهـــا   واعـمـــرنها بالشـغل والأعـــوان
وامـــلأنْ مدنـــها بكـــل زكي   مــن لـــحوم الضئـــين والحْيتـان
ومـيـاه تـــجري إليهـا بعــيدا   مــن سـدود تـحـتـاج لِلمـلآن
وانفضــنْ عــن كيانهـا كل خُبـث   مـــن هـــواء وبـيـئـــة ودخـــان

---

[1] يقال له بالعامية المدشر.

واجعلنْهـا ثغـرًا وسـيعا ومـرسى   لاجتـــلاب الــزوار والأعـــيان
واعمــرنْ نزلـــها بكــل شــباب   آثــروا نــهــضة لذي الأركـــان
ومشـــاريع ترتضـــى وتدانــــي   رغـــبة القـــاطنين في الروَجــان
وأعــن مــن أقــام فيهـا على الفـو   ر مشـــارِع للنمـــا والــتــــداني
في اكتمـال مـع النـواحي القريـــ   بـات جـوارا في الشـيد والإعـوان
ليكـــونَ الْجميـــع في كل وقـــت   رجــلا واحــدا وحيــد العـنـــان
من جنـوب لشـمأل ومـن الشـــر   ق إلـــى غربنــا بــلا شـنـئـــآن
في سـهول وأجبـل ومـن الصحـــ   ـــرا إلى مـوطن عـــزيز يـــعان
تلك جوهرتـا الشـمال على البــــ   ـحر هما مطمح النفوس الـدانـــي
ربِّ فاحفظهمـــــا بكـــــل كَلاء   حــادب ورِجــال ذي الشطــئان
تحت ظـل العـرش المجيـد ووكـر   مسـلم يَعْـتَـصِـي على العـدوان
مـا أقـام الصـلاة مـن عبـد اللـــ   ـــه إذا مــا أذيـــع بالإعـــلان
صــلوات عليــك ياخيـــر هــاد   وســـــلام كـالْمســـك في الآذان

إفني 2001



الندوة التي ألقيت فيها هذه القصيدة ويظهر الزميل العربي أقسام الزميل بمدرسة سيدي محند الشيشاوي وسط الندوة بنظارات وشنب وربطة عنق على اليمين

جوانب من شخصية العتيق وكرمه وتجديده وتحديه

كان ممن حضر معي اليوم الدراسي لتأبين المرحوم أستاذي العتيق (بتيزنيت 6 غشت 1997) وبمناسبة حضوري للترحم على والدي الذي توفي قبيل هذا التاريخ بأيام! الزميل الحسن العبادي رحمه الله، وكانت ارتسامته حول الدراسة بهذه الفترة وطرق التجديد لها وشخصية الفقيه العتيق خلاصات لإظهار جوانب بارزة من هذه الشخصية في هذه الفترة الذهبية من حياته الدراسية (1947 / 1956) وخاصة في الجوانب الطريفة الآتية:

أولا: إطلاق الحرية في التصرفات للطلاب مع الإشراف الحكيم من بعيد:

وتقدمت ملامح من تحرير الفقيه للطلاب من قيود التَّزَمت والأداب المبالغ فيها فيما بينهم وبين بعضهم من جهة، وفيما بينهم وبين الأساتذة والعامة والمحيط من جهة أخرى، وهو البعيد في سكناه، وأساليب تأديبه عن كل إكراه أو نقد لاذع أوتعنيف، متسامحا مع أخطاء الطلاب إذا بلغه أحد بذلك، مع التدخل اللازم العفيف عند اللزوم، تاركا لهم الحرية في تنظيم شؤون المدرسة في جوانب متعددة منها:

التزود بالخبز اليومي الذي يوزعه أحد عرفاء المدرسة سيدي عبد الله الموذن بمساعدة الصابر الحافظ، ويتولى تزويد القادم به بالحبوب التي يحملها في يومه إلى صاحب النوبة الذي يتولى إعداد الخبز لليوم التالي وهكذا! ورغم اتسام هذا الخبز بشيء من عدم النضج، والميل إلى الغبرة واللون الرمادي أحيانا لنوعية الشعير المعد منه، فقد كنا نجده لذيذا سائغا لما تميز به الجو الشتوكي من شهية مفتوحة وشظف غالب في معيشة ساكنته وقلة استضافتهم للطلبة! وكذلك تولي الحزب الراتب عند

غياب الفقيه وخاصة حزب الصباح من قبل أحد العرفاء وكذلك حرية السفر إلى التسوق يوميا أو أسبوعيا أو سنويا وكذلك حرية الخروج إلى الملاعب الرياضية والمناشط الحركية، وحرية جلب الماء واتخاد أحواض للسقي وغرس النعناع الأخضر والأفسنتين (الشبية) لتعديل الشاي وحرية الطبخ الشخصي الفردي، وتولي كل طالب شأنه؛ وحرية إصلاح الدكان وما حوله وتنظيف أفنية المدرسة وساحتها ومحيطها وحرية جني التين الأملس، والتين الشوكي عند نضجهما؛ وحرية الخروج خارج المدرسة بدون تقييد بأوقات معينة وحرية اختيار الزميل أو المعيد المطلوب متابعة المادة المدروسة، أو الكتاب المسرود، أو الاستشارة، أو التمارين الإعرابية، وحرية المبادرة بإعادة المتن المدروس لبعض الجدد من الطلاب؛ وهكذا كان يطلب مني أحدهم وخاصة زميلي في الغرفة سيدي (إبراهيم الجراري) وكان قد قدم إلينا من مدرسة سيدي (علي أوسعيد) وهو طالب قديم متقدم السن، ومع ذلك جاء يبحث عن الجديد عند العتيق، وكان من نصيبي السكن معه، والمبادرة بتدريس بعض المواد التي طلب مني تدريسها له، وهو في هذه السن من الكهولة المتقدمة.! وكذلك حرية نقل بعض القصائد الغزلية وحفظها قصد الإحماض والألمعية وعدم التزمت في الطلب:

ثانيا: إضافة علوم ومواد جديدة حرة على النظام العتيق بسوس للدارسة

من أثر التخرج من المدرسة الإلغية المتحررة نسبيا، وأثر الدراسة على المختار رحمه الله بالمدرسة الرميلية ذات التنظيم الآخذ من المواد التراثية، ومن المواد الحديثة؛ استطاع العتيق استئناف هذا النموذج مع الطلاب، وخاصة الشباب المستعدين منهم، فدرس ولأول مرة في تلك الفترة:

1): مادة الإنشاء والتحرير والتمرن على الكتابة مسجلا الموضوع على السبورة، ومستخرجا عناصره، ومصححا للموضوعات على الدفاتر، وآمرا بقراءة

موضوعات بعض المتفوقين مع التنويه بأعمالهم أمام الآخرين[1] (ويظهر الملحق آخر الكتاب نماذج في التدريب والشكل والتصريف والإرث من اقتراحاته وتصحيحاته ونقطه وتقديره.)

2): مادة التاريخ. وتاريخ المغرب خاصة ومواد أخرى

وكان من المواد المحظور تدريسُها عادة إما استهانة به حتى قيل عنه (إنه علم لا ينفع أو جهالة لا تضر) أو لخوف من فرنسا المحتاطة من سرعة الوعي الوطني للطلاب بتاريخهم وأمجادهم في مادة التاريخ، وكنت أقف عند بعض مكتبات ساحة درب البلدية بالدار البيضاء، وأنا بها سنوات **1941 - 1957** أتأمل صدور أول كتاب للأستاذ عبد الله الجراري (دروس في تاريخ المغرب) بإعجاب وإكبار، وكان كتاب (الاستقصاء) للناصري من الكتب المحظور تدريسها، وكان الفقيه العتيق قد درسه باكرا لطلابه عقب صدوره مباشرة في أول طبعة له دار الكتاب بالدار البيضاء في أجزاء سبعة، وأضاف إلى ذلك تاريخ الأدب العربي وذلك المؤلف الأزهري الشهير (الوسيط في تاريخ الأدب العربي) وكانت العادة بالمغرب ألا تدرس إلا النصوص الأدبية، ويهمل ما يتعلق بما حولها من التاريخ المقارن أو المقابل بالبيئة التي صدرت النصوص في إطارها الزماني والمكاني.

3): وأضاف الفقيه إلى هذا الصنيع بالأدب العربي، تاريخ المغرب الأدبي، وأشهر النبغاء فيه، وخاصة الأدب السوسي والقصائد الطوال للأديب الطاهر الإفراني آنف الذكر، وشيخه المختار وعلال الفاسي.

---

[1] كلمة الحسن العبادي: من خلال كتاب (الروض الأنيق في تأبين العتيق) ص 1 مطبعة الورد. إنزكان ط 2012 (سلسلة إصدارت جمعية علماء سوس).

4): وأضاف إلى ذلك في إطار السيرة النبوية شروح القصيدتين هذه المواد الثلاثة السيرة النبوية، البوصيريتين، ونور اليقين في سيرة سيدي المرسلين لمحمد الخضري[1] وكنا نحفظ هذا المتن لسلامة عباراته واختصاره من مطولات كتب السيرة، وكان لنا بعد ذلك زادا أساسيا في التوسع في هذا العالم من سيرته صلى الله عليه وسلم. وسيرة الصحابه معه؛ وقد درست بعد ذلك لفوج من الطلبة المعدين للإمامة والخطابة والوعظ بالمجلس العلمي المحلي لمراكش منذ سنوات هذا الكتاب مع إضافات كثيرة وأضواء جديدة على السيرة.

5): ومن المواد التي تبرع أحد العرفاء بتدريسها للطلاب مادة الفرنسية، وكان تدريسها محل استنكار، ودلالة على التنطع والتنكر للإسلام بسوس، وسميت المدارس الإبتدائية التي فرضتها الحماية، وأدخلت الفرنسية إجباريا على موادها ب (السُّكِيلَة) [2] وسمي تلاميذها المختلفون في طرق دراستهم، ونوع المواد المدروسة ب (أَسْكَيْلِي) لقبا قدحيا للشاب الذي لم يلج التعليم العتيق الإسلامي النزعة والمواد العربية اللسان والممزوجة بالشروح الأمازيغية عند التدريس ووسائل للإيضاح في هذه البيئة التي لم يتعمم فيها اللسان العامي العربي، وإن كان نجباء الطلبة السوسيون أفصحَ أهل المغرب من العرب المعاصرين، كما لاحظ ذلك شيخنا محمد المختار غير ما مرة[3].

---

[1] طبع هذا الكتاب مرارا ودرسته لأحد أفواج القيمين الدينيين بالمجلس العلمي بمراكش أواخر القرن الماضي لمدة سنتين.

[2] السكيلة تحريف كلمة لاتينية أصلها سكول.

[3] نسب الطالب الإفريد متقدم الذكر (الأستاذ العربي أقسام) تولى هذه المادة لأستاذي الحسن العبادي انظر ص 63 (من الروض الأنيق) آنف الذكر.

6): ومن هذه العلوم الدقيقة علم الأوفاق، في مجال ضيق يحضره بعض الطلاب النجباء في الحساب، حيث كان يستدعي العتيق إلى المدرسة الشيخ (سيدي بلا نَايْتْ الدكالي البُوطَّيِّبِي[1]) وليس بين سكناه وبين موقع المدرسة في (آيْتْ بكو) إلا مسافات لا تتجاوز بضع كلمترات، وهو أحد تلامذة الشيخ ماء العينين رحمه الله في هذه العلوم فكان ربما تبرع جزاه الله خيرا فعلمنا شيئا من مبادئ هذا العلم علم الجدول: الذي كان مادة مقررة في جل مدارس سوس قبل هذا التاريخ[2].

اشتهار المنطقة بعلم السحر والطلسمات وساحر هشتوكة الشهير آنذاك بساحر (تِينْمَنْصُور[3])

يذكر صاحب رحلة (خلال جزولة)[4] شهرة قبائل هشتوكة سوس بالعلم والقراءات منذ قرون وبمدارس تنيف على الثلاثين سهولا وجبالا، وسبب هذا النشاط تساقط الهجرة إليها من جبال وسهول سوس، واستغلالها فلاحيا حتى أصبح لكل أسرة بستان فلاحي خاص به بئر وأدوات سقي وحيوانات للجر يقوم بسياقتها أقل الصبيان، لتسقي بعد ذلك بساتين رملية رخوة تنبت الزرع والبقول والأشجار المثمرة كالتين وغيره، ولا تخلو من نخيل متواضع الارتفاع قصد الانتفاع بسعفه في صناعة

---

(1) نسبة إلى قبيلة آيت بوالطيب العربية الأصل المستقرة ب شتوكة سوس الواقعة بين أگادير وماسة.

(2) كلمة الحسن العبادي في اليوم الدراسي آنف الذكر ص 64.

(3) خلال جزولة المجلد الرابع ص 60 المختار السوسي وتينمنصور دوار بجماعة انشادن من مشيخة آيت بكو في 14 دوارا بدائرة بلفاع.

(4) رحلة للعلامة محمد المختار السوسي. في (أربع مجلدات) قام بها كجولات في نواحي سوس، وقد سجل في رحلته هذه كل ما يراه يستحق العناية والتسجيل، مع ذكر الأحداث والوقائع التي شاهدها، وذكر كثيرا من رجالات العلم والسياسة التي زارها، وتاريخها وأحوالها، وذكر كذلك العديد من محتويات الخزائن التي رآها، واستنسخ منها العديد من المؤلفات والشهادت (دليل مؤلفات المختار السوسي) بتصرف.

الحبال التي تبقى قوية لرطوبة هواء المنطقة مدة طويلة دون أن تعطي هذه النخلات ثمارا في الغالب! مع كمية من الأثل قديمة الزمان، قبل هجوم القواد الكبار على سوس تمهيدا للمخزن، وبعده للاحتلال، وقبل اجتياح الثوار مع الشيخ ماء العينين بدوابهم وقضهم وقضيضهم لهذه السهول الخصبة؟ وهكذا فبالاضافة إلى اتصال علم الجدول في سوس عامة وبهذه المدارس أيضا واشتهار بعض فقهاء شتوكة بالرقيا، ويذكر في ذلك أن الفقيه بمدرسة أخريب الهشتوكية أحمد عمي من أداي رسموكة[1]، كان شارط بهذه المدرسة، وبمدرسة الشيشاوي بِآيْتْ بكو آنفة الذكر، وكان يستخرج السرقات على كيفية خاصة: يأتي بصبي صغير، فيكتب على بيضة فيقبضها الصبي في يده فيعزم الأستاذ عليها ببعض العزائم حتى يرى الصبي السارق بنفسه، وكان شيخنا المختار قد رآى ذلك في مناسبات أخرى صحيحة الوقائع[2] فيكون (السارق) يتجلى له في البيضة، وكل سرقة وقعت إذ ذاك كان يقصد من أجلها فيفضح السارق بنفسه، وكان الشيخ التمديزتي قد ذكر ذلك في مؤلف أمازيغي، وكان متدينا متقشفا غاية وتوفي بعد 1314 هـ/ 1896 م.

أما ساحر تِينْمَنْصُورْ عيسى قد زاره المختار رحمه الله أثناء وجوده بآيْتْ علي، إزاء قرية تِينْمَنْصُورْ[3] بواسطة فقيه (آيت علي) الذي استدعاه إليه ليستفسره المختار عن حقيقة الأمر المنتشر خبره بين الناس، وقد كشف له في الأخير جلية الأمر، وأنه إنما أخذ هذه المحاولات السحرية من رجل من أهل ماسة ب (تاسيلا) معروف عند الخاص والعام، وقد استضافه عيسى فعلمه هذه الأمور، بعد أن أمره بتلطيخ يده بمرارة القنفد وبأمور أخرى، حتى يتمكن من مشاهدة شخص يأمره بفعل بعض

---

(1) من خلال جزولة ج الرابع هامش 1 ص ك ك.

(2) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(3) قرية مشهورة ب شتوكة سوس تقع تقريبا في منتصف الطريق بين أكادير وتزنيت، مشهورة بمناخها وبرجالها وفلاحتها.

الأمور، ومن استدعاء الخادم هذا! آمرا إياه بأن يعمد إلى المصطكى[1] ومسلاخ الأفعى والخفاش والهدهد ودم الحجامة! فيجمع ذلك في إناء ويعجن الجميع ويحكم سد القنينة، ويدفنها في مزبلة حتى يمضي عليها أكثر من عشرين يوما، ثم يفتحها ليجد فيها دودتين فيتناولهما، ويعجنها مرة ثانية، ثم ينشف ذلك في الشمس ثلاثة أيام، ثم يدق ما تيبس منها، ويضع دقيقه في حق! مع شروط أخرى سرية لا يتم العمل إلا بها، وقد عمد عيسى هذا أمام أعين الحضور إلى تناول هذا الدقيق من الحق، ثم عزم بألفاظ ونادى صاحبه وهو واقف مرتعش يقول: أجلب الآن من مال الذين لا يزكون ولا يزاولون إلا الحرام، يكرر ذلك بصوت هصهلق شديد الوقع بعزم وجد، ثم يستلقي على حائط، وهو ينظر إلى الأستاذ المختار متلقفا (برادا) من الشاي سباعيا قديما، ثم يعود ليتلقف منظارا للعين في غلاف قديم، ثم ناوله أحدهم ورقة مأئة فرنك فرماها في الحائط وغابت داخله عن الأبصار، وهو يشير إلى أنها ستسقط أمام زوجته ب تينمنصور!!!

وكان أحد الفقهاء الحضور قد بدأ يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم؟! فناوله عيسى سكرا، فإذا به يتحول إلى نعل من جلد، حتى قام الرجل متقيئاً السكر!!! وتحدى أحدهم بأن يبعث به إلى بلدة الفقيه المختار فورا ب (إلغ) البعيدة بنحو (مائة كلم) ليأتي منها بما يحب المختار فورا، فأجاب الرجل بالنفي!؟ وأخيرا سألوه عن الصلاة فزعم أنه سيتوب ويصلي لأن خادمه مؤمن، وأضاف الفقيه المضيف للجميع! بأن هذه المستحضرات لا تختفي بل تبقى ملكا للمجلوبة إليه! كما أنه قادر على القيام باستخدام خادمه في رجم بعض دور من يراد رجم دارهم انتقاما[2].

---

[1] المصطكى افراز أشجار جنوب اليمن وعمان، أبيض اللون يؤكل ويمضغ أو يشرب مع الشاي، وله خصائص علاجية وسحرية ووقائية انظر (كتب الطب القديم والحديث).

[2] خلال جزولة ج الرابع ص 59 / 60.

وحكي أنه حضر وقائع مع السلطان محمد بن يوسف في إحدى المحلات بسماط قرب البحر بأگادير، واستحضر أمام الجميع للفت الأنظار إلى قدراته! موجة من الأفاعي ليجفل منها الأعوان[1] فسقطت (شواشيهم) قصد الإضحاك! ثم التفت بعد ذلك إلى (عبد) على رأس السلطان زاعما أنه أَمَة لا عبد، ففتش الرجل فوجد كذاك، وأنه طلب منه ذات يوم (حرثاني)[2] حماره ليحمل عليه الزبل، وأمره بإعداد الجوالق خارج الدار، فلما دخل وجد والدته في صفة أتان ودون أن يشعر، ظل يحمل الأثقال على ظهرها النهار كله! فلما استكمل الحمولات، دخل على والدته فوجدها في تعب شديد، وأنه أغمي عليها النهار كله! ثم علق المؤرخ المتثبت المختار رحمه الله على هذه الأخبار بقوله: وأخباره كلها صحيحة محققة!!! وقال: قد تعجبت منه حين لزم تلك الفاقة التي ظهرت عليه! مع أنه لو خرج إلى الحواضر لاستغنى من السحر[3] ومات عيسى هذا بعد ذلك سنة 1380 هـ / 1961 م.

ومن المواد التي اجتهد الفقيه العتيق فيها إضافة حصص من حفظ الأنصاص القرآنية بعد قراءة حزب المساء (الأربعاء والخميس) وقد استعان الأستاذ العتيق أيضا فيما (بين العشائين) وبعد قراءة حزب المساء يوم (الأربعاء والخميس) وهما عطلة متوارثة بسوس منذ الوصية العمرية لقراء المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام، فكان العتيق يكلف الطالب باستحضار ما حفظ من الحديث الشريف، والقصائد الشعرية بمعدل حديث وقصيدة كل فترة.

---

[1] يقال: جفل يجفل جفولا من الشيء إذا نفر وشرد وفزع.

[2] الصواب (حر ثاني) ومعناه: إذا اعتق الرجل عبدا ثانيا، فاصطلح عليه المجتمع المغربي بهذا اللقب المقبول في معناه وان تحول إلى لقب ناب وقد امتزج في دمائه لونان بين البياض والسواد بسبب تناسل في الزواج بامرأة خالصة البياض.

[3] المصدر نفسه ص 60 - 61.

وتعزيزا للجو العلمي بالأساتذة الزائرين المتطوعين من غير ما تقدم، ولكي يفتح الفقيه آفاق الدراسة ويديرها على عدد من المحاور والنماذج يتشرب منها الطالب على حسب قوة شخصية المربي واستعداد المتربي، حرص على تشجيع جماعة من الشداة المتقدمين في التدريس، يطلب منهم تلقين الطلاب بعض المواد التي أتقنوها أكثر، ومما لا يدرس عادة ومنهم:

الفقيه سيدي صالح الصالحي الإلغي[1]:

وهو بلدي الفقيه وقرينه في الدراسة قديما، وكان صالح الصالحي في هذه الفترة بإحدى مدارس سوس، وغلب عليه الاهتمام بالعروض واللغة والأدب والحساب والفلك، فكان العتيق إذا زاره سيدي صالح هذا يحث الطلبة على دراسة متن وشرح الخزرجية في العروض عنه، وكذلك بعض ما شرحه من المتون كمتن (الحمدونية) بشرحه شخصيا، وسيدي صالح اليوم لايزال يفيد الطلاب في الكراسي العلمية بالمجلس العلمي المحلي لتيزنيت، ويدرس للطلاب متونا في التوقيت والحساب والفلك.

وله شرح على الاجرومية طارت بذكره الركبان وهو (الدرة الإلغية في نظم المقدمة الأجرومية) وشرح أيضا المقنع واختصره، وهو في هذا الموضوع آنف الذكر، والكتابان مطبوعان متداولان عند طلاب العلم بسوس وغيرها أضاف إليهما كتابا عن حياة الطفل السوسي في الكُتّاب سماه (المدرسة الأولى) وفيه تفصيلات عن عمران الكتاتيب والمدارس القرآنية وطرق التحفيظ بها، وأدوات التوضيح، وطرق تحصيل القرآن الكريم رَسْماً وَخَطّا وَتَحْزِيباً، وما يضاف إليه من أنصاص منظومة ومتون لغوية أدبية تشجع الطفل على التشوق إلى الانتقال من مستوى الحفظ المجرد إلى التقدم في اللغة والشريعة، وما

---

[1] ولد العلامة سيدي صالح الصالحي الإلغي بدُّو أَوْكادير إلغ 1925م وتوفي في 24 ذي القعدة 1438هـ الموافق 17غشت 2017 وله عدد لا بأس به من المؤلفات المطبوعة.

إليها من العلوم الخادمة لهما وسماه (المدرسة الأولى) وكنت أعددت عرضا حوله وخلاصة لصالح واعظي ومرشدات وأعضاء المجلس العلمي المحلي لمراكش، بعد إلحاح في الطلب منذ سنة.

ومن الضروري التنويه بدقة المؤلف في الوقوف على اللغة ومتنها وغريبها وأسرارها، كما تجد ذلك في هذا المؤلَّف الصغير الحجم، الثقيل الوزن، والموقور بالفوائد الشعرية والنثرية الدقيقة لأصول الكلمات عربية وأمازيغية، وقد استمتعت بصحبة هذا الفقيه بعد ذلك في بعض الندوات والأيام الدراسية بتيزنيت رحمه الله، والفقيه سيدي صالح صديق قديم للفقيه العتيق، وكان قد حياه بمقطوعة تقطر رقة وعاطفة، والعتيق وقتئذ بمراكش في المدرسة الرميلية يقول فيها:

على السيد البحر الـهمام مُحمـد ... رضيع ثُدِيّ المكرمات ابـن أحْمَـد

سلام كما هـب النسيم بِسَـحْرَةٍ ... يُحـاكي شذاه المسك إن فُتّ باليـد

تـقـيٌّ نـقـي لا يُـزَنُّ برِيبـة ... عـزيزٌ عزوف عن دنايـا وعـن دَدِ

يَحضُّ على التقوى وينآى عن الخنـا ... ومـن يَسْعَ للعلياء يَسْـعَد ويُحْمَـد

بعلـم وبَـذْل واحتمـالٍ وبَهجـة ... يسودُ فمن مثلُ العتـيق محمـد؟![1]

---

(1) الروض الأنيق في تأبين العتيق ص 19.

وإحياء مراسم ومواسم اللقاءات الشعبية الدينية بالمنطقة

رأى الفقيه في ساكنة المنطقة بعض النكوص عن القيام بواجبات الضيافة في الموسم السنوي للشيخ سيدي محند الشيشاوي مؤسس المدرسة، فقام بالأمر كله رغم محدودية قيمة (الشرط!) موجها الدعوات إلى القريب والبعيد، وإلى عامة القوم وخاصتهم، دون الشعور بأدنى ملل! وتكلف لها عفويا رحمه الله[1] وتحمل أحد طلابه في إحدى هذه المواسم مصاريف باهضة فعزم بعد ذلك على التغيب عن الموسم القادم، ولما علم العتيق بذلك، أسمعه من اللوم والعتاب الشيء الكثير، وقال له في الأخير: (إذا وصل الموسم فأخبرني ولا تغب عن الموسم، ولا تفكر في الغَيْبَة أبدا!) وهكذا صار الاحتفال بالموسم، وإطعام الصادر والوارد عقيدة راسخة[2] ومثلا للطلاب في الفتوة والجود والخدمة والكرم في بيئة شحيحة الطبع رغم بعض الغنى !!! وكان إلى هذا كله يضرب للطلبة المثل في الإكرام والخدمة ويدربهم على ذلك، لتكتمل فتوتهم الناشئة، حتى عجب أحد ضيوفه من فيضان ينابيع الكرم من بيته بهشتوكة ودارته وبستانه الذي يأوي الضيوف نخبا وطلابا وأناسا عاديين، فصرخ سيدي (محمد أُبُهُوشْ) الهلالي من تلامذة الشيخ سيدي (محمد أُعْبُّو) وهو يتناول الإفطار على مائدة العتيق متعجبا ؟! وأسر الأستاذ العبادي إليه بأن راتب (الشرط) وحده لا يمكن أن يوفر للفقيه هذا المستوى من العيش فكيف يوفر للخاص والعام مثل هذا الكرم الدائم[3]!؟

وهو إلى جانب كرمه الحضري والمخزني يصر على إطعام أهل البادية، هذه

---

(1) شهادة الأستاذ أحمد العبادي في المصدر المذكور ص 65.

(2) الحسن العبادي المذكور ص 65 وهو يلمح إلى ما كان الوطنيون السلفيون آنذاك يحاربون به بعض عادات المواسم وبدعها وقد تحداهم الفقيه العتيق الناشئ أولا في بيئة سلفية صوفية ذات مواسم وأعراف متوارثة وسنن حسنة متبعة.

(3) المصدر نفسه ص 65 وكنا ونحن بابن يوسف بمراكش نتلقى منه رحمه الله رسائل في هذا الموضوع قصد الاسهام في مثل هذه المناسبات وإن لم ندرك مغزى تشجيعه طلابه على هذا الصنيع رحمه الله ورضي عنه آمين.

الألوان من الطعام غير المعتاد عند غيره من ساكنة المنطقة، وهم على جانب من البداوة ولا يزالون آنذاك، وقد أسعده الله بوالدة (عبد الغفور، ورشيد، وحسن) والتي تربت في دار صهره الخليفة قائد منطقة أگلو وما إليها، وعاشت وسط حضارة تيزنيت، ووسط ضيوف أُورُوبيين فرنسيين، وشيوخ ونخب من العلماء والموظفين، وأتقنت من الأطعمة بواسطة تعليمها وإعدادها! ما جعلها تفيض بالشيء القليل، وتهيئ النزر اليسير، فيتحول بمعرفتها وتدبيرها إلى مائدة ذات ألوان وأنغام شهية، جزاها الله عنا وعن الجميع خير الجزاء.

وامتد كرم الفقيه وضيافته أحيانا إلى (مسجد قرية آيْتْ سليمان) بمنطقة (إلغ) البعيدة عن هشتوكة بما يقارب مائة كلم أو يزيد، فكان يهيئ من بيته وجبة دسمة جاهزة ليحملها في سيارته وهو من أوائل فقهاء سوس في استعمالها إلى المسجد المذكور ليتناول الغداء مع رواد المسجد بعد صلاة الجمعة، إكراما منه لقرابة أسرته ووالديه وجيرانه الأولين[1].

يضاف إلى المناسبتين المذكورتين حفاوته المتقدمة بالطلبة أيام وليالي رمضان، وهم قيام الحصاد في ضيعته وحقول المدرسة، كما يضاف إلى هذه المناسبات احتفاله الباذخ بالمولد النبوي الشريف إطعاما وإنشادا وإحياء، وقد دفعني هذا الاهتمام بالمولد النبوي الشريف بعد ذلك إلى تتبع بعض القصائد المولدية، وأنا بمراكش سنة **1957** وكانت قد نشرتها مجلة (المشاهد) الشهرية آنذاك، ونقلتها بخطي في تلك الفترة مباهيا بشعر علال الفاسي رحمه الله وقصائده المطولات التي ألقيت بالمسجد الأعظم بسلا بحضور الزعيم أمام الملك محمد الخامس رحمه الله ووصف فيها هذه الفترة من الاستقلال وأمجاد مناضليها ومستقبل المغرب المسلم المنتظر.

---

[1] كلمة وشهادة عبد الله السعيدي: الروض الأنيق ص 31 وقد بعثت إليه مع الأستاذ الدكتور أيت علي بلغة فاسية فلما تسلمها وهو في أواخر العمر فرح كثيرا وأقسم على السيد المحاضر بأن يصحبه للغداء بعد أن لم يجد من المشرفين من يتقدم لاستضافته. كما حدثني الدكتور أيت علي شفاه الله.

وقائع وأحداث وعالم يولد ما بين (1955 – 1956) بالمغرب الجديد والمدرسة الشيشاوية، ومعهد تيزنيت، ومعهد ترودانت واحتفالات بأعياد العرش والاستقلال



ثانوية محمد الخامس للتعليم الأصيل

كانت الأحداث الفدائية تتوالى ونحن بالمدرسة نواكبها من بعيد وننصت إلى وقعها، ونحن ننقُلُ البصر بين الألواح والكتب، وبين المنظومات وقصائد الحماسة الوطنية المتسربة إلينا في الدفاتر محفوظة وملقاة ومنشدة، فإذا بالأحداث تتطور أواخر سنة 1955 لتتوج برجوع السلطان محمد الخامس إلى عرشه في 16 نوفمبر ليتم بعد بضعة أشهر إعلان الاستقلال، واحتفالات بالمناسبة، وخاصة مناسبة عيد العرش المجيد خلال شهر مارس تاريخ ولادة السلطان، وقد ابتدأ الاحتفال به منذ 1934 وانقطعت الاحتفالات أثناء المنفى (1953_ 1955) فكانت مناسبة أول عيد عرش بعد الاستقلال، مناسبة عظمى استعدت لها المدرسة طلابا وأستاذا، ومعهم سوس كلها، والمغرب بأجمعه! بكلمات وقصائد، وكان من حسن حظي إلقاء إحدى هذه الكلمات بمهرجان بالمناسبة ببلدة (الدشيرة) الملاصقة لإنزكان اليوم كما تقدم[1] كما زارنا خلال الاستعداد لافتتاح المعهد الأول للدراسة الإسلامية بسوس بمدينة ترودانت التاريخية، العلامة المناضل محمد المختار والمجاهد الوطني إلى جانب الزعماء الكبار، والذي عرف هذه الفترة المنفى مرتين، والسجن إلى حين العفو عنه وعن زملائه، وإخراجه من سجن (أغبالو نكردوس[2]) سنة 1955 ورجوعه إلى الدار البيضاء والرباط استعدادا لتولي مهمات الاستقلال إلى جانب العاهل محمد الخامس أواخر سنة 1955 وزيرا للتاج متفردا بهذا اللقب والوسام وهو المناضل والعلامة المؤلف في تاريخ سوس، وفي هذه الفترة الحاسمة من تاريخ التعليم بسوس، ظهرت فكرة تأسيس معهد (تارودانت) بعد أن مرت بمراحل منذ سنة 1953 عند ما تأسست أول جمعية لعلماء سوس من تفكير المختار السوسي، ومجموعة من معاصريه السوسيين

---

[1] الدشيرة الجهادية اليوم شبه مدينة متسعة الأرجاء، ممتدة إلى الطريق الرئيسي لسوس وإنزكان، مطلة على سوق الثلاثاء بإنزكان مباشرة.

[2] بإقليم الرشيدية تافيلالت.

الوطنيين والأعيان والتجار والعلماء والطلاب (بمدرسة الرميلة) بمراكش! وبرزت في مطالب علماء سوس خلال الوفد الذي استقبله السلطان بعد رجوعه مباشرة، وبحضور وزيره المختار في الأوقاف 1956 وبعدها وزيرا للتاج 1957 قبل أن تقع الاتصالات بالمعاهد والمدارس العتيقة لإقناعها بتهيئ طلاب يلجون المعهد بعد أن يكونوا قد سبق لهم هذا التكوين ليصير رافدا كبيرا من هذه المدارس العتيقة جامعا لفروعها عبر سوس كله:

وهكذا عرفت مدينة تيزنيت خلال هذه السنة من 1956 وما قبلها! قبولا لهذه الفكرة ليكون طلاب الفقيه العلامة (محمد بلباز) المشرف على المدرسة العتيقة بجامع تيزنيت الكبير، وهو من خريجي مراكش ومبعوثي المختار إلى سوس، ومعه أستاذنا العتيق، ممن اقتنع بسرعة هذه الفكرة، ومن الذين هيأُوا الطلاب لاجتياز أول شهادة ابتدائية تعرفها مدارس سوس العتيقة تمهيدا لانطلاق المعهد الكبير صيف سنة 1956. وقد احتاطت مع ذلك طائفة من فقهاء المدارس العتيقة من فكرة ضمها إلى المعهد حتى لا تفقد استقلالها الفكري بعيدا عن تيارات خارجية لا تترك أثرا لأصالة عتيقة.

ولكي يشجع الوزير محمد المختار السوسي، وأستاذ العتيق الطلاب بنفسه على هذه النقلة النوعية قدم إلينا بنفسه وإلى قريبه في العمومة وطالبه النجيب ونسيبه من جهة أخيه الخليفة، فأقمنا له احتفالا خاصا حضره كافة طلاب المدرسة الشيشاوية في أحسن حللهم، وأزهى أيامهم، وأكثرها بشرا وفرحا بهذا العهد الجديد، وكنا من القلة التي تحفظ قصيدته وقصيدة العتيق العرشيتين الجديدتين. وكنت ممن رشحهم العتيق سابقا لإلقاء قصيدة! أشرف هو شخصيا على اختيارها من مخزون المناسبات، وقد حررتها وضبطت كلماتها، وأتقنت إعراب وتحليل جُملها وعبارتها

وألفاظها استعدادا للسؤال الذي يمكن أن يختبر به السيد الوزير بعض الطلاب أثناء إلقاء هذه القصائد، ولا أزال أذكر تعقيبه على كلمات النخبة المعدودة التي شرفت بإسماع محاولاتها وهو ترن في الأفق من أثر رغبة ملحة لمغادرة المدرسة إلى المعهد الجديد بتارودانت التاريخية! والعاصمة العلمية القديمة، أو إلى كلية ابن يوسف الجامعة للعلوم والمتون بمراكش، والتي عرفت نهضة سابقة وتنافسا في التجديد مع قرينتها القرويين بفاس، منذ أن تولى إدارتها وتجديد موادها ومقرراتها العلامة الرحالة الأزهري محمد بن عثمان المسفيوي رئيس هذه الكلية لسنوات قبل الاستقلال! إلى جانب مواكبة المختار لهذا التجديد وتشجيعه ودعمه بالدروس الحرة بالمساجد وبمدرسته الخاصة بالرميلة محضن هذه التجارب المختارية، وكان تعليق السيد الوزير بعد الانتهاء من هذه الإنشادت (أيها الطالب أثبت تنبت[1]) خوفا علينا من الانفضاض عن هذه المدرسة وخوفا من أن تتعرض للإغلاق والفراغ!.

---

[1] وهو تعريب للمثل المراكشي الشهير (بُتْ نْبْتْ) ومن حسن استغلاله للأمثال وتفصيحه للعامية المغربية وهو يكررها ثلاثا.

في معهد تيزنيت العتيق بعد اجتياز أول شهادة ابتدائية
لمعهد ترودانت وبعض فروعه



أحد من امتحنوني بمعهد تيزنيت في أول شهادة ابتدائية بعد الاستقلال الأستاذ أحمد عفيف البعمراني

وكنت من الذين رشحوا للاختبار التمهيدي للتقدم لأول شهادة ابتدائية ينظمها المعهد الإسلامي بترودانت في المسجد الجامع الذي كان أول مقر لها وفي بعض الفروع التي التحقت به سريعا وعلى رأسها فرع تيزنيت، وهكذا تقدمت بعد ذلك لاجتياز مبارة الحصول على الشهادة الابتدائية بتيزنيت، وقد أشرف أساتذة من المعهد الإسلامي بتارودانت بُعثوا إلى تيزنيت على هذا الامتحان بفرعيه الكتابي والشفاهي، والذي يشمل المواد العربية والإسلامية والحساب والفرنسية والتاريخ لأول مرة. وكنا على إلمام سابق بهذه المواد ودربنا على الانسجام مع المعامل والتنقيط ومع النظام الجديد، والتحرير الكتابي، وقد سهل علينا بعد أجتيازها الانخراط في الشفوي لتعلن النتائج في احتفال شهده هؤلاء الأساتذة الرواد، والذين لا زلت أذكر من بينهم :

الفقيه الشاب الألمعي الباعمراني النبيه آنذاك، وخريج المدارس الباعمرانية وغيرها (أحمد عفيف الباعمراني) والذي كانت تبدو عليه ملامح الذكاء والألمعية سواء في خطوطه على السبورة، أو في أرقام الحساب، أو في المواد الشفوية، تخرج في معهد ابن يوسف وحصل على عالمية القرويين 1958 وعين سنة 1962 مراقبا عاما لطلبة المعهد وتوفي باكرا في حادثة سنة 1969 رحمة الله عليه شهيدا ومجاهدا ومعلما.

الأستاذ إبراهيم السليماني : سبق لنا التعرف عليه لما كان زائرا لابن بلدته وصهره فيما بعد الفقيه العتيق بالمدرسة الشيشاوية، فسهل علينا ذلك إزالة الدهشة من أسئلته وطريقة حديثه.

الفقيه النبيه الباقعة البعمراني أيضا سيدي الطيب عفيف، الذي كان من أوائل من أختيروا للتدريس بالمعهد الإسلامي ضمن كوكبة من الباعمرانيين النجباء، والذي أصبح في سلك القضاء بعد ذلك، وضمن أبرز علماء سوس وجمعيتهم، ولقيته

بعد ذلك خلال رمضانات القرن الماضي أثناء الدروس الحسنية، وكانت تصرفاته مع الطلبة بالمعهد وأجوبته المسكتة، وقلة توسعه في الكلام، وحسن ضبطه لفضول الطلبة، مضرب الأمثال عند الخاص والعام، إلى درجة تلقيبه من طرفهم إعجابا (بسيدي الطيب سخط الله)! وهي عبارة إعجاب في العامية المغربية إلى اليوم تقوم مقام (الباقعة) العربية الاستعمال، والتي كان أستاذنا محمد المختار يطلقها على أحد نبغاء المدرسة الرميلية ومحافظ خزانة ابن يوسف الأستاذ البحاثة الطلعة والكتبي الخريت (علي بن المعلم).

وقد توفي سيدي الطيب سنة **2014** بأگادير عن سن متقدمة بقي معها يمارس التدريس والوعظ بمسجد أبي بكر الصديق بحي القدس، وكان صهري الحسن الأدوزي يتصل به باعتباره أستاذا قديما له بالمعهد، ويحاول مخالطته فيصحبه الفقيه إلى باب بيته، ثم يودعه كعادته في تجنب الاختلاط بالبشر عامة.

وكان الفقيه سيدي الطيب ينظر إلى عموم حضور وعظه نظرة لا تخلو من طرافة وانتقاد واستخفاف بعقولهم التي يغلب عليها التقليد والذي يظهر أنه كان على خصام شديد، ومكتوم! خوفا على عقول عامة الطلاب وبعض متعالمي المثقفين المتسلفين المقلدين الحاضرين لوعظه، فربما تعمد إشعارهم بذلك، وخاصة وهم يكتفون بمجرد الحضور، ولا يقدمون من دلائل محبتهم إلا ذلك، فكان إذا احتقن بالمسجد المذكور ربما تخلص من ذلك أمام فناء المكان على شجرة أمام هؤلاء المتدينين المحتاطين منه رحمه الله.!!!!

الفقيه محمد بلباز : ومن هؤلاء الألمعيين في التدريس والكرم والتوقيت والاجتهاد وضبط الطلبة بالمعهد الإسلامي بتيزنيت الفقيه (محمد بلباز) آنف الذكر، زميل العتيق في الرميلة والقرب المكاني بين الرجلين، وتبادل الزيارات والمشاورات،

وكنت أرمقه بإعجاب لظهور بريق الذكاء من طلعته ولابتسامته الدبلوماسية مع الجميع، ولكرم مطبخ المعهد آنذاك، وهو أول مطبخ للطلاب نتناول فيه الوجبات أثناء فترة الاختبارات، وتأطير الفقيه محمد بلباز مدير هذا المعهد للجميع مباشرة إيواء وأقساما وأدوات وتنظيما للوقت وإشرافا على الصلوات والحزب، وإيقاظا للجميع ليلا للاستعداد، وقد كنت محبوبا لديه لمعرفته بالأسرة والوالد وقرية العوينة التابعة لتيزنيت، ولقرابة لي (بِإِذْ الباز) الموجودين في منطقة محسوبة على قرية أگلو مسقط رأسه يسمى (الگعدة) فيها خالتي وخالي محمد وأخوه، وكانوا يزورون الوالد والوالدة بالعوينة وأزارني الوالد بعد ذلك ذات ربيع هذه القرية حتى يعرفني على هذه الأسرة من أخواله، كما اعتبر الفقيه بلباز بعد ذلك نجاحي مصليا أو مجليا مع أحد أذكياء طلاب المعهد (محمد الجداوي)! علامة تدل على شيء من النبوغ المبكر، فكان يعاملني معاملة خاصة ويناديني ب (أُوْلْعْوِينَة) كيف حالك وحال الوالد؟ وكان الوالد في هذه الفترة قريبا منه باعتباره مشرفا على أحد (فنادق) تيزنيت آنذاك صحبة زميله الحرفي في الفندقة (الحسن أمْجُّوض).



مجموعة من العلماء الذين كانوا ضمن وفد علماء سوس الذي التقى بجلالة الم
. الخامس وهم هنا في منزل الحاج الحسَن الراجي بالدار البيضاء .

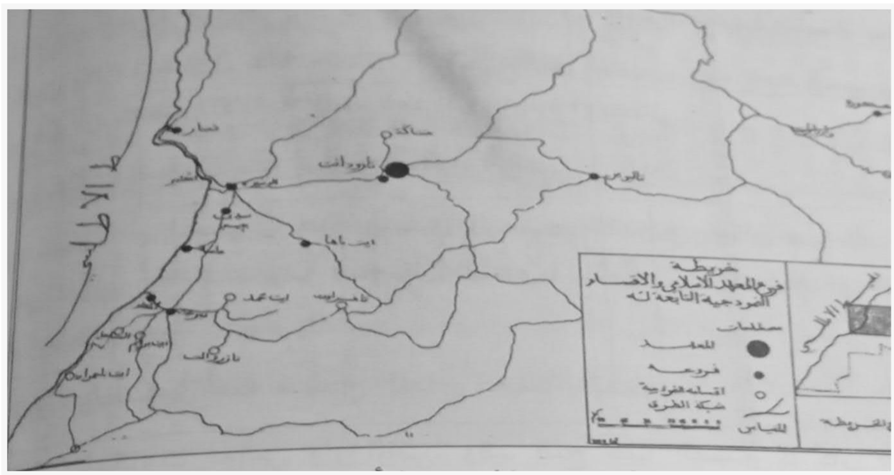
صورة نادرة تتعلق بتجديد بيعة علماء سوس والتماسهم من صاحب الجلالة محمد الخامس أن يأذن لهم بتأسيس معهد كبير جامع للمدارس العلمية العتيقة بسوس وتبشيرهم من السلطان بالاذن لهم مع مساهمة مالية منه رحمه الله[1]

وهم على التوالي: (1) القاضي ابراهيم أرفاك (2) محمد المصلوت (3) امحمد العتيق (4) امحمد المسلوت (5) احمد المسعودي (6) عبد الله الوفقاوي (7) احمد العدوي (8) امحمد العثماني (9) محمد بلباز (10) احمد عفيف (11) عبد الرحمان مستغفر الإنزكاني.

(1) من كتاب معهد تارودانت للزميل عبد الله كيكر مطابع الرباط نت.



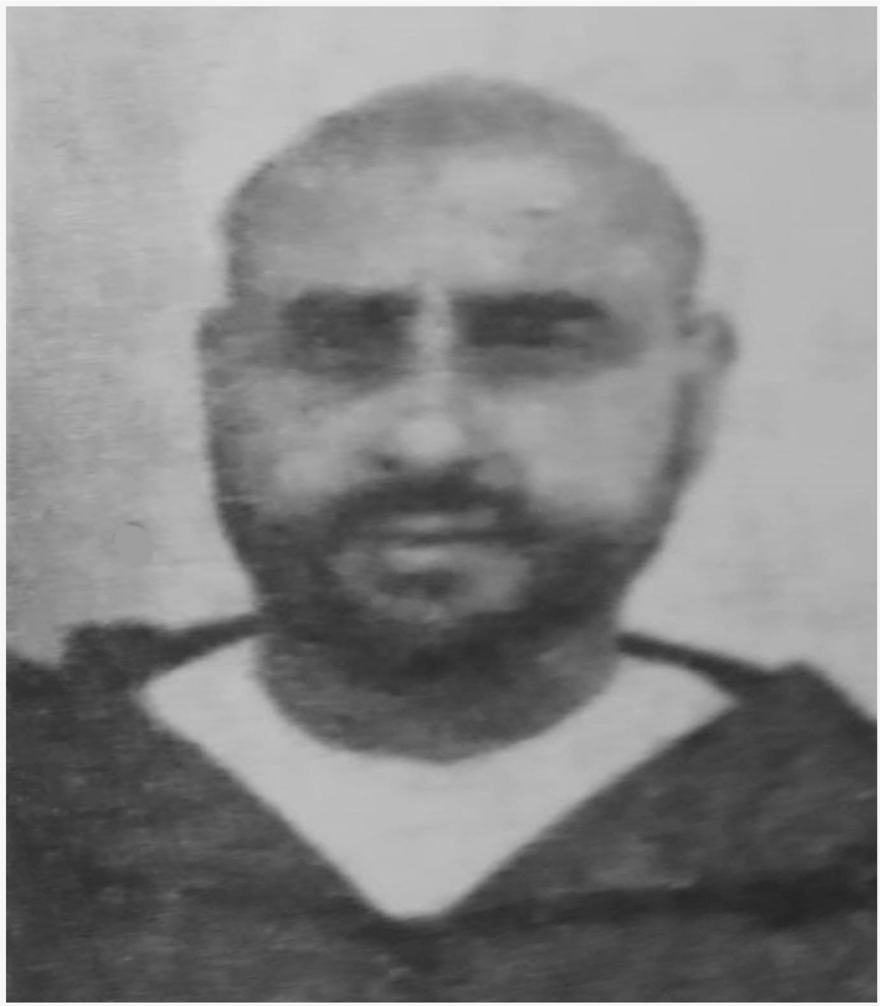
محمد الخامس في زيارته للمعهد سنة 1959



خريطة فروع المعهد الاسلامي والأقسام النموذجية التابعة له في تيزنيت وأيت باها وماسة وسيدي بيبي وأكلو وتاليوين وبقية الأقسام الأخرى المشار إليها في الخريطة[1]

---

[1] من كتاب معهد تارودانت للزميل عبد الله كيكر مطابع الرباط نت.



صورة نادرة للعلامة الفقيه المؤقت محمد بلباز الخطيب المنافح بالمسجد الجامع الكبير ومدير القسم الفرعي للأقسام النموذجية التابعة لمعهد تارودانت وأول من أشرف علينا في اجتياز الشهادة الابتدائية التابعة للمعهد ولأول مرة[1]

[1] من كتاب معهد تارودانت للزميل عبد الله كيكر مطابع الرباط نت.

الطالب الباعمراني جُهادي الحسين: وممن أسعدت بعد ذلك في الإقامة بدكانهم بالمعهد أشهر الصيف 1956 وتمهيدا للانخراط في معهد ابن يوسف عند افتتاح الدراسة به لدواع سابقة ولاختيار أبناء سيدي عبلا الأدوزي، وأبناء شيخي سيدي علي التسجيل به باكرا قبلي والذي اجتاز معنا هذا الامتحان فطلب مني وأنا أتردد تارة على منزل الوالدة والوالد قريبا من المعهد، وأخرى على المعهد للاستزادة أن نفتتح معا بعض المواد الدقيقة الخادمة للفكر والعقل، فاخترنا نظم (متن السلم في المنطق) وشرحه للقزويني وهو مطبوع آنذاك، واخترنا له طريقة اللوح والتقرير، وقد واكبني هذا الزميل بمعهد ابن يوسف بعد ذلك وواكبته وهو بتارودانت سنوات 1957 - 1959 وأنا بابن يوسف، ثم صاحبته وهو بابن يوسف سنوات 1957 - 1960 كما تصادف أن تخرجنا في المدرسة العليا للأساتذة الفترة نفسها قبل أن أجده في الأنشطة الأمازيغية للجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي سنة 1967 وما بعدها، وفي مناسبات شبيهة منها بموسم بلدتهم (بأيت بعمران) المسمى (سيدي محمد بن عبلا)، حيث استضافني كعادته بسكن أقاربه، كما صحبته باحثا في التراث التحقيقي الذي تخرج فيه واهتم فيه خاصة التاريخ المغربي الأمازيغي، وكان آخر لقاء لنا (بندوة آيت بعمران) منذ سنوات، حيث أسهمت بقصيدة في هذا الموضوع، وأسهم هو في مآثر الجهة وتاريخها، ليبرز كأول مترجم بعد ذلك للقرآن الكريم، وسيرة ابن هشام، وصحيح البخاري إلى اللغة الأمازيغية! متحديا كعادته في شجاعة وصلابة باعمرانية، الصعوبات والانتقادات والملامات ومصرا على الاستمرار وسط العواصف[1].

---

[1] له مولفات بارزة في خدمة التاريخ والثرات السوسي والأمازيغي ترجم القرآن الكريم إلى الأمازيغية لأول مرة، وأول الدواوين بالأمازيغية ومقالات وحلقات دينية مذاعة، وترجم تجريد البخاري إلى الأمازيغية، وله مؤلفات أخرى في خدمة التاريخ المحلي السوسي، وهو من مواليد البيضاء سنة 1949م السنة التي التحقت فيها بالدار البيضاء.

ذكريات بعضها مؤلم ولكنه محمود العاقبة خلال هذه الفترة من بداية الاستقلال

من هذه الذكريات الطريفة، أن أول معرفة لي بالمخزن التيزنيت ي وارث تقاليد الفرنسيين بعيد الاستقلال مباشرة، وفي احتفال بعيد العرش بمسبح بلدية تيزنيت، والوالد صاحب فندق ومقهى بها، ونحن من ساكنتها آنذاك، أنني خرجت بعد الزوال للفرجة على هذا الاحتفال المتضمن لمسابقات في السباحة، مقتحما حمى هذا المسبح الذي كان خاصا بساكنة تيزنيت من المقيمين والمستخدمين الفرنسيين وموظفي (بيرو وأعْرَابْ) من المغاربة الأعوان، فما كان من العون إلا أن ساقني فجأة إلى هذا (المكتب) باعتباري مقحما لا مدعوا. وانتظرت نهاية الحفل لأفاجأ بموظف طويل أزعر اللون ذي ملامح قاسية من أصول طنجوية ينوب عن العمدة الفرنسي بعد أن بدأ الفرنسيون ينسحبون من الإدارة المغربية، فلم يمهلني ولم يسألني إلا بعد صفعة قوية لا تزال هزتها ترن في أذني، ولما سألني عن الوالد والمدرسة والمكان تبين له سلامة طويتي فأطلق سراحي لأخبر الوالد بذلك، وهو يعرفه حق المعرفة، وربما اعتذر له بعد ذلك بجهله بعدم معرفة والدي قبل السؤال.

وتشاء الأقدار أن أحل بمراكش سنة 1956- 1957 صيفا وألتحق بكلية ابن يوسف وأعطى سكنا مع زملاء من أصول سوسة، كانوا معي في الكُتَّابِ قبل حلولهم بمراكش، منهم نجل الفقيه سيدي (علي آيت الهماني) فإذا بي أسمع أن هذا الطالب اليوسفي ونحن في رياض يسمى روض القاضي (البزيوي) بدرب ضباشي، وبداخله (درب مولاي عبد القادر) عبد الله أبواتي يخبرنا باستدعاء أسرة الموظف السابق بتيزنيت من (آل العلو) السلاويين، أصهار حاكم تيزنيت في آخر الفترة الاستعمارية

(القائد الفاطمي البربوشي) من جهة أختهم الكبرى في قصة للزواج تروى لطرافتها[1] وكان من بين أفراد هذه الأسرة الراغبين في محاربة الأمية العربية لترقية مستواهم الإداري والدة عبد القادر العلو والأبناء الثلاثة: زوجة الموظف السابق بتيزنيت والحاكم المفوض بعد ذلك بالصويرة ثم بمراكش، وهو صاحب الصفعة الحادة التي لا تنسى، وأخوه الطبيب العلو، والتلميذ الأصغر عبد الجليل العلو.

وكان زميلي عبد الله أبواتي يخصص لزوجة هذا الحاكم المفوض دروسا بمنزله ليلا، وتقوم زوجة الحاكم بإطعامه، وتتولى ضيافته شخصيا، وكانت متواضعة الجمال غير منجب ولا ولود، قنع بها هذا (الحاكم صاحب الصفعة) وكانت تسيطر عليه فلا يبدي حراكا ويقنع بما تقدمه له في اخلاق يغلب عليها شيء من الشراسة والتعنيف! رحم الله الجميع، وكان القاضي لعلو صاحب الصفعة يبعث لنا بالطعام المميز ونحن طلاب، وقد يكون تذكر فعلته أو شك في هذا الفتى اليوسفي الأمازيغي الملامح الذي كان بين يديه في لحظات أوائل الاستقلال، ولم يسأله عن هويته حتى أبدى له بجمع يده عربونا على الغضب والتربية الاستعمارية آنذاك لأبناء المغاربة، وكان من بينهم أخوه تلميذ بتيزنيت بمدرسة الأعيان عبد الجليل، يأخذ نصيبه من الصفع والضرب بالمسطرة تارة وبِجُمْع الكف أخرى عند معلميه في الابتدائي، وبعد ذلك في

---

[1] وذلك أن الموظف المشتغل لدى دائرة الأمن بمراكش جامع الفناء (الحاج عبد القادر لعلو) قدم إلى تزنيت في ضيافة الباشا الفاطمي البربوشي مع أصدقاء لهذا الأخير دون أن يتقدم له معرفة بالموظف عبد القادر لعلو من أصول طنجوية أزعر اللون أزرق العينين، وكأنه موظف جزائري استقدمته فرنسا، وكان الحاج عبد القادر ملازما للصمت، فأخاف ذلك الباشا وتوجس منه! فلما أتيحت الفرصة وتحدث الموظف المذكور باللهجة المراكشية، اطمأن الباشا، واستأنس به قائلا: والله لو كانت عندك بنت في صورتك لخطبتها منك، فقال الحاج عبد القادر: إن طلبك مقبول، وهكذا تزوج الباشا البنت الكبرى للحاج عبد القادر، وبقيت في عهدته إلى آخر أيامه بالمغرب، واستقدم أخاها الأكبر إلى تزنيت موظفا وكاتبا، واحضر بعد ذلك أسرة صهره وبقية الأخوة الذين قضوا شطرا من طفولتهم قبل الاستقلال بتزنيت في المدارس الأهلية الفرنسية.

الثانوي، رحم الله هذا الرجل الذي ترقى فأصبح قاضيا، وعاش معنا خلال الستين من القرن الماضي إلى أن توفاه الله بمراكش.

وهذه قصيدة تعبر عن عن فترة حياة الطالب بمدرسة عتيقة تمثل مدرسة سيدي محند الشيشاوي نموذجا حيا لها بسوس كله، وهي بعنوان :

استحضار المسيار من تلويح الألواح
إلى دراسة المتون الملاح

رَمَى لَوْحَـهُ الْعَتِيـقَ وَسْـطَ جِرَابِــهِ ... وَمَعْـهُ دَوَاةٌ ضُرِّجَـتْ بِمِدَادَهَـــا

وَشَيْءٌ مِنَ السَّوِيقِ وَالزَّيْـتِ وَالّـذِي ... تَقَادَمَ مِنْ تَمْرٍ بَـدَتْ مِـنْ قُشُورِهَـا

وَسِـلْهَامُهُ الصُّـوفِيُّ يَشْـهَدُ أَنَّــهُ ... مُصَارِعُ أَشْـكَالِ الصِّـعَابِ أَلُوفُهَـا

وَفِي الْجَيْبِ صَلْصَالٌ وَعُـودٌ وَمَـادَّةٌ ... مُلَوَّنَةٌ يَسْــرِي إِلَى الصِّـمْغِ سِرُّهَـا

وَوَالِدَةٌ تَـدْنُو إِلَيْـهِ وَتَرْتَجِـي ... لَهُ النُّجْحَ فِي التَّرْحَالِ يَخْفِـقُ جُنْحُهَـا

وَصِـبْيَانُ أَلْـوَاحٍ تَقَـافَزَ بَعْضُـهُمْ ... إِلَيْـهِ جَـرًّا انْعِتَاقِـهِ مِـنْ إِسَـارِهَا

وَدَعْـوَةُ شَـيْخِ الحِفْـظِ تَتْبَعُـهُ إِلَى ... مَـدَارِسِ عِلْـمٍ فِي البَعِيـدِ قَرَارُهَـا

وَهَا هُمْ رِجَالُ القَرْيَةِ اليَوْمَ قَدْ رَنَـوْا ... إِلَيْـهِ وَضَـجَّ بِـالدُّعَاءِ نِسَـاؤُهَا

وَهَـا الفَتَيَـاتُ المُعْجَبَـاتُ بِسَـمْتِهِ ... وَثِقَتِـهِ فِي النَّفْـسِ جَـذْلَى قُلُوبُهَـا

وَهَا وَجْهُـهُ الصَّـبُوحُ أَشْرَقَ ضَـوْءُهُ ... عَلَى الدُّورِ فَـاهْتَزَّتْ لِذَاكَ ظِلَالُهَـا

وَهَــا قِطَّــةٌ أَتَــتْ فَــتُلْقِي بِلَمْسَــةٍ   تَحِيَّتَهَــا إِلَيْـــهِ يَعْلُـــو مُوَاؤُهَـــا

وَهَــا كَلْبَــةٌ لَهُــمْ إِلَيْــهِ قَــدِ ارْتَمَــتْ   دِرَاكًا وَقَــدْ عَــدَتْ إِلَيْــهِ جِرَاؤُهَــا

وَحَامَتْ عَلَيْهِ مَنْ قَرِيــبٍ دَوَاجِـنٌ   وَقَــدْ كَانَ يُلْــقِي لِلصِّــغَارِ بُــذُورَهَا

وَقَدْ أُسْرِجَ الحِمَارُ يَحْمِلُ مَــا ارْتَــمَى   عَلَيْــهِ مَــنْ الأَزْوَادِ خَــفَّ ثَقِيلُهَــا

وَوَالِدُهُ الجَــذْلاَنُ يَجْــنِي غِــلاَلَهُ   قَــدْ أَسْــعَدَهُ مَحْصُــولُهَا وَثِمَارُهَــا

فَيَتْبَعُهُ النَّجْــلُ المُفَــاخِرُ مُسْــرِعًا   يُسَابِقُ رِيحَ النَّصْــرِ يَسْــرِي نَسِــيمُهَا

وَفِي عَيْنِهِ تِلْكَ المَعَاهِدُ قَــدْ دَنَــتْ   إِلَيْــهِ مِــنْ التَّخْيِيــلِ كُلُّ رُمُوزِهَــا

تَنَوَّرَهَــا حِصْــنًا وَحِضْــنَا وَمَوْقِعًــا   مِنَ النُّــورِ وَالنِّــيرَانِ شَــبَّ أُوَارُهَــا

وَجُمْلَــةُ فِتْيَــانٍ فَصِــيحٌ لِسَــانُهُمْ   وَقَــدْ قَــابَلُوهُ مُسْــتَنِيرًا وُجُوهُهَــا

هُوَ العِيدُ يَوْمَ يَقْدُمُ الضَّــيْفُ عِنْــدَهُمْ   فَيُهْدِي إِلَى الأَجْــوَاءِ مَــا يَسْــتَثِيرُهَا

فَــيُلْقِي إِلَى الطُّــلاَّبِ فِــلْذَةَ ذَاتِــهِ   أَبٌ طَالَمَــا سَــعَى لِيَبْلُــغَ شَــأْوَهَا

وَهَــا هُــوَ ذَا الفَقِيــهُ يَــأْمُرُهُمْ بِمَــا   يُنَاسِــبُ طَالِبَــا لِيَرْتَــادَ مَــا بِهَــا

وَفَــرْحَتُهُمْ بِــهِ غَــدَتْ فِي تَسَــاؤُلٍ   وَلَفْتَةِ أَعْنَاقٍ بَــدَتْ فِي انْتِصَابِهَــا

حُمَيَّــاهُمُ تَــزْدَادُ وَقْــدًا فَتَعْــتَرِي   مُحَيَّــاهُمُ أَلْوَانُهَــا وَبَهَاؤُهَــا

وَهَا هُوَ ذَا الفَتَى يَحُــطُّ رِحَالَـــهَ   إِلَى مَرْفِــقٍ اعْتَامَــهُ مِــنْ بُيُوتِهَــا

وَيَسْتَلِمُ المِفْتَاحَ وَالفُــرْشَ وَالَّـــذِي   يُخَفِّفُ مِنْ عَنَــاءِ طُــرْقٍ وَقَطْعِهَــا

وَبَعْدَ الْهَزِيـعِ بـان صـبح فَـيَرْتَمِي إِلَيْهِ صِيَاحُ الدِّيكِ يَهْـزِمُ صَمْتَهَـا
فَيُسَابِقُ الطُّـلاَّبَ لِلصَّـفِّ يَـرْتَجِي لِيَشْـهَدَ فِي الأَسْـحَارِ مَـا يَعْقُبَنَّهَـا
فَيَنْتَقِـلُ الطُّـلاَّبُ شَـوْقًا إِلَى الَّذِي بِـهِ قَـدْ تَعُـودُ لِلنَّشَـاطِ جُسُـومُهَا
فُطُـورًا وَإِعْـدَادًا لِلَـوْحٍ وَمَـا بِهَـا عَلَيْهِ سَيُمْلِي الشَّيْخُ بَعْـضَ دُرُوسِـهَا
هِي الْمَـتْنُ مَـتْنُ آجْـرُّومٍ وَقَـدْ أَتَى أَوَانُ اِشْتِقَاقٍ مِنْـهُ عِنْـدَ ابْتِـدَائِهَا
لَهَـا قَـدْ دَعَا الْمُؤَلِّفُـونَ وَبَعْـدَهُمْ مِـنَ النَّحْـوِيِّينَ بِالنّجَـاحِ لِقَارِيِهَـا
وَلاَ غَرْوَ قَدْ أُلْقِي إِلَى النَّيْـلِ مَتْنُهَـا فَلَمْ تَغْرَقِ الطُّرُوسُ رَغْمَ اِنْغِمَاسِـهَا
وَهَـا هُـوَ يَخْـتِمُ النِّصَـابَ وَشَـيْخُهُ لَهُ قَـدْ دَعَا عِنْـدَ الخِتَـامِ بِفَهْمِهَـا
أَعَـدَّ لَهُ الطُّـلاَّبُ شَـايًا مُعَطَّـرًا وَأَسْعَدَهُمْ أَنْ صَـارَ مِـنْ زُملاَئِهَـا
وَهَا هُمْ يُعِيـدُونَ افْتِتَـاحَ فَقِـيهِهِمْ عَلَيْـهِ لَهَـا مَعْـهُ رَجَـاءَ احْتِوَائِهَـا
وَمَـا مَـر شَـهْرٌ فِي الْمَسِـيرِ بِـهِ إِلَى أَوَاسِطِهَا حَتَّى اسْـتَقَامَتْ كُعُوبُهَـا
فَنَقَلَـهُ الْفَقِيـهُ مَعْهَـا إِلَى الَّذِي يُمَـيِّزُ جُمْـلَاتٍ فَصِـيحٍ كَلاَمُهَـا
بِهِ رَكِبَ الْبَحْرَ الطَّوِيـلَ وَقَـدْ دَنَـا إِلَى نُبَـذِ الْـكَلاَمِ يَعْلُـو مُتُونَهَـا
كَمِثْـلِ أَتَى زَيْـدٌ أَوِ الْحَـقُّ وَاضِـحٌ أَوْ إِنْ قَامَ زَيْدٌ شَذْرَةً مِـنْ عُقُودِهَـا
كَلاَمًـا تُسَـمَّى إِنْ أَفَـادَتْ وَجُمْلَـةً وَإِلَّا فَتُسْـمَى جُمْلَـةً فَاعْرِفَنَّهَـا
وَهَـا هُـوَ ذَا الْفَـتَى يَسَّـمَّعُ وَاعِيًـا إِلَى الْعُرَفَـاءِ يَمْهَـدُونَ طَرِيقَهَـا

وَيَبْتَدِرُونَـــــهُ بِلاَمِيــــةٍ غَــــدَتْ   سَفِينَةَ عِلْمِ الصَّـرْفِ صَـعْبٌ وُلُوجَهَـا
فَضَمَّتْ مِنَ السَّمَاعِ وَالْقَـيْسِ كُلَّ مَـا   يُسَـاعِدُ طُلاَّبًـا عَلَى ضَـبْطِ مَتْنِهَـا
لَهَـا شَـمَّرَ ابْـنُ مَالِـكٍ فِي زَمَانِـهِ   فَأَنْشَــأَهَا مَشْــحُونَةً بِغَرِيبِهَــا
فَلَا يَسْـمَعُ الطُّـلاَّبُ غَـيْرَ شَـوَارِدٍ   كَزَهْزَقْتَ هَلْقَمْتَ اكْوَأَلَّـتْ جُمُوعُهَـا
وَمِثْلَ تَرَهْشَفَ اجْفَـأَضَّ وَقَطْـرَنَ   وَطَلْمَسْتَ كَلْتَبَ اهْرَعَمَّتْ دُمُوعُهَـا
وَهَا هُـوَ يُـتْقِنُ الْمَـوَازِينَ عِنْـدَمَا   يُقَـالُ لَهُ مَـا الْـوَزْنُ ؟ لَا يُخْطِئَنَّهَـا
وَهَا هِيَ الْمُشْـتَقَّاتُ تَـدْنُو فَيَنْـبَرِي   إِلَى مُعْجَمِ الْمِصْبَاحِ مَازَ جُـذُورَهَا
وَأَسْــمَاءَ آلَــةٍ وَأَسْــمَاءَ مَــرَّةٍ   وَأَسْــمَاءَ هَيْئَــةٍ يَطُــوعُ بِنَاؤُهَــا
وَمَا شِئْتَ مِـنْ مَصَـادِرٍ وَظُروفِهَـا   وَمِيمِيِّهَــا وَزَائِــدٍ مِــنْ حُروفِهَــا
تَمَلَّكَ فِي الْأَخِـيرِ إِعْـرَابَ مَـا قَـرَا   وَفَكَّ مِنَ الْعُجْمَـاتِ بَعْـدَ إِسَـارِهَا
فَأَسْرَعَ فِي فَهْمِ الضَّــرُورِيِّ فَهْمُـهُ   مِنَ الْفِقْهِ وَالتَّوْحِيدِ يَزْكُـو بِفَهْمِهَـا
وَكَانَ ابْــنُ عَاشِرٍ لَهُ خَـيْرَ مُرْشِـدٍ   مُعِـينٍ وَمَرْكَبًـا إِلَى وَسْـطِ بَحْرِهَـا
بِأَرْجَـازِهِ قَـدِ اِسْـتَقَامَتْ حَنَـاجِرٌ   وَأَسْرَعَتِ الْأَذْهَـانُ فِي فَهْـمِ شَرْعِهَـا
وَشَــارَطَ طُـلَاَّبٌ بِكُتَّـابِ قَرْيَـةٍ   فَقَامُوا بِشَأْنِ الدِّينِ عِنْـدَ عُمُومِهَـا
وَثَــنَّى بِمَــتْنٍ لِلرِّسَــالَةِ تَــالِدٍ   وَلاِبْـنِ أَبِي زَيْـدٍ فَضَـائِلُ نَشْــرِهَا
وَهَا هُوَ يَدْنُو مِـن قريـب إِلَى ذُرًى   مِنَ الْأُمَّهَـاتِ الشَّاسِـعَاتِ دُرُوبُهَـا

فَيَضْـرِبُ فِي جُـلِّ الْعُلُـومِ بِسَـهْمِهِ   يُعَـــاوِدُ أَنْظَـــارًا بِهَـــا وَيُجِيلُهَـــا
إِلَى أَنْ غَدَا رَبَّ الْقَـرِيضِ وَنَظْمِـهِ   وَرَبَّ الرَّسَـــائِلِ الْبَـــدِيعِ نِظَامُهَـــا
فَيَلْتَجِـئُ الشَّـــادُونَ نَحْـوَ مَعِينِـهِ   يَسِـيرُ بِهِـمْ إِلَى المَبَـادِي يُثِيرُهَـا
أَثِـــيرًا لَدَى شَـــيْخٍ لَهُ فِي نُبُوغِـــهِ   وَخِدْمَتِـــهِ لَهُ فَيُعْلِيـــهِ شَـــأْوُهَا
يُشَارِكُ فِي حَرْثِ وَغَرْسٍ وَجَـنْيٍ مَـا   تَعَاهَدَهُ الطُّلَاَّبُ مِنْ عَـزْقٍ بَقْلِهَـا
وَمَا هَيَّـأَ السُّـكَّانُ مِـنْ غَلَّـةٍ لَهُـمْ   بِهَا يُسْتَدَامُ الْعَيْشُ بَعْـدَ احْتِوَاشِـهَا
فَيُحْيِي مَعَ الطُّلاَّبِ ذِكْـرَى مَوَاسِـمٍ   عَـــوَاشِرَ مِـــنْ أَيَّامِهَـــا وَشُـــهُورِهَا
وَيَمْــلأُ لَوْحًــا بِانْتِسَــاخِ قَصَــائِدٍ   مِنَ اللاَّمِيَاتِ الغُرِّ بُـورِكَ حِفْظُهَـا
كَلاَمِيــةٍ لِلْعُــرْبِ صَـعْبٍ لُغَاتُهَــا   بِهَا الشَّنْفَرَى يَعْدُو مَعَ الذِّئْـبِ خِـدْنِهَا
أَقِيمُوا بَـنِي أُمِّي صُـدُورَ مَطِـيِّكُمْ   فَـإِنِّي إِلَى قَـوْمٍ سِـوَاكُمْ مُقِيمُهَـا
وَلاَمِيةِ الطُّغْـرَائِيِّ السِّـحْرُ لَفْظُهَـا   وَلاَمِيةِ ابْنِ الْوَرْدِيِّ السَّـهْلِ بَحْرُهَـا
وَمَا شِئْتَ مِـنْ هَمْزِيَّـةٍ تِلْـوَ بُـرْدَةٍ   هُمَـا لِلْبُصَـيْرِي جُنَّتَـانِ لِقَارِيهَـا
وَمَا شِئْتَ مِنْ تَنْزِيـهِ لَحْـظٍ بِـأَرْبُعٍ   بِهَـا افْـتَرَّ مَبْسِـمُ الرَّبِيـعِ بِثَغْرِهَـا
وَمَــا أَزَّ نَحْــلٌ فِي خَلاَيَــاهُ هَازِجًــا   شَرَتْهُ يَدُ المُشْـتَارِ عِنْـدَ امْتِلاَئِهَا
فَأَهْدَى لَهُـمْ مِنْهَـا الْفَقِيـهُ تَجَارِبًـا   قَـدِ امْـتَلَأَتْ أَثْقَابُهَـا بِمُجَاجِهَـا
وَهَا هُمْ حَنِيْنٌ نَحْـوَ مَوْسِـمِ عَامِهِـمْ   بِــ "لَلاَّ تَـاعْلاَّتٍ" يَشُـدُّونَ نَحْوَهَـا

يُقِيمُونَ حَلْقَاتٍ وَيُحْيُونَ مَا مَضَى … مِنَ الْمَجْدِ فِي ذُرَى حِمَاهَا وَنُزْلِهَا

يُمَتِّعُهُمْ زُوَّارُهَا وَمُرِيدُهَا … بِجَائِزَةٍ لِلْحِفْظِ بُورِكَ قَدْرُهَا

وَهُمْ يَسْتَضِيفُونَ الْجَمِيعَ وَقَدْ غَدَوْا … أَكَارِمَ فِتْيَانًا وَخُدَّامَ ضَيْفِهَا

وَقَدْ زَوَّدُوا مَحْصُولَهُمْ بِتَبَادُلٍ … لِمَا هَيَّئُوهُ مِنْ مُتُونٍ بِطَبْعِهَا

فَزَادَهُمُ الْمَوْلَى جَمَالًا وَبَهْجَةً … وَفَاضَتْ قُلُوبٌ بِامْتِلَاءٍ بِحُبِّهَا

وَأَضْحَى خَيَالُهُمْ يَفِيضُ قَصَائِدًا … تُنِيرُ لَهُمْ طُرْقًا يَعِزُّ اقْتِحَامُهَا

بِهَذَا الْمَسِيرِ سَارَ أَجْدَادُنَا عَلَى … عَدِيدِ الْقُرُونِ فِي اعْتِنَاءٍ بِنَشْئِهَا

تَنَقَّلَ طُلَّابٌ لَنَا بمَعَاهِدٍ … وَزَادُهُمُ صِمْغٌ بِصَلْصَالِ لَوْحِهَا

فَأَصْبَحَ هَذَا الْيَوْمَ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ … إِمَامٌ أَصِيلٌ مُصْلِحٌ لِعُمُومِهَا

يُؤَطِّرُ أَقْوَامًا وَيَخْطُبُ فِيهِمُ … وَيَحْضُرُ أَفْرَاحًا لَهُمْ فِي خُصُوصِهَا

وَيُقْرِئُهُمْ فِقْهًا وَعَقْدًا كَذَا الَّذِي … يُؤَثِّرُ فِيهِم مِنْ مَوَاعِيظِ وَجْدِهَا

وَيُحْيِي لَهُمْ لَيْلَ الْقِيَامِ صَلَاتَهُمْ … تَرَاوِيحَ قُسِّمَتْ عَلَى اللَّيْلِ قَدْرَهَا

وَيَحْفَظُ مَذْهَبًا عَرِيقًا وَمَالِكًا … وَمَقْرَأَ نَافِعٍ يُلَقِّنُ طِفْلَهَا

وَمَا شِئْتَ مِنْ سَمْتٍ جَمِيلٍ وَعِمَّةٍ … وَبُلْغَتُهُ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا

وَأَقْمِصَةٍ بِيضٍ وَجُبّتُهُ غَدَتْ … مِنَ الْغُسْلِ وَالإِنْهَاكِ يَبْدُو خِلَالَهَا

وَلِحْيَتُهُ وُسْطَى فَلَا هِيَ نَشْرَةٌ … نَشَازٌ وَلَا تَبْدُو يُنَفِّرُ شَكْلُهَا

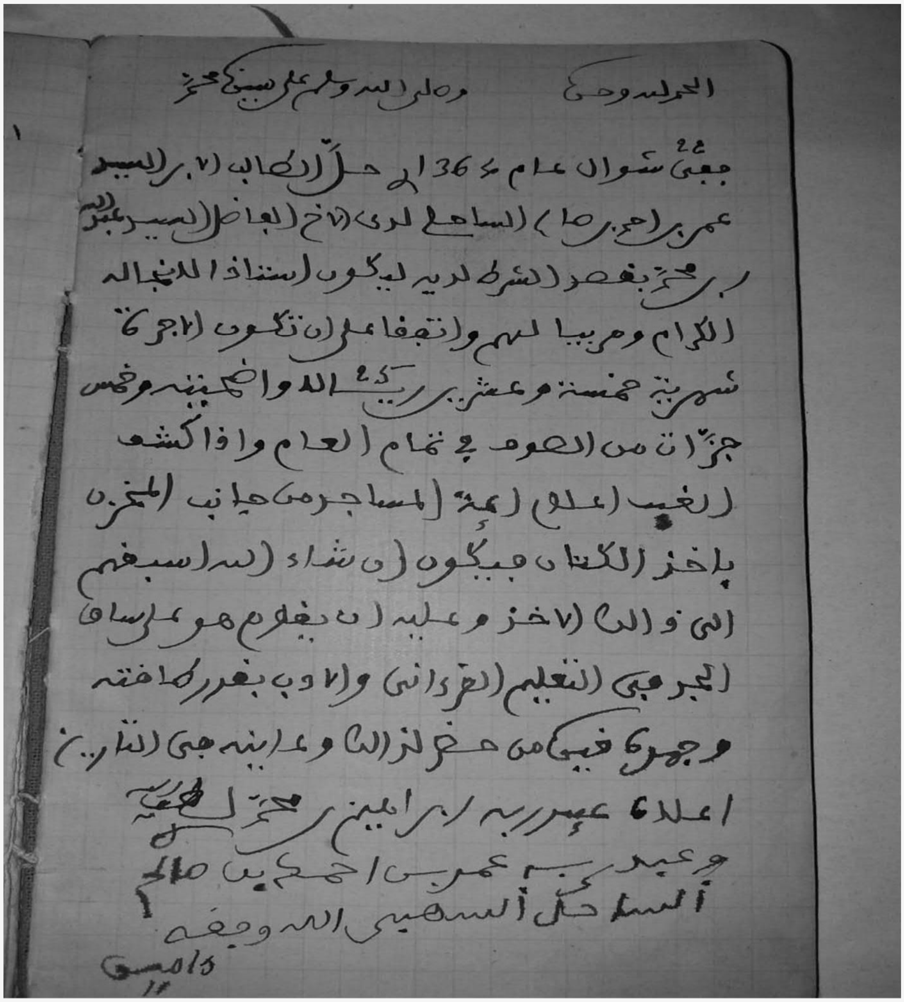
تَوَاضُعُهُ مَاءٌ نَمِيرٌ وَدَأْبُهُ   سِيَادَةُ خَيْرِ الرُّسْلِ يُعْلِيه أَجْرُهَا
شَفِيقٌ بِأُمَّةٍ سَمِيعٌ لِعَالِمٍ   رَحِيمٌ بِمُذْنِبٍ وَهِمٌّ بِأَمْرِهَا
مُحِبٌّ لِعِتْرَةِ الرَّسُولِ بِشِدَّةٍ   وَسَاعٍ إِلَى الإِعْوَانِ فِي حِفْظِ عَهْدِهَا
فَلَا هَزَّهُ إِرْجَافُ دَعْوَى وَنِحْلَةٌ   وَمَهْدِيَّةٌ تَجْتَاحُ جُهَّالَ فِقْهِهَا
تَصَوُّفُهُ جُنَيْدِيُّ السَّمْتِ وَالْهُدَى   وَأَذْكَارُهُ فُصْحَى كَتُومٌ لِسِرِّهَا
وَدَعَوْتُهُ وُسْطَى تَعُمُّ مَشَارِقًا   وَإِفْرِيقْيَا وَالْغَرْبَ يَسْعَى لِنُجْحِهَا
وَهَا هُوَ لِلْمُخْتَارِ يُسْلِمُ وَجْهَهُ   وَقَدْ رَسَمَ الْمُخْتَارُ قِدْمًا رُسُومَهَا
يُقِيمُ لَهُ ذَا الْيَوْمِ نَدْوَةَ عَارِفٍ   بِأَنَّ رِضَى الْمُخْتَارِ فِي بَعْثِ مَا بِهَا
مَدِينَتُهُ الْفُضْلَى مُرَّاكُشُ قَدْ دَنَتْ   إِلَيْهِ أَخِيرًا فِي اعْتِرَافٍ بِحُبِّهَا
وَهَا هُمُ أَبْنَاءُ الرَّمِيلَةِ قَدْ أَتَوْا   إِلَيْهَا عُطُورًا مِنْ عَبِيرِ طُيُوبِهَا
وَمَا فِيهِمُ إِلاَّ نَجِيبٌ وَمَاهِرٌ   وَضَارِبُ سَهْمٍ فِي الْعُلُومِ بِأَسْرِهَا
فَثَنِّ إِلَهِي بِالتَّرَحُّمِ خَالِصًا   عَلَى شَيْخِنَا الْمُخْتَارِ عِنْدَ اخْتِتَامَهَا
وَجَازِ مُقِيمِي نَدْوَةٍ بِمُرَّاكُشٍ   عَلَى جَمْعِهِم أَنْجَالَهُ بِرِيَاضِهَا
وَمَعْهُمْ مِنَ الإِخْوَانِ خِيرَةُ نُخْبَةٍ   وَقَدْ عَمَّقُوا أَنْظَارَهُمْ فِي بُحُوثِهَا
فَيَارَبِّ فَارْزُقْنَا بِصُحْبَتِهِمْ رِضًى   وَنَجِّ عُبَيْدًا مِنْ لَظًى وأَتُونِهَا
وَصَلِّ إِلَهِي تَارَةً بَعْدَ تَارَةٍ   عَلَى خَيْرِ مَخْلُوقِ الأَنَامِ شَفِيعِهَا

ختام:

وبهذه الأبيات أكون قد تحدثت عن هذه الفترة من الذكريات الممتدة من سنة 1941 إلى غاية الاستعداد للسفر إلى معهد ابن يوسف لاستئناف المسيرة الدراسية بالسلك الثانوي آنذاك راجيا من المولى أن يمد في أنفاس العمر ليمكن الحديث عن هذه الفترة الممتدة إلى سنة 1978 بما فيها التكوين والدراسة التربوية بكل من مدرسة المعلمين والمعلمات وتولي الحراسة العامة بها 1962/1960 إلى أن نجحت في مباراة المدرسة العليا للأساتذة بالرباط 1962/ 1964 مرورا بالتعليم الثانوي بثانوية المنصور الذهبي والحصول على إيسانس الدراسات العليا بكلية اللغة العربية والالتحاق سنة 1974 بدار الحديث الحسنية والتعيين على إثر ذلك بكلية اللغة العربية سنة 1979 مساعدا فأستاذا مساعدا بعد الحصول على دبلوم الدراسات العليا شعبة الشريعة بكلية آداب الرباط، وهي فترة طويلة نسبيا إنتهت بالتقاعد بها عام 2002 والتعيين بالمجلس العلمي المحلي لمراكش إلى حين الالتحاق بالمجلس العلمي الأعلى سنة 2019.

الملحق

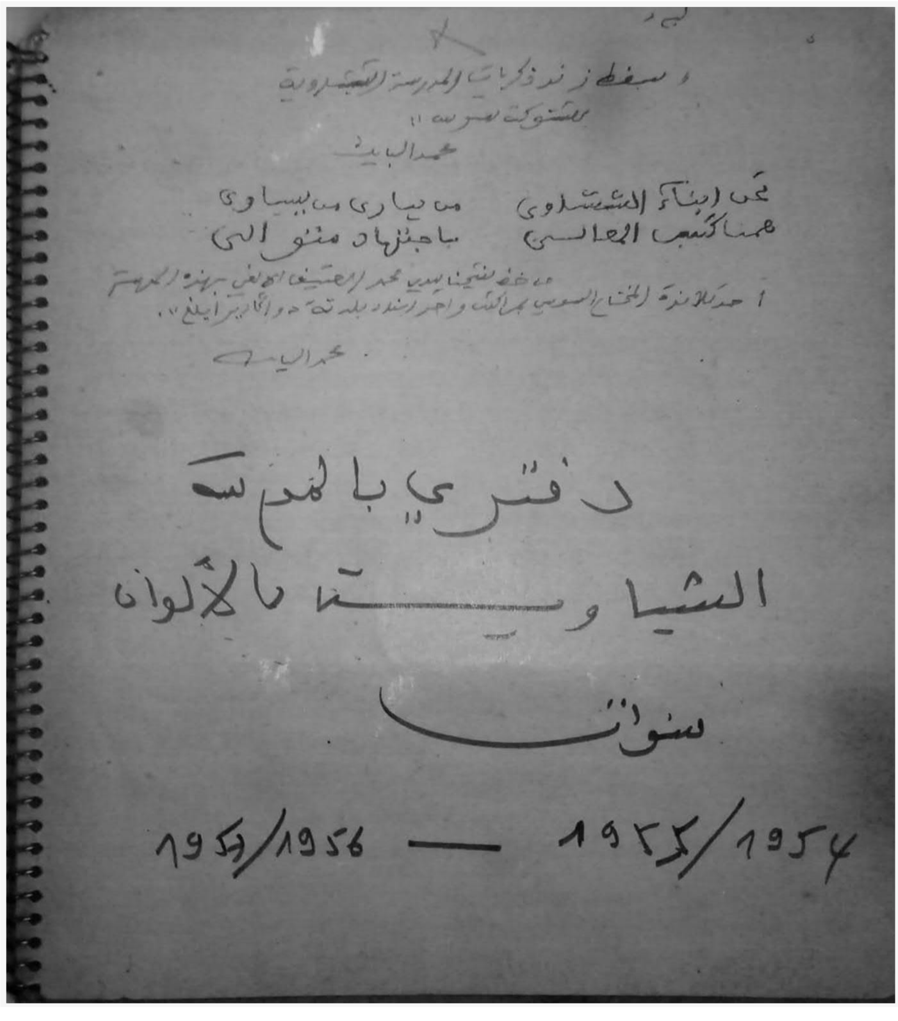
(أ)


الحمد لله وحده وصلى الله وسلم على سيدنا محمد

في 24 شوال عام 1436 اي حل الطالب الحاج السيد
عمر بن احمد بن صالح الساحلي لدى الاخ الفاضل السيد عبد الله
بن محمد بقصد الشرط لديه ليكون استاذا للانجال
الكرام ومربيا لهم واتفقا على ان تكون الاجرة
شهرية خمسة وعشرين ريالا واضحيتين وخمس
جزات من الصوف في تمام العام واذا كشف
الغيب اعلى ائمة المساجد ... المخزن
باخذ الكتان فيكون ان شاء الله اسبقهم
الى نوال الاخذ وعليه ان يقوم هو على ساق
الجد في التعليم القرآني والادب بقدر طاقته
وجهده فيهما من حفظ الله وعنايته في الدارين
اعلاه عبد ربه ابراهيم بن محمد لطف الله به
وعبد ربه عمر بن احمد بن صالح
الساحلي السهيلي الله وفقه

تقييد نادر لمشارطة بقلم الموثق ابراهيم بن محمد الادوزي والطالب المشارط عند أخيه سيدي عبلا عمر بن احمد بن الصالح الساحلي

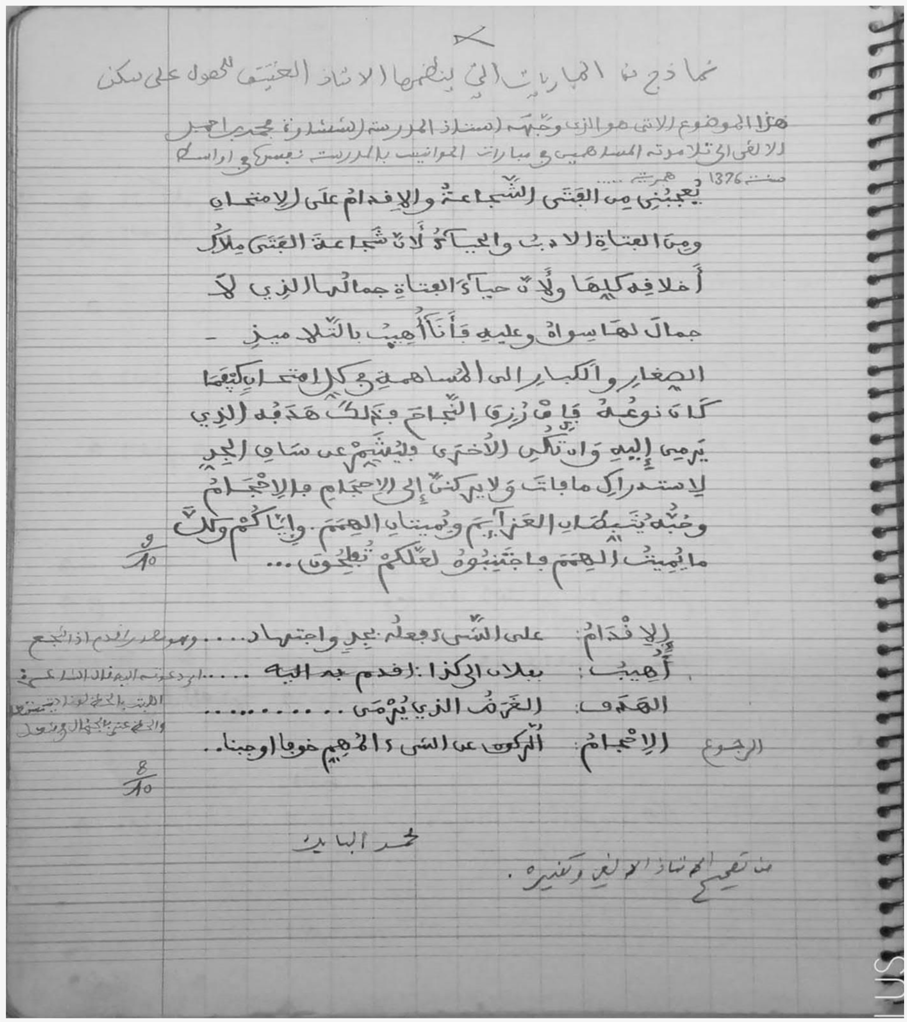
(ب)



الصفحة الاولى من الدفتر المدرسي لسنوات 1955-1957 ويتضمن بيتين كتبهما الفقيه لي على لساني :

نــحــن أبنــاء الشيشاوي   من يباري من يساوي

همنا كسب الــمعـــالــي   باجـتــــهاد مــتـــوالي


نماذج من المباريات التي ينظمها الاستاذ العتيق للحصول على سكن

هذا الموضوع الاتي هو الذي وجهه استاذ المدرسة الشيخ محمد بن احمد [illegible]
[illegible] الى تلاميذه المساهمين في مباريات الجوانب بالمدرسة [illegible] في اوائل
سنة 1376 هجرية .....

يعجبني من الفتى الشجاعة والإقدام على الامتحان
ومن الفتاة الادب والحياء لأن شجاعة الفتى ملاك
أخلاقه كلها ولأن حياء الفتاة جمالها الذي لا
جمال لها سواه وعليه فأنا أهيب بالتلاميذ -
الصغار والكبار الى المساهمة في كل امتحان كيفما
كان نوعه فإن رزق النجاح فذلك هدفه الذي
يرمي إليه وإن تكن الأخرى فليشمر عن ساق الجد
لاستدراك ما فات ولا يركن إلى الاحجام فالإحجام
[illegible] يتسلط على العزائم ويميت الهمم. وإياكم وكل
ما يميت الهمم فاجتنبوه لعلكم تفلحون...

9/10

الإقدام: على الشيء فعله بجد واجتهاد.... [illegible]
أهيب: بفلان الى كذا: أقدم به اليه ..... [illegible]
الهدف: الغرض الذي يرمى ....
الإحجام: الركوب عن الشيء [illegible] خوفا او جبنا.. (الرجوع)

8/10

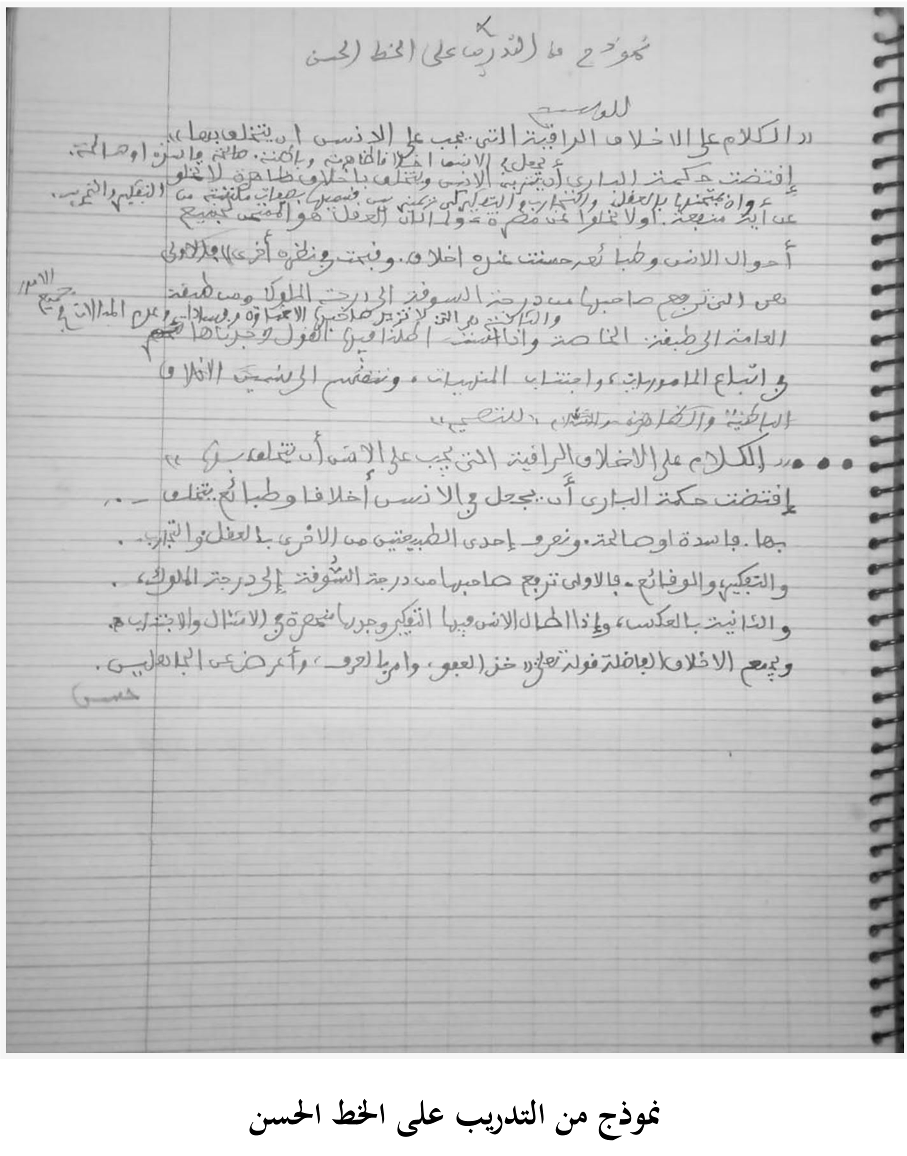
[illegible]

[illegible]

نموذج من المباريات التي ينظمها الأستاذ العتيق

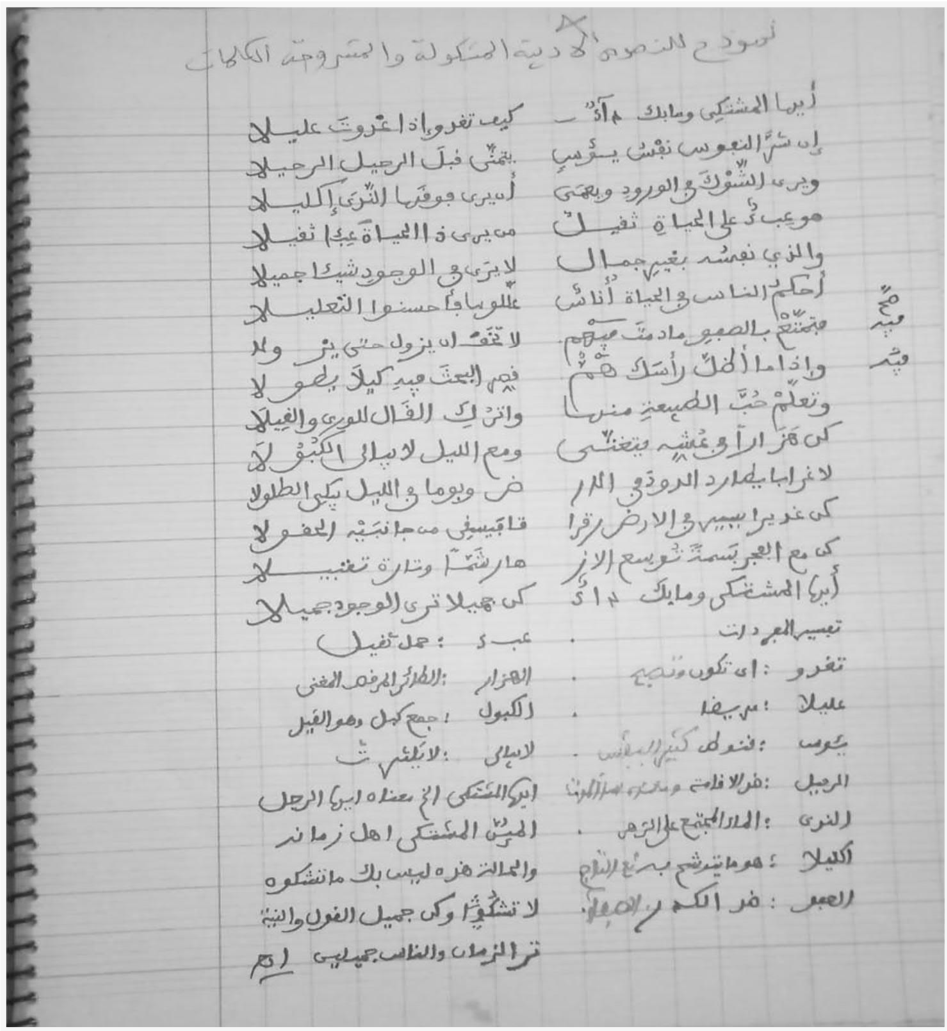
للحصول على سكن أفضل

(د)



نموذج من التدريب على الخط الحسن

(هـ)



نموذج للنصوص الأدبية المشكولة والمشروحة الكلمات

أيها المشتكي وما بك داء ... كيف تغدو إذا غدوت عليلا

إن شر النفوس نفس يؤوس ... يتمنى قبل الرحيل الرحيلا

ويرى الشوك في الورود ويعمى ... أن يرى فوقها الندى إكليلا

هو عبء على الحياة ثقيل ... من يرى في الحياة عبئا ثقيلا

والذي نفسه بغير جمال ... لا يرى في الوجود شيئا جميلا

أحكم الناس في الحياة أناس ... عللوها فأحسنوا التعليلا

فتمتع بالصبح ما دمت فيه ... لا تخف أن يزول حتى يزولا

وإذا ما أظل رأسك هم ... قصر البحث فيه كيلا يطولا

وتعلم حب الطبيعة منها ... واترك القال للورى والقيلا

كن هزارا في عشه يتغنى ... ومع الكبل لا يبالي الكبولا

لا غرابا يطارد الدود في الأر ... ض وبوما في الليل يبكي الطلولا

كن غديرا يسير في الأرض رقرا ... قا فيسقي من جانبيه الحقولا

كن مع الفجر بسمة توسع الأز ... هار شما وتارة تقبيلا

أيها المشتكي وما بك داء ... كن جميلا ترى الوجود جميلا

تفسير المفردات

تغدو: أي تكون وتصبح . عبء: حمل ثقيل

عليلا: مريضا . الهزار: الطائر المرفرف المغني

يؤوس: قنوط كثير اليأس . الكبول: جمع كبل وهو القيد

الرحيل: ضد الإقامة ... . لا يبالي: لا يكترث

الرحيل: [illegible]

الندى: الماء المتجمع على الزهر . أيها المشتكي الخ معناه أيها الرجل المريض المشتكي أهل زمانه

إكليلا: هو ما يترشح به ... التاج . والحالة هذه ليس بك ما تشكوه

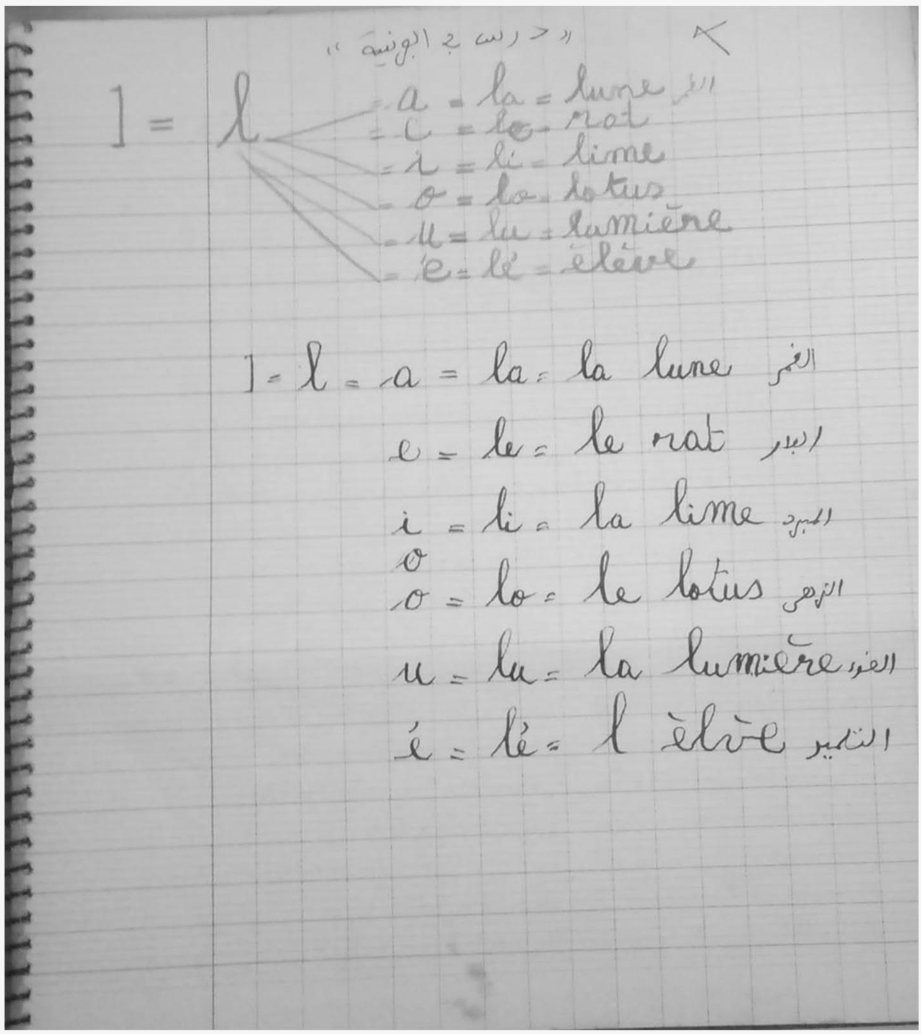
الصبح: ضد الكمد ... . لا تشتكِ وكن جميل القول والنية

ترى الزمان والناس جميلين

صحيح جيد جيد

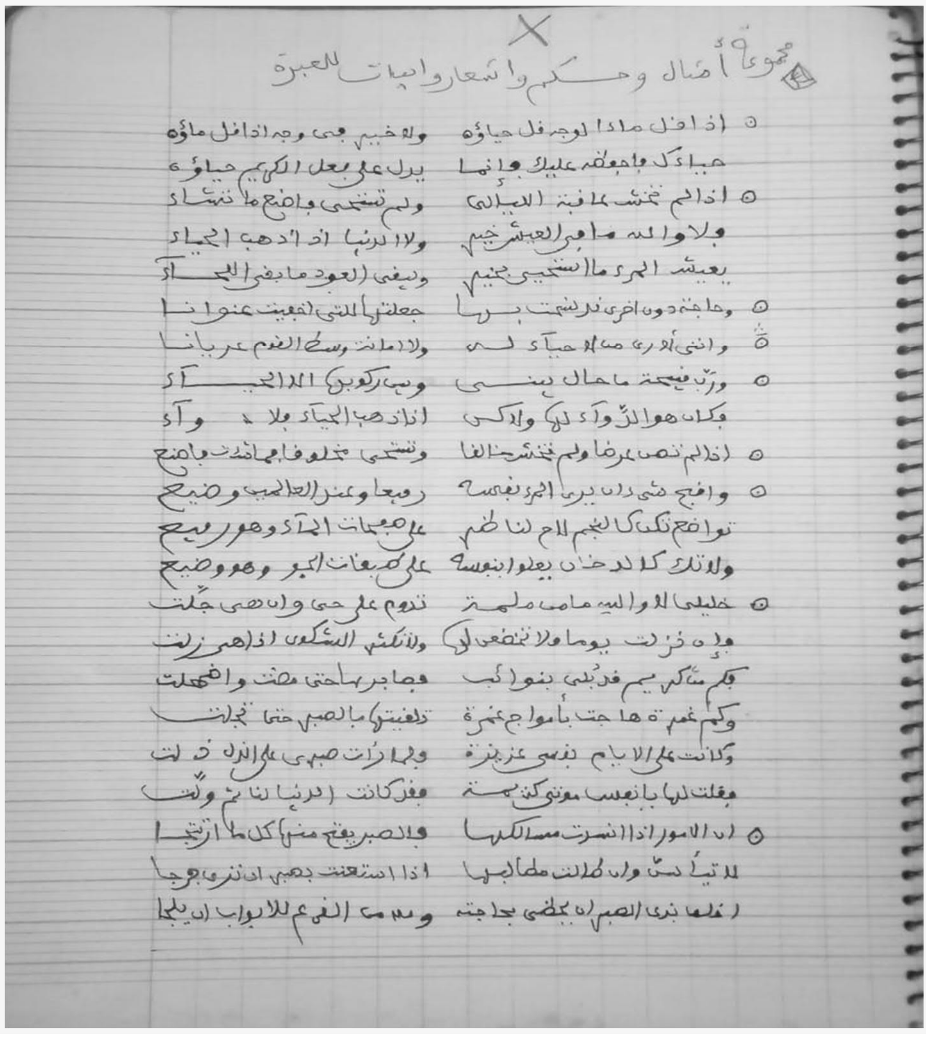
نموذج للنصوص الأدبية المشكولة والمشروحة للكلمات

(و)



دروس في الفرنسية

(ز)


مجموعة أمثال وحكم وأشعار وأبيات للعبرة

○ إذا قل ماء الوجه قل حياؤه ... ولا خير في وجه إذا قل ماؤه
حياءك فاحفظه عليك فإنما ... يدل على فعل الكريم حياؤه
○ إذا لم تخش عاقبة الليالي ... ولم تستحي فاصنع ما تشاء
فلا والله ما في العيش خير ... ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحيى بخير ... ويبقى العود ما بقي اللحاء
○ وحاجة دون أخرى قد سمحت بها ... جعلتها للتي أخفيت عنوانا
○ وإني لأرى من الحياء لبسه ... ولا أمانة وسط القوم عريانا
○ ورب قبيحة ما حال بيني ... وبين ركوبها إلا الحياء
فكان هو الدواء لها ولكن ... إذا ذهب الحياء فلا دواء
○ إذا لم تصن عرضا ولم تخش خالقا ... وتستحي مخلوقا فما شئت فاصنع
○ وأقبح شيء أن يرى المرء نفسه ... رفيعا وعند العالمين وضيع
تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ... على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يعلو بنفسه ... على طبقات الجو وهو وضيع
○ خليلي لا والله ما من ملمة ... تدوم على حي وإن هي جلت
فإن نزلت يوما فلا تخضعن لها ... ولا تكثر الشكوى إذا النعل زلت
فكم من كريم قد بلي بنوائب ... فصابرها حتى مضت واضمحلت
وكم غمرة هاجت بأمواج غمرة ... تلقيتها بالصبر حتى تجلت
وكانت على الأيام نفسي عزيزة ... فلما رأت صبري على الذل ذلت
فقلت لها يا نفس موتي كريمة ... فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت
○ إن الأمور إذا انسدت مسالكها ... فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجا
لا تيأسن وإن طالت مطالبها ... إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ... ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

مجموعة أمثال وحكم وأشعار وأبيات للعبرة والتحفيظ

(ح)


«نماذج من خطوط الصهر سيدي عبد الله الادوزي واخيه سيدي ابراهيم»

الحمد لله وحده

صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

باذن من يجب سدده الله وارشده، ببطاقة عسكرية ... [illegible]

... [illegible]

مواقع التنوبر سنة 1947 الفقير الى ربه ابراهيم بن محمد العوينى ... وعبد الله بن محمد ... [illegible]

الحمد لله وحده

صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

باذن من يجب سدده ... [illegible]

نماذج من خطوط الصهر سيدي عبد الله الأدوزي وأخيه سيدي إبراهيم العدلان الموثقان بنظارة ومحكمة سيدي احمد اعمو القاضي بتيزنيت

(ط)



الزميل في العوينة ابت عبد الله ابن شيخي سيدي علي ابت في أقصى اليسار يليه الزميل ايت بنعلي الصغير وفي الوسط صاحب الذكريات الى جانب سيدي أحمد التوفيق وبعده علي صدقي ازايكو رحمه الله

(ي)



في يوم الاحتفال من أجل سابع ولادة الطفل علي نجل محمد أبت المتصدر وأنا خلفه وبجانبي أحمد الطالبي المسعودي يعلوه

(ك)



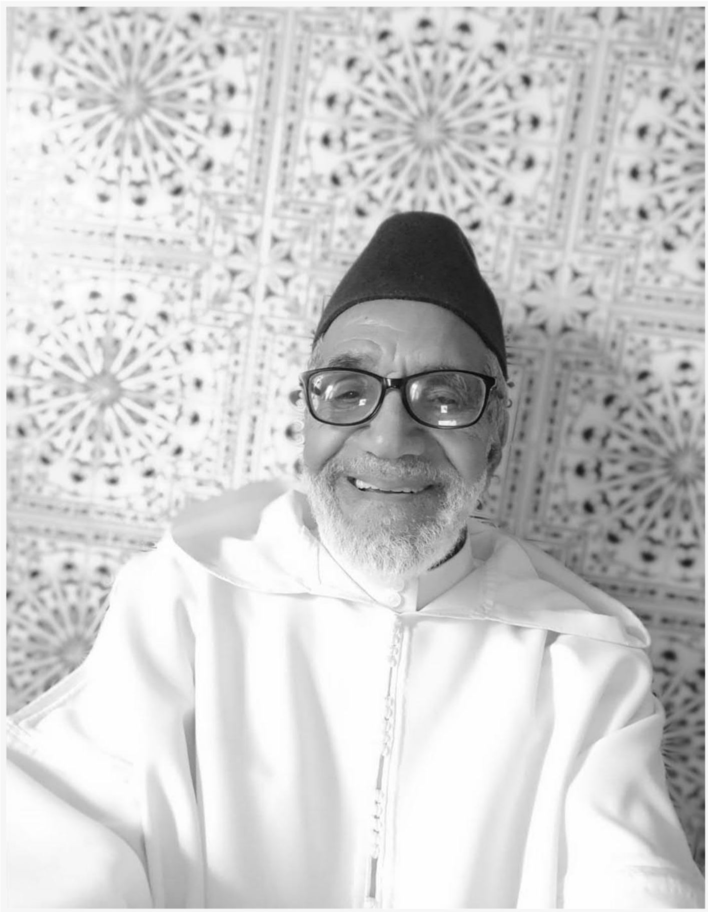
مع خالي العربي مومادي بدار الجدة والمكنى بالعربي نشاين في خلال هذه الذكريات

(ل)



مع زملائي المعلمين من بينهم عبدالله المسعودي على يمين الواقفين وأنا في أقصى اليسار وبجانبي الزميل المرحوم علي النابغة وتأخر رئيسا لمحكمة أكادير لسنوات

(م)



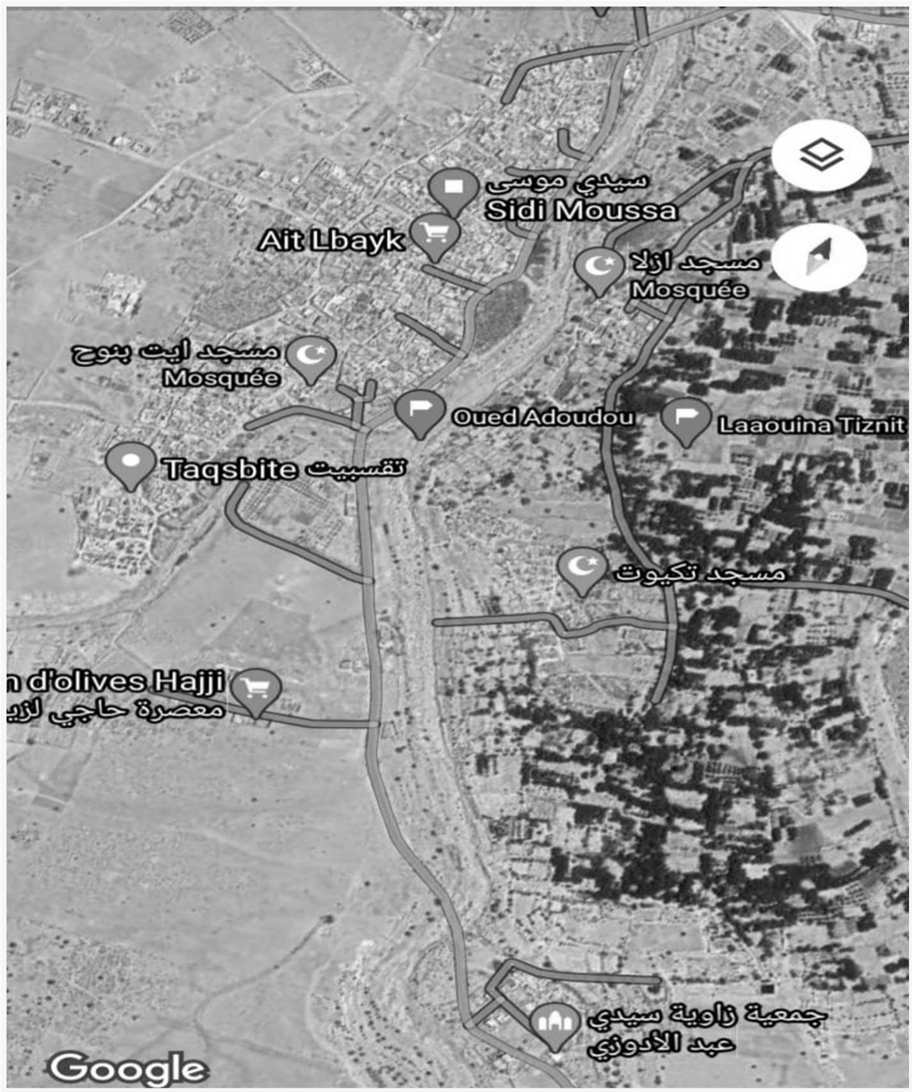
الفقيه المصنف لمجموعة من الرسائل في الدفاع عن فقه الإمام مالك وثوابت الأمة ممن زار موسم الشيخ سيدي عبلا الادوزي العويني وحاضر في تلك الليلة بموضوع في الآداب الإسلامية السامية انطلاقا من سورة الحجرات بحضور شباب وزوار الموسم صحبة الواعظ العدناني وعبد ربه الأبوتيين عبد الله وأخيه محمد منذ عقدين من الزمان وبحضور قراء الجامع الكبير وإمامه والفقير المرحوم محمد أتنان والمشرف على تنظيم الموسم الصهر العزيز الحسن الأدوزي

(ن)



منظر من بعيد تبدو منه العوينة وبعض المجاري غير المستوية

(س)



خريطة قمرية صناعية تظهر بعض المعالم الرئيسية على ضفتي وادي أدودو وتخلو من الاشارة إلى المسجد الجامع وسط أيت البايك الموازي لمسجد إيزلا على الضفة اليسرى للوادي والمقابل لمسجد إيزلا تقريبا

(ع)



الصومعة الجديدة لتمزكيدا الجامع أثناء زيارتي الأخيرة للعوينة، وبقرب المسجد مشروع بناء مقر جمعية التنمية والتعاون بالعوينة من إنشاء الجمعية وكان صهري الحسن اعبلا من مؤسسي هذه الجمعية الأوائل خلال التسعين من القرن الماضي في نفس المكان

(ف)



صورة حديثة لي وللصهر حسن الأدوزي ولحفيدتي الشيخ زوجتينا خديجة وأختها زينب أمام شجرة أبناء الشيخ عبد الله أمحمد ومن معه من البنين والحفدة بضريحه بالعوينة

(ص)



صورة عن الحوش الذي يتوسط الضريح ويضم الشيخ وذريته من أبناء وأحفاد وحفيدات

(ق)



المركب الجنائزي والروحي والثقافي والاجتماعي لزوار زاوية الشيخ محمد اعبلا بأوبار قرية العوينة

(ر)



ديار أصهاري الأدوزيين العوينيين وعلى يسارها المركب الجنائزي والروحي والثقافي والاجتماعي للسالفين ومن بعدهم من الزوار والوافدات

(ش)



نواة مشروع الخزانة الأدوزية بمقر جمعية حفدة الشيخ بأوبار العوينة وتضم مجموعة من مؤلفاتي ومن ضمنها نسخا من هذه الذكريات وبعض هدايا المجلس العلمي المحلي لمراكش من منشوراته وكتبا وقفية على الخزانة من مكتبات الأسرة وغيرها

(ت)



المدخل المحدث في قبلة حوش المسجد الجامع الذي يضم الحمام البديع الصنع وتافضنا التي يتصل بها أنبوب يصب الماء الساخن في المتوضأ الكبير الشامل لحوانيت للاغتسال وبه دكة في الوسط مغتسلا للثياب والجنائز

(ث)



الواقفون من اليمين :1- محمد السملالي 2 - طه الأدوزي 3- ابراهيم الطالبي 4- علي الأدوزي 5- حسن الأدوزي 6- البشير الأدوزي 7- الحسين الأدوزي 8- يونس الأدوزي 9- عبد الرحمن بن يحيى الأدوزي 10- واصل البايك 11- جلال الأدوزي.

الجالسون من اليمين: 1- إسحاق اليعقوبي 2- هشام البايك 3- محمد المختار الأدوزي 4- محمد بن علي اليعقوبي 5- حسن اد الطالب 6- أنيس الأدوزي

(جمعية زاوية سيدي عبد الله الأدوزي خرجة ترفيهية لفائدة الشباب)

(خ)



تيزنيت (العين الزرقاء) النبع الذي انتجعه الواردون والمتنزهات والسقاة والممدودة إلى بساتين تيزنيت داخل وخارج السور قديما ومركز تيزنيت الأول تاريخيا ونشأة بقية المنشآت الكبرى حولها والأسوار وقصة المرأة التي نسبت إليها الميثولوجيا سبب التسمية

(ذ)



المدرسة العتيقة والمعهد والمسجد الجامع المطل على العين الزرقاء والذي درسنا به واستمعنا إلى شيوخه وامتحنا في رحابه لنيل أول شهادة ابتدائية بعد الاستقلال

(ض)



حديقة مردوخ بعد التجديد

(ظ)



سوق القريعة بالدار البيضاء كما أدركته سنوات 1951/1950/1949

(غ)



إحدى السينمات التي كنت أتردد عليها في ما بعد الزوال بالدار البيضاء أوائل الخمسينات (سينما المامونية)

(أ)



مدخل الحبوس عند قنطرة القطار كما يبدو قديما

(ب)



سينما الأطلس وأول عرض في الدار البيضاء في عهد الحماية لشريط (ظهور الإسلام) لمدة أشهر مع الإقبال الشديد

محتويات

شكر وتقدير واعتذار 7

بين يدي هذه الذكريات 9

تنقلات بين سوس وبلاد الشاوية 17

معاقد الطفولة الأولى.. 18

أمكنة الطفولة 21

العوينة القرية الأولى المهدومة على الضفة اليمنى لوادي أدودو 26

العوينة الجديدة على الضفة اليسرى لوادي.. 28

أسوار العوينة الجديدة وجباناتها ومحيطها داخل السور 33

أناشيد الصباح في قريتي 37

العين المنبجسة الثالثة حيث مسقط رأسي 40

العين الرابعة النابعة من على بعد عشر كلم من القرية 42

مدينة بحجم الكف.. 49

وأنا طفل بين البحر والوادي.. 54

دهشة طفل محاصر بين القرية والوادي في صور من البحر المتقارب 57

الدهشة الثانية بالدراجة الهوائية 69

الدهشة الثالثة بلقاء المحيط أول مرة.. 71

حوار مع محيط الجنوب الهادر.. 75

الشاطئ المتوحش.. 78

النسب الأصلي للوالد عبد الله بن مبارك البعقيلي 87

أولا: يذكر من بينهم الشيخ مسعود بن محمد 90
ثانيا: وكذلك الشيخ محمد بنهِمُّوشْ.. 91
ثالثا: وممن تشيخ في آيت تلمشت إد أعبون 91
رابعا: ومن شيوخ القرية الصغار المسمى ب (أمغار إيزلا) 92
خامسا: ولعل أقوى شيخ أدركته.. 94
أما سيدي عبلا الأدوزي فكان يقوم بتنظيم المجال..................................... 96
لوحات فنية عن جمال طبيعة سوس 101
خلال جزولة 106
وكان من أنباء الوالدة التي تذكر للعبرة.. 112
حلم مزعج 116
عند واسطة عقد القرية سيدي علي أُبَتِّ الهماني 121
أحفاد شاكر بين المحراب والكتاب 134
لطائف وطرائف ومواقف من ذكريات الكُتاب الأول بالعوينة........................ 146
ذكرى البروز لاستقبال الوفد القافل من الحج.. 148
ويوم حذاق القرآن للمحضار (سِّي الحسين أُعْبْدْرْحْمْ) 149
الوافدون من تيزنيت 151
ومن الوافدين على كتاب الجامع من أيت بربيم....................................... 152
ومن الساحل 152
ومن الأسر العوينية 152
ذكريات طفل بين الوادي والساقية والعين الفياضة..................................... 155
ذكريات عن حوار العين والوادي وتبادل الأدوار....................................... 159

عرس وسط قرى جبل آيت الساحل 167
سنوات بالدار البيضاء قبل الاستقلال.. 171
ذكرياتي من تلميذ بالتعليم الحر إلى معلم 173
طفل بين الكتاتيب والمدارس العصرية.. 177
بين كتاب (درب الحبوس) وحلقات الفرجة بالقريعة.. 179
طفل زائغ بين كتاب الأحباس وحلقات القريعة 181
وأنا أمر عند باب القلعة المخيفة.. 183
وفي مدرسة الحلقات الشعبية (بالقريعة).. 185
بين أزقة القريعة ودكاكين باعة الحليب 187
استرجاع بعض ذكرياتي والوالدة مع السلطان محمد الخامس.. 195
وتَجربة تلميذ في التعليم الحر 199
من البيضاء إلى مدينة سطات 201
الإرث اللاشعوري المترسب في ذاكرتي عند مغادرتي البيضاء.. 211
من ذكريات الوطنية وحب صاحب العرش 218
إقامة قصيرة بالدار البيضاء في ظرف سياسي حرج.. 221
أولا: الفرجة في سينما الأطلس.. 222
ثانيا: ثم تعرفت بعد ذلك على (سينما المامونية) 223
وزيارة خاصة لأحد أخوالي محمد (ند بهايتي).. 225
وحافلات كهربائية غير ملوثة تقطع الشوارع الرئيسية.. 226
وأعجوبة العمارة ذات السبعة طابقا بدرب (بنجدية).. 227

وزيارة أكبر ميناء في إفريقيا... 229
وزيارة خاطفة إلى أزمور ومولاي بوشعيب 231
أحداث الدار البيضاء خريف 1952 239
ذكريات طفل عند عين السباع والذئاب 240
وخمس سنوات خصبة فيما بعد ما بين كُتَّابِ العوينة ومدرسة سيدي محند الشيشاوي 243
الختمة الأولى للقرآن الكريم... 247
بعض الشخوص من طلبة (لحضار) وأعلام القرية 254
سِّي مُحَمَّادْ أُبِهِ أَزْمَانِي... 259
فإلى طلب العلم بمدرسة سيدي محند الشيشاوي 267
أسماء أعلام من علماء الدائرة الكبرى لسهول تيزنيت 269
تميز مدرسة سيدي محند الشيشاوي خلال هذه الفترة 276
حلول الفقيه العتيق بالمدرسة الشيشاوية... 279
لكل داخل دهشة وبداية متن الأجرومية 281
الفقيه يعهد بي إلى أحد المعيدين من ناحية (الساحل) 284
ومن متن ابن عاشر في الفقه المالكي والاعتقاد والتصوف 288
استغلال المناسبات للتحرر من المقررات 291
الفقيه يتخذ موسم الحصاد مناسبة لاستضافة الطلبة.................................... 296
الراديو يتوسط نافذة من نوافذ صالون الفقيه 297
انفتاح الفقيه على الأساتذة الزائرين... 301
ما سر هذه القصيدة وما علاقتها بالنفس.. 304

ومن سوس وإفران وشاعرهما الطاهر الافراني إلى فاس................................314
وثالث نجباء العلم والأدب والوطنية..319
وثلة من الشباب الفتيان الحضريين في المظهر..322
جوانب من شخصية العتيق وكرمه وتجديده وتحديه 345
أولا: إطلاق الحرية في التصرفات للطلاب مع الإشراف الحكيم من بعيد 345
ثانيا: إضافة علوم ومواد جديدة حرة على النظام العتيق...............................346
اشتهار المنطقة بعلم السحر والطلسمات 349
الفقيه سيدي صالح الصالحي الإلغي 353
وإحياء مراسم ومواسم اللقاءات الشعبية...355
وقائع وأحداث وعالم يولد ما بين (1955 - 1956) 357
في معهد تيزنيت العتيق بعد اجتياز أول شهادة ابتدائية 361
الفقيه الشاب الألمعي الباعمراني النبيه آنذاك 362
الأستاذ إبراهيم السليماني 362
الفقيه النبيه الباقعة البعمراني...362
الفقيه محمد بلباز 363
محمد الخامس في زيارته للمعهد سنة 1959..366
الطالب الباعمراني جُهادي الحسين..368
ذكريات بعضها مؤلم ولكنه محمود العاقبة...369
الملحق 379
محطات 411

المطبعة والوراقة الوطنية
IMPRIMERIE PAPETERIE EL WATANYA
Imprimerie EL WATANYA
زنقة أبو عبيدة، الحي المحمدي، الداوديات - مراكش
RUE ABOU OUBAIDA, CITE MOHAMMADIA, DAOUDIAT - MARRAKECH
TEL.: 05 24 30 37 74 LG / 05 24 30 25 91 - FAX: 05 24 30 49 23
iwatanya@gmail.com www.elwatanya.com

« وقد أفرد المؤلف بالكتابة شطرا من حياته الأولى : طفولة ونشأة ودراسة قرآنية وعلوما عربية في الكتاتيب والمدرسة العتيقة وما يتخلل ذلك من تنقلات من القرى إلى الحياة الحضارية في حضن الأبوين بالدار البيضاء وما جاورها في بوتقة الحراك الوطني لأجل الاستقلال وفي النزع الأخير للوجود الفرنسي ثم العودة من جديد إلى المنشإ والمنطلق في مجتمع قروي فلاحي بعوينة إذا اوبلال مسقط الرأس والتي تتعايش في فضائها ساكنة من أحلاف وأمشاج إلى جانب أسر رئاسية وعلمية ومرابطية ذات تأثير اجتماعي وكان للمؤلف ارتباط ببعضها بالمصاهرة كعائلة سدي (عبد الله او محمد) الأدوزي أخوال العلامة محمد المختار السوسي والتي خول بها أنجاله ».

« ولعل أكثر ما يغري على المتابعة أسلوبه ولغته المشرقة في الحكي عن طفولته وفي رصد الأحداث والتقاط جزئياتها بذاكرة صافية وبقدرات تعبيرية رصينة ينساب الكلام من لسانه ويراعه راصدا كلما يجري في محيطه تشخيصا وتمثلا لصور الحياة وتمظهراتها في بيئتها القروية والحضارية في بساطتها وسذاجتها أحيانا ولكنها ممتعة بواقعيتها وصدقها وشموليتها ».

مقتطف من مقدمة هذه الذكريات

9 789954 687185

Imprimerie EL WATANYA